



المركز القومى للترجمة

2685

سيمونتا أنيللو هورنوبي

رواية

قاطفة اللوز

ترجمة: نجلاء والي



قطاع الثقافة بأخبار اليوم





قاطفة اللوز

(رواية)

تأليف : سيمونتا أنيللو هورنوبي

ترجمة : نجلاء والي



تأسس فى أكتوبر 2006 تحت إشراف : جابر عصفور

مدير المركز : أنور مغيث

- سلسلة الإبداع القصصى

المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- قاطفة اللوز
- سيمونتا أنيللو هورنوبى
- نجلاء والي

- العدد: 2685
- الطبعة الأولى : 2015
- اللغة : الإيطالية
- رقم الإيداع : 25892 / 2014
- الترقيم الدولى: 3 1649 08 977 978
- الإشراف الفنى: حسن كامل
- لوحة الغلاف للفنان الإيطالي: Felice Casorati

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي، وتعريفه بها. والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

قاطفة اللوز



رئيس مجلس الإدارة

ياســـر رزق

المدير العام

عزت القمحاوي

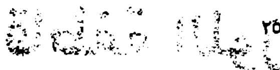
قاطفة اللوز

سيمونتا انيللو هورنوبي

ترجمة: نجلاء والي

إدارة التسويق

تليفاكس : ٢٥٧٩٥٨٩٦



email : thakafa.ad@gmail.com

FaceBook: thakafabookstores

الوكلاء بالخـــارج

الموزع الوحيد بالمملكة العربية السعودية

المكتبة العصرية : جدة - الرياض - أبها

٦٧٣٠٦٥٨ - ٤٧٣٠٠٣٤ - ٢٣١٧٩٧٥

أنيللو سيمونتا

قاطفة اللوز/سيمونتا أنيللو ،

ترجمة نجلاء والي .-ط ١ .- القاهرة :

دار أخبار اليوم قطاع الثقافة ، ٢٠١٤.

ص ، ٢٠ سم

تدمك ٩٧٨٩٧٧٠٨١٦٤٩٣

القصص الإيطالية

أ- والي نجلاء (مترجم)

ب- العنوان

٨٥٣

قاطفة اللوز

هذه ترجمة كتاب

La Mennulara
Di : Simonetta Agnello Hornby

Prima edizione ne "I Narratori" settembre 2002
Prima edizione nell "Universale Economica" marzo 2004
Undicesima sedizione gennaio 2008

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: 27354524 فاكس: 27354554

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax:27354554

الاثنين ٢٣ سبتمبر ١٩٦٣

١. دكتور ميندكو يحضر وفاة إحدى مريضاته

شعر الدكتور ميندكو فجأة بالإرهاق، ألم بساقيه وتنميل بذراعيه؛ فقد ظل جالساً أكثر من ساعة فى الوضع نفسه، ممسكًا بيدى منولارا، يمسد أناملها بحركة دائرية رقيقة مستمرة.

رفع يدها اليمنى، تاركًا الكف اليسرى مفتوحة فوق الفراش الذى سكنت فوقه يدا الراحلة اللتان لاتزالان دافئتين.

كانت لحظة جليلة، يعرفها جيداً وطالما شعر فيها بالتأثر الشديد، الدور الأخير للطبيب عندما يهزمه الموت، أغلق جفنيها برقة. أعاد وضع اليدين، شبك أصابعهما ووضعهما بعناية فوق صدرها، سوى غطاء السرير وشده إلى أن غطى به كتفيها وأخيرًا قام ليخبر عائلة الفاليبى بوفاة منولارا.

بقى معهم الوقت اللازم، أعطى لجانى الفاليبى المظروف المغلق الذى يحوى آخر وصايا الميتة ونزل بسرعة درجات سلم البيت ملتقيا بالجارات اللواتى حضرن للتعزية.

أحس بالاختناق فى ذلك المنزل وما إن خرج من البوابة الخارجية، حتى خطا خطوات بطيئة قصيرة وتنفس بملء رئتيه هواء الصباح النقى. كان الطريق لا يزيد عن عشرات الأمتار إلا أنه بدا أطول، نظرا لضيقه وازدحامه بالانعطافات التى صنعتها الأبنية المكونة من طابقين أو ثلاثة، والتى تضاعفت على مر السنين بشكل عشوائى، وتكدست الواحدة فوق الأخرى والتحمت بالمبانى الأصلية، فشكلت معها ما يشبه سورين ضخمين متجاورين وغير منتظمين، يقطعهما قوسان يخترقهما نفق يمر من خلاله، ويتلوى سلم يؤدى إلى السهل، وهو أحد هذه السلالم المكونة للشبكة الرئيسية للطرق فى روكاكولومبو إحدى المدن الداخلية الملاصقة لسفح الجبل.

تذكر الدكتور ميندكو أنه لم يلف مسبحة حول أصابع المتوفاة كما جرت العادة. استرجع فى ذاكرته حجرة منولارا ليدرك سبب تقاعسه. كانت حجرة فارغة بشكل خاص. لا يوجد بها إلا الضرورى: سرير، ومقعد، ودولاب، وأباجور وراديو فوق الكومودينو، ومنضدة ضيقة تستخدم كمكتب، عليها صينية صغيرة معدنية تراصت فوقها بنظام شديد، أقلام حبر، وأقلام رصاص، وممحاة كبيرة لمحو الكتابة وفوق الرف صورتان إحداهما لأولاد إخوتها والأخرى باهتة لوالديها، بعض الدفاتر، وعدد قليل من الكتب. كانت الجدران عارية إلا من نسخة لأيقونة العذراء والمسيح طفلاً لفيرتى عند رأس السرير.

كانت الغرفة تفتقر إلى اللمسة النسائية والحس الدينى؛ ذلك المزج بين صور دينية، وتماثيل للعذراء وقديسى البلدة، وقنينات مليئة بمياه مقدسة من بلاد بعيدة؛ كل تلك الأشياء التى يزدحم بها كومودينو السيدات، خلت حتى من السبحة. ورغم ذلك كانت غرفة نوم منولارا مفعمة بإحساس عميق بالتدين، يكاد يصل إلى درجة الرهبنة.

كان الجزء المرئى من السماء من بين الأسطح المدببة غير المنتظمة ساطع الضياء باهت الزرقة.

توقف الدكتور ميندكو لحظة، تنفس بعمق، رفع عينيه وحملق بشدة فى السماء، قال بصوت منخفض: «من يدرى أين ذهبت روحها، الآن فليرحمها الله».

وهبط السلم الذى يؤدى إلى بيته كان جرس الدير يدق الحادية عشرة. حسب ميندكو أنه، قبل موعد الغداء، سيكون لديه الوقت الكافى لاجراء بعض التليفونات وتناول القهوة والتمشية كان يحتاج إلى البقاء وحيدًا «حتى طبيب عجوز مثلى لا يعتاد على فكرة الموت» همس لنفسه وهو يدق جرس بيته.

عاد جانى إلى ردهة البيت بعد اصطحاب الدكتور ميندكو إلى الباب. كانت الأم والأختان ينتظرن فى صمت.

لم تجرؤ سانتا على الدخول احترامًا لعائلة الفاليبى وتطبيقاً لأوامر منولارا. لم تستطع على أية حال كتم الفضول، وبقيت فى الردهة مستندة إلى باب المطبخ، كان وجهها لم يزل متقلصاً مبللاً بالدموع وذراعاها مهدلة إلى جانبيها، تسترق السمع لفهم ما تناثر من حديث السادة أصحاب المنزل.

ارتمت السيدة الفاليبى فوق «الفوتيه» وألقت برأسها فوق مسنده، امتلأت عيناها بالدموع وشردت نظراتها، وليللا مستندة إلى ذراع المقعد تمسح جبهتها، بينما كارميلا تقف بالتراس منتظرة عودة الزوج. سألت ليللا جانى:« ماذا أعطاك الطبيب؟». أظهر جانى المظروف وقد كتب اسمه فوقه بأحرف كبيرة وخط غير منتظم: كان خط منولارا. التفتت كارميلا عند سماع كلمات أختها. كانت تتأملهما وعند رؤية المظروف، لحقت بهما بسرعة صارخة:« لعله الوصية لا تفتحه، ينبغى انتظار ماسيمو» ورددت بصوت تتصاعد حدته: «ينبغى انتظار ماسيمو.» أجهشت السيدة الفاليبى بالبكاء مرة أخرى، ورددت بصوت خافت كما لو كانت تبتهل: «كنت أعلم أن منو كانت ستفكر فيّ فقد كانت تحبنى». جانى وليللا أرادا فتح المظروف فورًا، إلا أنهما لم يجرؤا ولم يتسع الوقت لمجادلة أختهما لأن سانتا والجارات اقتحمن الحجرة بأصواتهن وإشاراتهن فى وقت واحد لتقديم العزاء وعند رؤيتهن انخرطت السيدة الفاليبى فى نحيب مستعر، هرعت اليها النساء على الفور لمواساتها.« ماذا سيحدث لى، كانت منو تعتنى بى ، الآن ماذا سأفعل وأنا مريضة...»

احتضنت كل منهن الأخرى فى عناق طويل وقد اختلطت روائح عرق آباطهن بروائح الطعام الذى كن يطهونه، خليط من الثوم والزيت والطماطم والبقدونس ولبابة الخبز. رائحة قديمة طالما صاحبت احتقار عائلة الفاليبى للطبقات الدنيا فى المجتمع.

اقشعرت ليللا من فكرة أن أمها عاشت منذ وفاة أبيها بمنزل يشاطرها فيه بائع السمك، وكهربائى عائلة الفاليبى، وموظف صغير. شكرت الأقدار التى جعلتها تعيش فى روما بعيدًا عن تلك البلدة القذرة وأخفت استياءها بعد آخر حضن كريه الرائحة. أوضحت ليللا للنساء أن الأم مجهدة، وكانت على وشك الإغماء، ولحسن الحظ

أسعفها الطبيب ميندكو بالدواء، وأمرها بالراحة فى الفراش. أما هى وكارميلا فلن يتركها وحدها تعانى من الانهيار، بل ستبقيان معها، والجارات الفضليات يمكنهن البقاء بالبيت أو الذهاب إلى الحجرة التى ترقد بها منولارا، ويمكنهن إن أردن، مساعدة سانتا فى تجهيز الجثمان أما الأختان فستتوليان العناية بالأم المحتاجة إلى مساعدتهما فى هذه اللحظة الصعبة.

السيدة الفاليبى تأكيدًا لما ذكرته الابنة والتى كانت تتحدث بثقة يسمح بها وضعها كزوجة لطبيب، غاصت فى المقعد الوثير ومدت ساعديها فوق ذراعى المقعد وتركت يديها تتدليان، وألقت برأسها على مسند المقعد. بدأت تهمهم:« لا أشعر بأننى على ما يرام، ربما سأفقد الوعى» وعند نطق هذه الكلمات، هرع إليها أبناؤها الثلاثة وسانتا بيد أنهم. لم ينجحوا فى تجنب التدخل الحتمى الملح للنساء اللائى لم يكنّ قد غادرن الحجرة بعد، وكل منهن تتبارى فى النصح والمبالغة فى المساعدة.

حملن معاً السيدة الفاليبى إلى حجرتها وأرقدنها فى فراشها، فكانت هناك من تقدم لها كوباً من الماء أو من تضع فوطه مبللة بالمياه فوق جبهتها أو تضبط وضع الوسادة خلف ظهرها، أو تمسك بمعصمها. والسيدة الفاليبى مسرورة، راضية برعايتهن لها لدرجة تخشى معها أن تفقد تلك الرعاية إن شعرت بالتحسن، زادت من الشكوى والنحيب. وعندئذ وصل الصهر.

لم يجرؤ ماسيمو ليونى على اصطحاب كارميلا فى ذلك الصباح، عندما اتصلت سانتا لتوقظهم وتخبرهم بأن مونلارا تحتضر. فضّل البقاء ببيت الفاليبى، الذى يبعد مسافة دقائق فى انتظار الأخبار. فقط عندما اتصلت به كارميلا لتخبره أن المرأة دخلت فى غيبوبة، شعر بأنه يمكنه اللحاق بها وكان فى اللاوعى لم يزل يحترم أمر مونلارا:« أقسم برأس أمى أنه لن يضع قدمه فى بيتى الذى أعيش فيه.» كان حرمانًا وطردًا حقيقيًا. كان ماسيمو قد تزوج من كارميلا منذ سبع سنوات، وطوال تلك السنوات لم يكن مسموحًا له بالدخول من البوابة أو الاتصال تليفونيا بزوجته أثناء إقامتها فى ذلك البيت. كرهها دائما ولم يزل يكرهها الملعونة مونلارا. الآن ماتت أخيراً.

كان يرتقى السلم وقد تملكه شعور بالإثارة ممتزجًا بالضغينة. سينظر إليها جسدًا ميتًا، لكنه أدرك أنه ليس بإمكانه البصق على جثتها؛ فالأصوات التى كانت تتصاعد من الداخل تشى بأن زيارات التعزية قد بدأت لتوها.

كانت الجارات تعاملنه كأحد أفراد عائلة الراحلة، يحطن به بعطف فى محاولة للتغاضى عما يسببه الموقف من حرج؛ فقد كن يعلمن جيدًا بإقصاء منولارا له. كان لكلمات التعزية مغزى محدد: «كانت تحب زوجة سيادتك كابنتها، كانت تفعل كل ما تستطيع من أجلكم. كانت طيبة صدقنا»

وبمجرد أن تمكن ماسيمو من التملص منهن، هرع إلى حجرة نوم الحماة، حيث كان صهره ينتظره بقلق.

حيا كل منهما الآخر بسرعة دون القبلات، والعناق المعتاد.

حرصت ليللا على إغلاق الباب جيداً بعد أن طلبت من سانتا تركهم وحدهم، وألا تسمح بدخول أحد. ثم نظرت إلى أخيها نظرة بليغة.

فتح جانى فوراً المظروف وأخرج ورقة وبدأ فى قراءتها بوجه عابس. الأختان وصهره لم ينبسوا ببنت شفة، وتسمروا حوله. استمر جانى فى قراءة الخطاب فى صمت. لم تستطع ليللا السيطرة على نفسها:« اقرأه للجميع، ما رأيك؟»

أعطاها الأخ الخطاب: «لا أفهم شيئا، انظرى أنت.» بدا أن الأم عادت إلى وعيها فجأة وكانت تتابع حديثهم. وعند سماع كلمات جانى، سقطت مرة أخرى فوق الوسائد تئن وتتألم.

فى هذه المرة لم يعرها أحد اهتماماً حيث إن جانى بدأ فى القراءة بصوت عال:

«ليست هذه بمثابة وصية حقيقية، إننى قد أعطيتكم كل مايحق لكم، وليس لديكم أية حقوق أخرى عندى، ولكنى أطلب منكم أن تنفذوا ما أقول للمرة الأخيرة

وسأجلب لكم نفعا كثيراً. أريد جنازة بروكاكوملبا بدون مسيرة فتيات يتامى وراهبات، يحضرها كل عائلة الفاليبى لأننى أستحق ذلك، وسيتم دفنى فى المقبرة التى اشتريتها أمام مقابرعائلتكم، كما يقضى العرف بالنسبة «لخادمة» ببيت الفاليبى. يجب وضع صورتى مع الكلمات الآتية:

«هنا ترقد ماريا روزاليا أينتسريللو المعروفه باسم منولارا والتى التحقت بخدمة عائلة الفاليبى عندما كانت فى سن الثالثة عشرة، وخدمت العائلة بكل إخلاص وأمانة إلى أن وافتها المنية».

ليس لدى شيء لأتركه لكم، البيت الذى قضيت به نحبى كتبته باسم السيدة أدريانا إن رغبت فى الحياة فيه، وعليكم أن تبحثوا لها عن خادمة ماهرة وتدفعوا لها أجرًا جيدًا كى تجد من يخدمها حتى وفاتها. اعطوا الأشياء التى تركتها بغرفتى للأب أرينا كى يعطيها للفقراء والكنيسة. كل ما تبقى من الأثاث أتركه للسيدة أدريانا. أريد أن تقوموا بنشر النعى فى جريدة«جورنال دى سيشيليا»كما أمليه عليكم كلمة تلو الأخرى:

اليوم توفيت
ماريا روزاليا أينتسريللو
المعروفة باسم
منولارا
عن عمر ٥٥ عاما
مديرة أملاك وخادمة لدى عائلة الفاليبى
تعلن عائلة الفاليبى هذا الخبر المؤلم
وتعبر عن حزنها العميق لمصابها الفادح

يعلن النبأ الحزين السيدة أدريانا مانجرشينا، أرملة المحامى أوراتسيو الفاليبى، الابن جانى وزوجته أنا كيوفاروا، الابنة ليللا وزوجها ماسيمو ليونى. عاشت ببيت الفاليبى منذ كانت فى الثالثة عشرة وخدمت بإخلاص العائلة التى ترثيها بالدمع

الوفير. وستقام الجنازة فى تمام الساعة الثالثة بكنيسة العذراء الأم يوم ٢٤ سبتمبر ١٩٦٣ وسوف تشيع الجنازة إلى مقبرة روكا كولوممبا للدفن بمقابر العائلة.

لا تبلغوا أبناء أختى بخبر وفاتى، فأنا لا أريد حضورهم الجنازة، الروح تعود إلى الرب والإرث لمن يستحقه.»

بادرت الأم بالحديث: «ألم أقل لكم بأن منولارا فكرت فى كل شىء، تترك لى بيتها.. ومن منكم سيعتنى بى، بعد أن أصبحت وحيدة؟» رفعت رأسها من فوق الوسائد ونظرت حولها، ثم تكومت فى سريرها بصمت. تجاهلها تماما الأبناء وزوج الابنة الذين أصابهم الوجوم.

وفى تلك الأثناء، انتزع ماسيمو الورقة من يد جانى وحدق بها طويلا وجعل صوته يعلو تدريجياً:

«أية ورقة هذه أين الأموال؟ ولمن تتركها لقد تحملت إهانات تلك العاهرة لأنك، لأنك...... كان يصرخ مشيرا بإصبعه نحو الزوجة، كنت تقولين إنها كانت ستحترمنا عند موتها! غبية لست إلا غبية!»

أجهشت كارميلا بالبكاء، واتجهت إلى سرير الأم تحتمى به، بينما كان جانى يحاول تهدئة صهره مذكرا إياه بأنهما ليسا ببيتهما، وأن فى الحجرة المجاورة مجموعة من الاشخاص فى زيارة تعزية، كلهم آذان صاغية لإشاعة ما يسمعونه منهم فى البلدة كلها.

جلست ليللا فى أحد أركان الغرفة وحيدة، مستغرقة فى قراءة الخطاب مرة أخرى. ثم تحدثت بصوت منخفض محاولة السيطرة على الغضب الذى كان يجيش بصدرها وكانت تشعر به يصعد إلى حنجرتها ويمتزج بكلماتها:« لقد نظمت كل شىء، حددت أيضا ساعة الجنازة وطلبت من الطبيب ميندكو كتابة الخطاب لها. يبدو بوضوح أنه خط شخص آخر. خطاب خبيث، لا ترغب فى حضور أى فرد من عائلتها للجنازة، ربما قد قطعوا علاقتهم بها ولن يدهش أى منا لذلك، بينما على

العكس تريد.بل تأمر مرة أخرى أن نتحمل نحن نفقات الجنازة ونشر هذا النعى العبثى المخجل ركيك اللغة الملىء بالأخطاء النحوية وغير المعتاد بالنسبة للخادمة بل «شغالة مطبخ» كما كانت تسمى نفسها، وأين ننشره على صفحات «جورنال دى سيشيليا»، وهى التى لم تخرج من هذه البلدة ولا يعرفها أحد خارج حدودها. لم تفكر فى نشره فقط فى «سيشيليا» جريدة المقاطعة، تريد إعلان خبر موتها على صفحات الجريدة التى تقرأ فى كل الجزيرة.

مصابة بجنون العظمة، نص إعلان الوفاة ليس إلا تمجيداً لها، كلمات مديح عنها لم أكن أتخيلها مهووسة بنفسها وعديمة الإحساس بالمسئولية لهذه الدرجة. الإذلال الأخير الذى يجب أن نتحمله. بل تسخر منا؛ فعلى الرغم من إقرارها بأنه ليس هناك ما تتركه لنا، تخبرنا أن الاستمرار فى إطاعة أوامرها، سيعود علينا بالنفع، يا لها من مهانة».

كان غضب ليللا قد بلغ مداه لدرجة أنها لم تستطع أن تنهى حديثها، وكان الباقون ينظرون إليها فى ذهول.

وأثناء ذلك وصل أشخاص آخرون لتقديم التعزية. كانت أصداء عبارات الرثاء المبالغة تتردد فى أرجاء الحجرة. وفى تلك اللحظة ارتفع صوت حاد لامرأة كانت تبدو وكأنها تنادى على بضاعة فى السوق:

« يالها من قديسة! قضت حياتها فى العمل والتضحية! خسارة فى الموت!» وغشى صوتها، كورال من عبارات غامضة، كانوا جميعا يتحدثون عن مآثر المتوفاة. عادت ليللا للحديث بكراهية:» تستحق أن نفتح الباب لنخبر الناس بكل صراحة ألا يبكوا تلك الخادمة التى تسخر منا دون رحمة».

كان ماسيمو واقفا ويداه تطبقان على مسند المقعد وكأنه يسحقه بيده، وقال بصوت عال كما لو كان يريد أن يُسمع كل من بالبيت: «كانت تحاول فقط ودائماً إحراجنا، هذه الورقة مليئة بالبغض»

ثم أضاف جانى بحنق ملتفتاً إلى ليللا:« أنت تعيشين فى روما أما أنا فأدرس بالجامعة وأحمل لقب عائلة الفاليبى. نشر هذا النعى بالجريدة سيسبب لى ولنا حرجا بالغاً سيعتبرنا الناس حمقى وغير قادرين على تصريف أمورنا بل سيسخر منا الجميع».

أخذت كارميلا تصرخ:«على الأقل أنت رحلت من هنا أما أنا فمن سيعتنى بى ؟ أنا أعيش هنا فى روكاكولومبا، ما سيقوله الناس عني؟»

كانوا يتحدثون جميعاً فى صوت واحد وهم يسيرون فى الحجرة غاضبين متوترين مثل حيوانات مفترسة حبست فى أقفاص.

كانت السيدة الفاليبى تتابعهم واهنة، وخائرة القوى كأنها طفلة، تتقلب بين الوسائد فوق السرير الكبير، وقد امتلأت عيناها بالدموع، دهشة وخائفاً. كان يجب أن تتدخل لمنع حدوث فضائح وأدهشت نفسها والآخرين بالنبرة الحاسمة التى تحدثت بها، فلم يكن يهمها ترتيبات الجنازة ولم تكن لتهتم بها. كل ما كان يعنيها هو الأبناء ونصيبهم وهم أنفسهم كان يجب أن يهتموا أكثر منها؛ فهى قد كبرت فى السن واقترب وقت رحيلها عن الحياة، كانت تشعر بذلك فى عظامها: «شخصية صعبة وماكرة، نعم، ولكنها أيضا أمينة وقد خدمتنا جميعاً. تستحق أن نقيم لها جنازة. صدقونى ستمنحكم كل ما يخصكم، ربما كان ذلك الخطاب يتعلق فقط بترتيبات الجنازة. بالتأكيد ستكون هناك وصية. ربما رتبت الأمر بحيث تتجنب دفع ضرائب التركات فلم تكن منو تحب دفع الضرائب. أرجوكم اهدأوا فهناك أشخاص بالخارج.»

وانهمرت دموعها ووهنت تماماً من الحوار الطويل.

أيضا كارميلا كانت قلقة بشأن الميراث وكانت تتعلق بأهداب الأمل:«ولكن يجب أن نتذكر أن منو كانت تحافظ دائما على وعدها وقد أخبرتنى بذلك حتى الليلة الماضية، يجب أن نفعل ما تقول وسنحصل على الميراث، من الجائز أن هناك وصية لدى موثق العقود أو لدى شخص آخر أو أنها قامت بإجراءات هبة أو فتحت

بأسمائنا حسابات فى البنك دون علمنا.. يجب البحث فى أدراجها لم تكن لتثق بالطبيب مينديكو الشارد. ما رأيك يا ماسيمو؟؟» كانت تبحث عن مؤازرة الزوج الذى أدار ظهره للجميع ووقف أمام الشرفة. لم يحرك ماسيمو ساكنا. شحب وجه كارميلا وارتمت من جديد تنتحب فوق سرير الأم. سانتا كانت فى ذلك الوقت تدق الباب بفضول وقلق. وكانت النسوة الأخريات قد سمعن الجلبة وكن يتحرقن شوقا لمعرفة ما حدث. سألت سانتا بحذر إذا كان من الممكن السماح بدخول بعض الأشخاص لتقديم واجب العزاء للسيدة ادريانا.امتلأت الحجرة من جديد بالأشخاص وانحل الاجتماع الأسري. كان ماسيمو قد انسل دون أن يراه أحد ولم يظهر حتى بعد الظهيرة. لم يمتلىء بيت منولارا المتواضع من قبل بكل هذا الجمع الغفير، وقد استمرت الزيارات حتى ساعة الغداء فضلا عن أفراد طبقتها حضر أيضاً أقارب وأصدقاء مقربون للسيدة أدريانا وأيضاً عمال قدامى بمنزل الفاليبى.

٢. ظهيرة يوم الوفاة عائلة الفاليبى تتخذ بعض القرارات الحاسمة، والإخوة الفاليبى يقضون الليلة، كل فى شأنه بدلاً من السهر فى بيت المتوفاة

فى أول وقت ما بعد الظهيرة، خلال فترة توقف قصيرة لزيارات التعزية غير المحتملة. اقترحت ليللا خطة عمل: «أولا ينبغى الإعداد للجنازة فالجثة لن تبقى للأبد هنا. لنفعل ما قالته اعتقد أنه مناسب ثم ندخل غرفتها ونبحث عن وصية أو أية وصايا أخرى مكتوبة. وسنتصل فى أسرع وقت بموثق العقود فاتسانو، لنعثر على المحاسب أو المحاسب القانونى الذى كان يقوم بإقرار الذمة المالية يجب أن نفهم من لديه الوصية، أما بالنسبة لنشر النعى فأنا غير موافقة على نشره بأية جريدة فى نهاية الأمر لم تكن إلا خادمة»

اعترضت السيدة الفاليبى، مستقوية بذكر المعزين لمحاسن الراحلة، علا حديث ليللا بشكل أدهش الأبناء. كانت تريدٍ أن ينشر النعى علىٍ الأقل فى البلدة مكتوباً كما طلبت منو. تحدثت طويلا بصوت قوى: «بعد موت والدكم، كانت حياتى محتملة فقط بفضل مونلارا، لكل منكم عائلته ويعيش فى بيته، لم يعرض أى منكم استضافتى أو الاقامة معى بمنزل الفاليبى. توقفت برهة ونظرت إلى جانى الابن الذكر ابنها المفضل ثم استطردت:«ومع ذلك وافقتم جميعاً على أن أعيش بمفردى. فى الليل تصك الرياح النوافذ ويرتجف زجاجها وأسمع آلاف الأصوات الأخرى. أحس بالخوف. وفى النهار، تصيبنى الحجرات الخاوية والردهات المهجورة لذلك المنزل بالكآبة، فضلا عن برد الشتاء ونفقات الصيانة. لم تفكروا فيّ، فكرتم فقط فيما سيقوله الناس، بينما أحتاج إلى صحبة. اقتراح منو أن أبيت وأتناول الطعام لديها كان الاقتراح الأفضل. كنت بالنهار حرة فى الذهاب إلى بيتى وقتما أشاء، أستقبل الناس بالبيت بالغرف التى حافظت منو دائما على نظافتها وترتيبها، لم تتركنى أبداً سواء هنا أو بمنزل الفاليبى.كانت تعلم أننى كنت سأموت رعباً. لقد اعتنت بى منو كثيراً لذا تستحق بالفعل الجنازة والنعى».

اضطر الأبناء إلى الإذعان لطلب الأم، وقد فوجئوا بالنبرة الحاسمة فى حديثها وباللوم الخفى تجاههم.

فى النهاية، توصلوا إلى حل يرضى الجميع: أن يتم نشر النعى ولكن فقط فى شوارع البلدة وأن تُعاد كتابة النص. وقد أصيبوا بالدهشة أن ماسيمو الذى أخبرته كارميلا بذلك بالتليفون، عرض أن يتولى ذلك الأمر فشكره الجميع.

مرت بقية اليوم بسرعة. وجدت السيدة الفاليبى التسرية والسلوان فى الزيارات والمكالمات الهاتفية الودود للصديقات. كانت لا تمل من تكرار سرد تفاصيل مرض منو، الآم الاحتضار، والجزع الذى سببه رحيلها المفاجئ بل كانت تشعر بالراحة من الأسى لنفسها والذى كان له ما يبرره هذه المرة.

أرادت أن يبقى جانى بجانبها وبذا يترك للبنتين الوقت لإنجاز العديد من الأشياء ومن بينها الإعداد لعودة الأم إلى بيت الفاليبى والذى كان من الأمور التى لا مناص منها على الأقل لفترة مؤقتة.

انشغل جانى وكارميلا اللذان يعرفان الناس أفضل فى تلك البلدة بالمكالمات، وزيارات العزاء العديدة والمتلاحقة فى منزل منو الصغير. كانت ليللا قد تركت روكا كولومبا عند زواجها واحتفظت بعلاقات محدودة بالبلدة، لذا تولت الإشراف على سانتا وتوجيهها فيما يتعلق بتنظيف وإعداد بيت الفاليبى، والبحث عن الوصية. وكان موثق العقود فاتسانو الذى اتصلت به بالفعل لتسأله، قد أقر ببعض الحرج لعدم علمه بأية وصية واقترح عليها أن تبحث جيدا فى أدراج منو.

كانت ليللا قد بحثت فى الأدراج وفى الدولاب عندما كانت وحدها، عند انفضاض الزائرين من حولها إلا أنها لم تجد أشياء ذات أهمية. بعض صور أولاد أختها، فواتير وإيصالات، دفتر صغير مملوء بالأرقام وعمليات الجمع، قائمة مشتروات، ملاحظات، حتى مسودات نعي. قررت ليللا أن تقوم ببحث منظم أكثر ببيت الفاليبى.

وفى بعد الظهيرة، رجعت ليللا إلى قصر العائلة وقد شعرت بالتأثر وهى تفتح البوابة الكبيرة بالمفتاح الحديدى الغليظ. وتدخل وحيدة فى البيت الذى عاشت فيه وهى لاتزال فتاة مع والديها وجدتها، تتحرك نحو غرف الخدم عابرة أماكن لم ترها منذ أعوام طويلة: الحجرة التى كانت الخادمات يقمن فيها بكى الملابس، الغرفة الملحقة بالمطبخ، المطبخ الكبير الذى لم يتم تحديثه أبدًا. ثم ارتقت السلم الخشبى الضيق المؤدى إلى حجرات

الخدم، فى الطابق الأوسط الذى طالما سكنه العديد من الخدم والذى كانت منو تنام فيه لسنوات عديدة. على الرغم من وجود الغبار والأتربة فى كل مكان، فقد كان من الواضح أن الغرف كانت تنظف وترتب بشكل منتظم؛ فبدا أن البيت كان مغلقا فقط لفترة الاجازة الصيفية. كانت فوق الأسِرّة أغطية رقيقة قديمة ولكن نظيفة، كانت أغراض الغرفة وبقية المفروشات محفوظة داخل الدواليب كى لا تتسخ بالغبار. أما الحمامات والأحواض فكانت نظيفة لم تستخدم. لم تجد شيئاً مما كانت تبحث عنه، فقط قوائم لمحتويات الدواليب، كتبت بأحرف كبيرة بخط منو المرتعش.

عندما حل المساء، تنبهت ليللا للأصوات بالبيت، صرير واصطكاك الأبواب، حفيف الأشجار التى تصفعها الرياح بالحديقة الداخلية. رفرفة أجنحة الطيور التى بنت أعشاشها تحت إفريز المبنى، وللمرة الأولى شاركت الأم مخاوفها، بل وشعرت بالارتياح لفكرة قضاء الليل فى بيت الخادمة.

كان جانى الفاليبى رجلا هادئ الطباع وقد هزته أحداث الأيام السابقة. كان يعيش حياة هادئة ومنتظمة فى كاتنيا مع زوجته الشابة التى يحبها جدًا والتى تُدرس أيضا بالجامعة، وقد أخبرته منو بحقيقة مرضها فى بداية الشهر وأعطت انطباعاً أنها لن تموت بهذه السرعة. وبمحض الصدفة حضرت ليللا إلى كاتنيا يوم السبت الماضى لإنجاز بعض الاعمال والإ كانت ستأتى للزيارة المعتادة للأم فى نهاية الشهر مستقلة طائرة الصباح الباكر من روما لتعود بآخر رحلة عودة فى اليوم نفسه. وكانت كارميلا قد أخبرتهما فى الليلة الماضية عن تدهور صحة منو وطلبت منهما الحضور فورًا.

وكانت الأختان قد قررتا بناء على اقتراح كارميلا ألاُ يقوما بالسهر بجانب المتوفاة كما جرت العادة، وأن يقتصر الأمر على قضاء ليللا وحدها ليلة أخيرة فى ذلك المنزل مع الأم التى رفضت أن تترك الجثمان وحيدًا. أما جانى فكان سيعود فى اليوم التالى مع زوجته فى موعد الجنازة ويعيدون فتح بيت الفاليبى لتعيش فيه الأم بكل ارتياح من جانبهم وقلق كبير من جانب صاحبة الشأن، وهكذا ينتهى بالنسبة لهم ذلك الوضع الشائن لإقامة الأم مع الخادمة.

عندما رحل جانى عن روكاكولومبا وتركها خلف ظهره، استطاع إعادة تقييم الوضع. كانت منو جزءًا من حياته حتى فترة المراهقة. خادمة ومربية مخلصة وحنون ثم مديرة منزل وأملاك العائلة. مع الوقت قست مشاعرها إلا أنها ظلت شخصاً لا غنى عنه لعائلة

الفالبيى، كانت تشجعه على الدراسة وتحذره بكلام غير مفهوم من مغريات العالم الحديث وتذكره بأهمية وضعهم الاجتماعى مشددة على أنه يجب أن يعلى من اسم عائلته. وفى النهاية كان سعيدًا بالتخلص من هذا الضغط العائلى والذهاب إلى المدرسة الداخلية الثانوية بكاتنيا. ومنذ تلك اللحظة انفصل جانى عاطفيا عن العائلة كلها بما فيها والداه: كان يحتقر رثاء أمه االدائم لحالها وثقافتها المحدودة وقد قهرته دائما بالتصاقها الأنانى القلق به، أما والده فقد رسخ بينهما سوء الفهم المتبادل.

وبعد موت الأب لم يتردد جانى فى سحب إدارة أملاكه التى ورثها عن أبيه من منو. وقد حذت الأختان حذوه، وبذا قضوا على أساس سلطتها داخل العائلة. ولم تنجح منو فى استعادتها حتى بعد القرار المهين للأم بالاقامة فى بيت الخادمة. ثم نجحت فى استعادتها جزئيا فلكى تجبر الأبناء على زيارة الأم قررت تخصيص مبلغ شهرى لهم، يدفع فى نهاية الشهر ، شريطة أن يحضروا بأنفسهم إلى روكاكولومبا لاستلامه.

وفى المرات التى لم يمتثلوا فيها لذلك الشرط، تحتم عليهم التنازل عن المبلغ، ونادرا ما حدث ذلك فلم يكن مبلغاً بسيطاً وكان الحصول عليه مريحًا للجميع.

طوى جانى بموت منو صفحة من حياته، الآن يمكنه التركيز على مستقبله الأكاديمى والأسرة التى كان ينشد تكوينها مع زوجته. بقى لغز ثراء منو الواسع وصعوبة الحصول على تلك الأموال فضلا عن مشكلة رعاية والدتهم، إلا أنه كان يأمل فى إيجاد حلول لكل هذا مع الوقت.

وكان لجانى قدرة هائلة، مثل أبيه، على التخلص من كل ما يضايقه: وبمجرد أن عبرت السيارة مفرق طرق روكاكولومبا وبدأت فى الهبوط إلى الوادى فى انحدار بطيء مستمر، عابرة غابات البلوط الكثيفة من إقطاعيات أمراء برولى الذى أدار أجدّاده أملاكهم لأجيال متتابعة، بدأ يستشعر متعة رؤية زوجته، وقد نسى البلدة وسكانها، إلا أنه فى تلك الليلة أصابه حرقان بالمعدة، ولم ينم جيدا.

٣. ماسيمو ليونى يحتفل بموت مونلارا بتهور على طريقته

بدون شك، وعلى العكس من الجميع، كان ماسيمو ليونى أكثر من حظى بيوم سعيد. وقد انشغل فى الظهيرة بالاعداد للجنازة. وأعد النعى كما اتفق مع العائلة، ود كتابته بعبارات أكثر إيجازاً، بيد أنه فكر فى إرضاء الحماة الممثلة الكوميدية الكبيرة، فى رأيه، القادرة على افتعال نوبة هيسترية أو التظاهر بالمرض لتحصل على ما تريد.

جهزت الجنازة بشكل بسيط يتناسب مع الوضع الاجتماعى للراحلة، وقد شعر ماسيمو بالامتنان والرضا من كلمات الثناء والعرفان من جانب أشقاء زوجته، وخاصة أن مزيجًا من الشعور بالتحرج والخجل، كان لم يزل يجثو فوق صدره بعد إساءة منو معاملته أمام الجميع.

وفى المساء تناول العشاء مع زوجته وحدهما، وكانت كارميللا تحكى له عن الزيارات التى استقبلوها فى ذلك اليوم، عندما قطعت حديثها فجأة متسائلة:

«يا ترى ماذا سيحدث يوم ٢٥؟»

- لقد فكرت فى الأمر هذا الصباح. هل تعلمين من أين كانت تحصل على النقود؟»

أجابت كارميلا بتلعثم: « كانت تصل بالبريد،أظن ذلك.»

حثّها ماسيمو بغلظة على الحديث: «وكيف عرفت؟»

كانت تقول دائما إن عليها الذهاب إلى مكتب البريد يوم ٢٥ لأن سان باجنينو سيرسل اليها بالنقود.*[1]

أنهى ماسيمو الحديث:

«اذاً ستصل النقود كالمعتاد»

سألته كارميلا:« ومن سيذهب لأخذها» بينما تكدرت عيناه الزرقاوان، أمام فكرة أن هذا الدور الجديد ربما يقع على عاتقها.

«اسمعى اليوم كان مشحونا، سنفكر فى ذلك الأمر غدا.»

---

* سان باجنينو: قديس العمال

وانتهيا من تناول العشاء.

بعد العشاء ذهب ماسيمو للحاق بأصدقائه فى البار بالميدان. تنفست كارميلا الصعداء، وعندما بقيت وحيدة، بدأت فى إجراء مكالمات تليفونية طويلة مع صديقاتها اللاتى كانت تتحدث اليهن يوميًا كى تعلن خبر موت مونلارا للقليلات اللائى لم يسمعن به. وأوصت الجميع بعدم حضور الجنازة، التى ستقتصر على عدد محدود جدًا من المقربين، وستتم فى موعد خارج المألوف بالنسبة للجنازات؛ لذا فالحضور يعنى التنازل عن راحة قيلولة، وفى النهاية الأمر يتعلق بجنازة خادمة، وحتى فى هذه المناسبة لم تنجح فى إخفاء تذمرها من منو:« فى الحقيقة لا يجب الحديث بسوء عن الأموات إلا أنها كانت صعبة الطباع وكان يلزم صبر الملائكة لتحملها... ماسيمو، قديس عانى منها الأمرين، ومع ذلك ساعدنا كثيراً اليوم».

أخفت كارميلا أن العائلة ستعلق النعى بشوارع المدينة لأنها كانت تشعر بالخجل من ذلك.

انتابت ماسيمو أفكار القلق والخوف المعتادة.، أثناء سيره نحو الميدان. فى حين كان يتطلع وقت الظهيرة لرؤية أصدقائه والحديث معهم، الآن على النقيض من هذا، يشعر بالخوف من المستقبل، فقد ضاع الدخل المستقر، الذى على الرغم من خفضه إلى النصف، إلا أنه كان يجنبه أذى الدائنين بعد إفلاس نشاطه التجارى.

أعاد التفكير فى حديث كارميلا وهى ليست بلهاء على أية حال. كان قد قبل أن تقنعه زوجته وأشقاؤها بأن الوصية ستئول إلى ورثة الفاليبى. الآن ومضت فى ذهنه خاطرة إن لم تترك الخادمة أية وصية فستؤول الثروة إلى أبناء شقيقتها. رأى الآن الأمر بوضوح. لهذا لم ترغب فى حضور أبناء شقيقتها الجنازة، كانت آخر سخريتها من عائلة الفاليبى. «كونت ثروة من أموالكم، الآن سأجعلكم تتحملون تكاليف الجنازة ثم أترك كل ميراثى لورثتى الشرعيين.» ربما فكرت تلك بكل هذا الخبث، وفقط أمام فكرة أن تسير الأمور على هذا النحو، شعر ماسيمو بقواه تخور وببرودة ورجفة فى ساقيه.

كان على وشك العودة إلى المنزل لو لم يخبط أحدهم على كتفه قائلا:

«أنت رجل قوى يا ماسيمو، بعد يوم شاق ببيت الفاليبى، لم تتنازل عن الخروج مع أصدقائك!» وأمام ذلك تشجع ماسيمو وواصل السير مع صديقه نحو البار حيث أسرف فى الشرب وجمع حوله أصدقاءه حيث تحدث معهم كل الوقت تقريبا عن منولارا: منذ سنوات عديدة كان يتمنى موتها، أهانته كثيراً، كانت لصة اشترت بيتا ومن يدرى أية أملاك أخرى بالنقود التى سرقتها من زوجته وأشقائها. كان ماسيمو يردد ذلك على سمع كل من ينضم إلى الجلسة، بل كان يكرر الحديث بقلق، بحثاً عن مؤيد لكلامه. « تلك المرأة ارتكبت الكثير من الأفعال الشائنة التى تستحق معها الموت مقتولة ربما كنت سأقتلها أنا بيدى، وفى النهاية لم يعد هناك داع فسمها تصاعد من حشاها وخنقها».

زالت عن ماسيمو الهواجس التى هاجمته أثناء الطريق إلى البار بعد أن شعر بالارتياح من أثر الشراب، فسرى فى نفسه من جديد الأمل فى الميراث وشجعه مرح الأصدقاء الخبيث، وشعر بمذاق الثراء الذى سيعود أخيراً إلى عائلة الفاليبى ولم يخش إظهار سعادته. وفى لقاء يسوده المرح، اختتم حديثه بأنه كان قد أقسم ألاّ يبلغ الأربعين وتلك البائسة تكدر صفو حياته، وفى العام القادم تتحقق النبوءة وسيحتفل بعيد ميلاده فى تأورمينا، وكل الأصدقاء مدعوون لحضور الحفل، حفل للرجال فقط طبعاً.

وفى الهزيع الأخير من الليل، راود ماسيمو إحساس فى طريق عودته إلى المنزل مترنحا ثملا، أنه تحدث أكثر مما ينبغى. وعادت الهواجس تهاجمه. فى نهاية الأمر منولارا على الرغم من قسوتها إلا أنها كانت عادلة إلى حد ما وعلى الرغم من بغضها له، إلا أنها لم تعامل كارميلا بشكل مختلف عن إخوتها كما كان يخشى. فى الحقيقة من أول يناير فى تلك السنة، بدأت منولارا الدفع لكارميلا عن طريق تسديد الديون مباشرة إلى أصحاب المحلات ثم إعطائها ما تبقى بعد ذلك.

وكانت أخته تريد أن تعرف إن كانت شكوك منولارا صحيحة وهل فعلا ضرب كارميلا؟

أنكر ماسيمو التهمة بغلظة مؤكدا أنه فى كل الأحوال من واجب الزوج تأديب زوجته وفرض احترامها له، وإن لجأ عند الضرورة إلى استخدام يديه، إلا أن ذلك ليس شأنه مع كارميلا، لأنه يعرف جيدًا كيف يتعامل معها، أما منولارا فليست سوى شخصية كريهة وكاذبة تريد أن تدمر سعادته الزوجية.

بعد هذا الحديث، أصبح ماسيمو يتجنب البقاء وحده مع شقيقته الكبرى، والتى كان يحبها منذ صغره، لأنها كانت تساعده دائما وتحميه من عقاب عصا أبيه.

ولكنه كان يعلم بشكوك منولارا، أثناء مشاجرة مع كارميلا، ليلة عيد الميلاد، ربما كان قد أسرف فى الشراب، وجَّه لكمة إلى صدر كارميلا انتهت فوق رقبتها وتركت بقعة زرقاء كبيرة، حاولت كارميلا أن تخفيها بوشاح، وقد أهداها وشاحاً جميلاً من الحرير لتسامحه، إلا أن تلك الشمطاء منولارا ترى كل شىء ففطنت إلى أثر اللكمة.

ومنذ ذلك الحين تعلم ماسيمو أن يضرب زوجته ضربًا غير مبرح، وفى مناطق من جسدها خافية عن الأعين.

عندما كان يعود إلى البيت ثملا، تتملكه رغبة عارمة فى الانتقام من كارميلا، ينهش الغضب جسده ويعذبه الاحساس بالدونية، فكان بدلاً من ضربها، يضاجعها بعنف يخترقها إلى الحشا.

وبعد تفريغ كل الضغينه والحقد الذى يموج بداخله تجاه العالم بأسره، كان يحس بالراحة فيستلقى خائر القوى راضيًا بجانب زوجته المنهكة.

وكانت تلك الطريقة قد غدت فى حقيقة الأمر ممتعة لكليهما. كانت كارميلا تفسرها بتجدد العشق والشغف، وتعتبرها دليلا على الحب برغم الألم الجسدى الشديد، وهكذا فعلا فى تلك الليلة.

٤.في بيت الطبيب منديكو
تبادل أطراف الحديث بين الأخ وشقيقته يوم موت منولارا

كان الطبيب ميندكو يعيش منذ ثلاثة أعوام مع شقيقته كونشيتا أرملة دى بريما فى بيت العائلة. وقد بقيا أرملين وحيدين منذ عادت كونشيتا إلى روكاكولومبا.

أولادهما يعيشون فى مدن أخرى بل خارج صقلية.

كانت شقيقته تردد دائما: «هذا جزاء الأمهات اللاتى يعلمن أبناءهن ويربيهن جيدًا كى ينجحوا فى حياتهم ويرحلوا ونبقى نحن شيخين وحيدين تعيسين». فى الحقيقة كان الأخوان يعيشان فى سعادة.

كانا قد استعادا عادة قديمة فى الطفولة، فكانا يعزفان على البيانو معاً كل ليلة. كانا يزوران الأبناء والأحفاد ثلاث مرات فى العام، ويواظبان على الاشتراك فى الأحداث الاجتماعية للبلدة، على الرغم من تخطى كليهما السبعين. كانت السيدة دى بريما قد استعادت صداقات قديمة والدكتور مينديكو لم يعد يعمل بشكل كامل، فكان يقوم بالزيارات المنزلية فى وقت الظهيرة ويستقبل المرضى

فى أيام غير متعاقبة وفقط لنصف يوم فى العيادة الكائنة بالبيت الذى يعيشان فيه كما فعل من قبل أبوه وجده.

وكان كلاهما يشعر بالرضا أو السعادة من العلاقة الانسانية، ليس فقط بين الطبيب والمريض وإنما بين الطبيب والعائلة كلها، علاقة فى بلدة صغيرة مثل روكاكولومبا سرعان ما تتحول إلى صداقة حميمة. لذا استمر الطبيب ميندكو فى علاج مجموعة من المرضى الأوفياء له مما أثار حسد الجيل الجديد من أطباء روكاكولومبا. وفى حالة انشغال الطبيب كانت شقيقته تقوم بتقديم النصيحة وفى بعض الأحيان العلاج للمرضى فضلا عن الأمهات الشابات اللاتى كن يفضلن استشارتها عند مرض الصغار بالانفلونزا أو نزلات البرد.

كان الطبيب ميندكو يحكى لأخته ماحدث فى منزل منولارا، أثناء جلستهما فى البلكون فى دفء الخريف لتناول فاتح الشهية. «خلال خمسين عاما من ممارسة المهنة لم يحدث أن بقيت وحيدًا مع مريضة تحتضر كما حدث فى تلك المرة. لم يشعر أحد من عائلة الفاليبى حتى السيدة أدريانا بواجب البقاء بجوار تلك المسكينة للتخفيف عنها وهى تتعذب، ولو من باب مراعاة الأصول.

اسمعى هذه، وبعد إعلانى لوفاتها لم يذرف أى منهم دمعة ما عدا السيدة وسانتا أما الأبناء فلم يسألوا كيف ماتت هل تعذبت هل يمكن رؤيتها؟ أتفهمين؟ لم يسألوا عن أى شىء من هذا. كما لو كان كلباً قد قضى نحبه. وكان جانى أول من حدثنى، أو تدرين ماذا سألنى؟ سأل إن كانت منولارا قد تركت معى شىء، خطاب أو وصية؟

تلون وجه الطبيب، واكتست وجنتاه باللون البنفسجى، عندما يفيض الكيل يفيض، سألت كل هؤلاء المحترمين إن كانوا يرغبون فى رؤية منولارا أو لا؟

توقف عن الكلام. شرب جرعة من الكأس ونظر حوله وتسمرت عيناه فوق أصص الفخار المملوءة بزهور جرانيوم تعتنى بها أخته بكل الحب، وكانت زهورًا فى غاية الجمال ذات الألوان الأحمر والبنفسجى، زهور تزدهر يانعة بين الأوراق الممتلئة والمستديرة مثل المراوح اليدوية. ثم استطرد قائلا: «فقط سانتا التى كان يبدو أنها كانت تنتظر قولى، دخلت فورا إلى الحجرة التى ترقد بها منولارا، تبعها بقية أفراد العائلة واجمين. لم يبد عليهم أى تأثر، ظلوا واقفين أمام الجثمان مثل الحمقى كان يبدو عليهم التحرج أو الضيق» قطع الطبيب حديثه وقد خجل من حكمه القاسى وربما المتسرع وبالتأكيد الذى يخلو من أية شفقة نحوهم: يمكن التعبير عن الألم بطرق عديدة ربما كانوا متحفظين أو خجلى من وجوده.

كان طبيباً لعائلة الفاليبى لما يزيد عن أربعين عاماً ولكنه الآن فقد العلاقة الحميمة مع الأبناء: ليللا وجانى يعيشان بعيدًا منذ فترة طويلة وكارميلا بعد زواجها اختارت طبيباً آخر.

أردف بصوت عال:« ربما أنا قاس عليهم ولكنى كنت أحب منولارا». وانتهى من شرب كأس السينار*.

وفى ظهيرة يوم الاثنين، لم يستقبل الطبيب ميندكو أى مرضى. كان يشعر بالإرهاق فقد كان يذهب إلى منولارا فى الصباح والظهيرة. استيقظ، مستعيدا نشاطه بعد راحة القيلولة، وكان يستمع إلى الموسيقى من الاذاعة.

أمسك فى فتور بكتاب كان قد بدأ فى قراءته بشغف من فترة ولكنه لم يستطع التركيز، شعر أنه لم يعد يهمه. أغلق جفنيه، وفى دفء الفراش المبلل بالعرق وثب إلى ذاكرته اللقاء الأول مع منولارا، اللقاء الذى نسيه ودفنه فى ذاكرته منذ نصف قرن.

كان لم يزل طبيباً شاباً، حديث التخرج وقد توفى والده مبكرا، وتحمل مسئولية الاستمرار فى المهنة التى تتوارثها العائلة والانفاق على أمه وأخته. كانت مهنة الطب تعجبه وكان مفعماً بطاقة الشباب. أحبه ورحب به علية القوم بالبلدة ومرضى أبيه الكثيرين. أدرك أن العائلات الثرية، على أية حال، كانت تطلبه لعلاج أمراض طفيفة أو لعلاج الخدم، شعر أنهم يدربونه بعلاج أولئك المساكين. لم يستاء لذلك الأمر، كان بالنسبة له نوعاً من التحدى، محاولة علاج الأمراض الناشئة عن سوء التغذية أو القذارة، والعناية بحساب جرعات العلاج التى يمكن أن يهديها إلى المرضى أو يستطيعون شراءها، وهكذا تعلم سريعًا وجيدًا مهنة الطب وأيضا الجراحة فى حالة الطوارئ.

كانت عائلة ميناكابيللى، وهى إحدى العائلات الثرية والمحترمة فى المقاطعة، قد أولته اهتمامها وعنايتها. وذات يوم طلبت منه السيدة كارميلا ميناكابيللى أن يقوم بالكشف على الخادمة المفضلة لابنتها ليللا. وقد تركت المسكينة الخدمة لتتزوج، ومن وقتها أصيبت بكل أنواع الأمراض.

اصطحبته البوابة مستاءة، إلى عائلة أينسريللو وبعد أن أرشدته إلى الباب اختفت.

---

*السينار: مشروب كحولى من أوراق الخرشوف. (المترجم)

كان لويجى أينسريللو جالساً خارج الباب يسعل، ظن الطبيب أنه المريض، إلا أنهم أخبروه أن المريضة هى زوجته بل إن حالتها أسوأ منه وكانوا محقين. الابنة ادولارتينا اصطحبته داخل المنزل. كانت عائلة أينسريللو تعيش فى اصطبل لعائلة ميناكابيللى، يبعد قليلاً عن منزلهم المتاخم للاصطبل الذى يستخدمونه.

كان مكاناً معتماً، سىء الاضاءه والتهوية، رطباً تنتشر فيه رائحة الاصطبلات الكريهة حيث تربى الماعز والخيول لم يكن قذراً وأيضاً لم يكن نظيفاً.

شخص الطبيب ميندكو المرض سريعاً نوريتسيا مصابة بالالتهاب الرئوي, يجب أن تجرى لها عملية فصد نظراً لعدم وجود علاج آخر للحمى، وبسرعة قبل حلول الظلام رجع إلى المنزل وعاد بالجهاز اللازم وأمام نظرة الزوج القلقة والابنة الفزعه فى الضوء المرتعش للشمعة، وضع الديدان الماصة للدماء فوق كتفيها. وبيد مدربة كان ينزع الديدان الشبعة ويضعها فى الأنابيب الزجاجية ليستبدلها بالأخرى الجائعة. عملية مقززة ولكنها مفيدة، وفعالة.

انتابه بعض الشعور بالضيق، الإحساس بأنه مراقب، نظر بطرف عينه إلى المسكينين الواقفين بجانبه ولم تكن النظرات الخائفة القلقة سبب ذلك الاحساس الغريب المضطرب. أعاد وضع الديدان الماصة فى الأنابيب، أغلق الحقيبة وبعد أن طمأن المريضة. سمع صوتاً طفيفاً صادراً من الحائط فى نهاية المنزل وفى ظل المشعشع، لمح عينين كبيرتين سوداوين تحدقان فيه. رفع لويجى أينسريللو الشمعة ورأى الطبيب وجه طفلة محاطاً بخصلات شعر كثيفة سوداء يبزغ من حوض العلف فى نهاية الاصطبل. نظر كلٌ منهما إلى الآخر وقالت له الطفلة بصوت واضح، رنان وبنبرة واثقة دون خجل:«حسنا فعلت»

ثم بوثبة سريعة غاص الرأس الصغير فى تجويف الحائط واختفت الطفلة. قال لويجى أينسريللو:« ماما الآن أفضل، فلتنامى». ثم التفت إلى الطبيب موضحاً: «إنها ابنتى الأخرى روزاليا، أرجو أن تسامحها لم تكن تقصد إساءة الأدب معك». كان هذا أول لقاء له مع منولارا وأول مرة تثير فيها دهشته.

ومنذ ذلك الحين كان الطبيب ميندكو يزور عائلة أينسريللو كثيراً وابنتهم الكبرى فضلا عن أمراض لويجى ونوريتسا، كان الثلاثة يعانون من مرض السل، وقد ظلت الصغيرة سليمة بأعجوبة وبفضل تدريبه، أصبحت ممرضة مدربة يقظة، تعلمت تحضير الأدوية العشبية التى كان يصفها بديلا عن الأدوية باهظة الثمن، علمها كيفية تحضيرها وطريقة تناولها.

خبط الطبيب الوسادة بيده وعاد إلى النوم مرة أخرى.

فى تلك الظهيرة تلقت السيدة دى بريما العديد من المكالمات؛ فقد علمت صديقاتها بموت منولارا المفاجىء، وكان الفضول الشديد يدفعهن لمعرفة التفاصيل. وحيث إنها لم تستطع الاجابة على كل أسئلتهن، استغلت فرصة تناول العشاء مع أخيها لمعاودة الحديث عن هذا الموضوع.

-«هل كانت الوصية معك، هل أعطيتها لجانى ؟»

- «كان معى خطاب له، أعطيته لجانى كما أرادت.»

-«وهل قرأته؟»

- «كان يجب أن أقرأه»

-«لماذا؟»

- «كان ينقصه شئ.»

- «وماهو ذلك الشيء؟»

- «الأمر لا يعنيك يا فضولية.»

كان الطبيب وشقيقته يتسليان بمشاغبة كل منهما للآخر كما كانا يفعلان فى طفولتهما.

-«هل كانت وصية؟»

-«لا يبدو لى ذلك«.

-ولكن أية ثروة قد تمتلكها مثل هذه الخادمة؟«

-«وماذا يعنيك من هذا الأمر؟، لقد أصبحت أسوأ من النساء النمامات فى البلدة!»

-«إن كانت لديها ثروة فهى بالتأكيد من أموال عائلة الفاليبى، موهوبة أو جائز مسروقه. أجزم أن مرتبها لم يكن ليسمح لها بشراء الشقة التى كانت تعيش فيها!.

قال الطبيب بنبرة الأخ الأكبر «من الصعب الشرح، يجب أن تعرف وتتذكرى أن كل ثروة الفاليبى قد حصلوا عليها لأنها وهبت اليهم، أما كل ما كسبته منولارا فهو من كدها وقد كسبته بالعرق والدم.»

«وكيف عرفت بذلك؟

رد الطبيب أملاً فى إنهاء الحديث:

تذكرى أن منولارا كانت مريضة عنيدة، إلا أنها كانت إنسانة أمينة. غدا سنذهب سويا لحضور جنازتها إن أردت.»

وهكذا نجح فى إنهاء الحديث هذه المرة.

٥.ليلة وفاة منولارا يتحدثون عنها في فناء بوابة قصر تشيفاليا

عمل دون باولينو انونسيتا لفترة بسيطة كسائق عربة خيول ثم سائق بخدمة عائلة الفاليبى لمدة ثلاثة أجيال، وكان بوسعه أن يبقى للجيل الرابع لو لم يتم الاستغناء عنه بعد تدهور الأحوال المالية للأسرة، بعد وفاة السيدة ليللا.

وقد رضى بالخروج من الخدمة بعد الحصول على مكافأة بسيطة واتفاق أن يتركوه يسكن فى سكن السائق فى حجرات البدروم بمنزل الفاليبى بجوار الجراج حيث ربى مع زوجته دونا ميما أولاده ذوى الأخلاق الحسنة الذين شقوا طريقهم فى الحياة بنجاح. فكان على أية حال يعيش شيخوخة سعيدة لا يعكرها سوى ألم الروماتيزم فى ساقيه وقلة المال، فالحديث عن المعاش كان غير وارد، حيث إن أفراد عائلة الفاليبى المقترين على عمالهم، الأسخياء مع أنفسهم، لم يشاءوا كتقليد عائلى أن «يسجلوه بالتأمينات» على الرغم من أن القانون كان يعطيه هذا الحق.

كان فى كل ظهيرة يصعد السلالم التى تقوده إلى الميدان بصعوبة شديدة، ليصل إلى قصر تشيفاليا حيث كانت شقيقة زوجته دونا انزا وزوجها دون فيتو ميليتيللو يعملان بالبوابة. كان يقضى معهما ساعات طويلة فى الثرثرة وملاحظة المارة وكان يساعدهما بالقيام على البوابة عند انشغالهما فى أعمال أخرى.

وفى أغلب الأحيان فى الظهيرة بعد الانتهاء من أعمال المنزل، كانت زوجته تلحق به حاملة معها الطعام الذى قامت بطهوه، هكذا يأكلون جميعا بالبيت الواسع المخصص للبواب، وفى الصيف كانوا يتناولون الطعام بالفناء المخصص للمخازن والذى لم تعد تستخدمه العائلة أصحاب المنزل وأصبح جزءاً من البوابة كالحديقة، وحظيرة الدجاج.

كانت بوابة قصر تشيفاليا تعج فى كل وقت، بالعديد من الأشخاص أقارب وأصدقاء

كلهم تقريباً يعملون فى خدمة العائلات الثرية فى روكاكولومبا، وقد اعتادوا المرور بهم للتحية والراحة قبل استكمال الطريق والثرثرة معهم.

ومنذ سقوط حكم آل بربون، بقيت الطبقة الثرية الحاكمة متماسكة وقد تمتعت بالاستقرار والرخاء.

وبالتبعية كانت عائلات من يعملون فى خدمتهم مثل الخدم، والحوذيين والطهاة والمربيات تتباهى بوضع مالى مستقر، فلم يكونوا ابداً من المعوزين، على الرغم من حياتهم فى فقر.

وارتباطهم بأسيادهم القدامى لأجيال عديدة فى مزيج من الاحترام والبغض والعاطفة المتبادلة، جعلهم يقتدون بهم فى القيم الأخلاقية، والتصرفات، وأسلوب الحياة.

كانت عائلات الخدم تنظر نظرة تعالٍ إلى فقراء البلدة العاديين، الذين كانوا يعانون شظف العيش ولا يجدون ما يؤمن قوت يومهم، فضلا عن أحساسهم، طبقاً لوضع سادتهم، بحماية أو تهديد المجتمع البرجوازى الزراعى: المافيا التى كانت فى ذلك الوقت تنمو بسرعة وتتهيأ للتغلغل فى المقاطعات الشرقية.

كان والد دون فيتو ميليتللو يعمل بواباً لدى البارون تشفاليا، وكان أحد النبلاء الجدد فى المجتمع الطبقى للبلدة.

وقد وضعه فى أكثر البوابات فى الميدان، فى رواق من الخشب المنحوت وقد ألبسه حلة زرقاء غامقة أنيقه كعادة نبلاء المدينة.

وقد أصبحت البوابة ملتقى الزيارات والنميمة لخدم بيوت الأثرياء، وأيضاً مصدر هام للمعلومات التى تصل إلى أصحاب البيت عن طريق زوجة البواب التى كانت تنقل المعلومات بشكل أسرع وأدق من القنوات المعتادة التقليدية من أحاديث الصالونات والنوادي. لذا كان مرور هؤلاء الناس وجلوسهم يحظى برضا صامت من البارون الذى لم يكن يضايقه أن تضاء البوابة بالأضواء العاكسة.

وفى ظهيرة يوم ٢٢ سبتمبر كان دون فيتو جالساً فى الرواق الذى يراقب من خلاله المدخل،الميدان وعمل زوجته داخل البوابة.

وبينما كان يتحدث بود مع صهره، علق دون فيتو عند سماع خبر موت مونلارا قائلا:

«ماتت فريسة طمعها وجشعها، كانت امرأة فظة، غليظة الطباع. تبرأت من طبقتها -على الرغم من أنها ليست من طبقتنا- فهى ولدت ابنة لعامل أجير- تشبعت بصفات الفاليبى وكانت تشعر بأنها واحدة منهم ولم تكن أبدا، وما كان ليتسنى لها ذلك.

لم يكن أبناء المحامى يطيقونها وماتت وحيدة مثل كلبه، بل لم يحضر حتى أبناء شقيقتها.»

كانت دونا انزا فى الداخل، تستمع إلى الزوج أثناء تجهيزها الخضراوات لإعداد العشاء، فدافعت عن منولارا: «ليس الأمر كذلك. ثم انه لا يجوز التحدث بسوء عن الأموات وخاصة أولئك الذين لم يدفنوا بعد. عملت لديهم بكل اخلاص. ثم إن السيدة الفاليبى كانت تحبها، لدرجة أنها ذهبت للعيش معها بعد موت المحامي، فما الذى كان يجبرها على ذلك لم تجعلها منولار تقوم بأى عمل وخدمتها حتى آخر رمق فى حياتها.»

رد دون فيتو دون أن ينظر اليها وهو يهز رأسه وعيناه معلّقتان دائما بالبوابة:«ما دخل ذلك بما أقوله، يجوز انها كانت خادمة أمينة، ولكن لماذا كل هذه الغطرسة، والكبر معنا؟ لم تكن تتوقف أبدا عند الباب، كانت ترد التحية بامتعاض وكأنها إهانة وإذا قام المرء بتأدية خدمة لها وكان القليلون يفعلون ذلك، لم أسمعها أبدا ترد بكلمة شكر وكأن لسانها كان ليسقط من فمها لو شكرت إنساناً».

اتفق دون باولينو أنونسيتا مع شقيقة زوجته فى حديثها. «كانت تعاملنى دائما باحترام، وأعرف أنها تدخلت لإعطائى مكافأة الخدمة إلا إنها لم تنطق بكلمة واحدة لمساعدتى فى الحصول على معاش، فليرحمها الله، كان من الصعب بالنسبة لها ولنا كعاملين فى خدمة بيت الفاليبى التأقلم مع وضع تلقى الأوامر منها فى البيت وفى الأرض، كان وضعاً جديداً ومختلفا».

تدخلت في الحديث دونا ميما التي كان لها رأى مختلف عن أختها قائلة: «وضع مختلف حقا، أفعال مجانين! «أنا أحترم التقاليد، يجب أن نترك الأشياء التي اعتدنا عليها كما هي، هذه البدع تسبب الخراب، فمن الفال السيء أن تذهب أنثى وحدها وتتجول بين الحقول وتأمر وتتحكم فيمن مثلها، يعملون مثلها وكأنها صاحبة الأملاك وتقضي الليل وحدها، أفعال مجانين، لقد ضيعت منولارا سمعتها وفضحت نفسها، حية وميتة،كانت امرأة وقحة، لم تكن منولارا سوى أمرأة وقحة».

سألت دونا أنزا: «ما لم أفهمه أبدا هو كيف انتهى بها الأمر لأدارة أملاك السادة؟«

رد دون فيتو: اخبرها أنت يا بأولينو فقد عملت لدى عائلة الفاليبي، وفي هذه المرة استدار ونظر إلى داخل البوابة مصوباً عينيه نحوه ليحثه على الحديث.

لم ينتظر دون بأولينو تكرار الطلب فبدأ يحكي بشغف وكأس النبيذ في يده وعيناه يقظتان:« بعد موت السيدة ليللا، والتي كانت أرملة تدير أملاكها بقبضة حديدية أفضل كثيراً من زوجها رحمة الله عليه، لم يحسن ولدايها المحامي أورتسيو وأخوه فينشينسو ضابط الجيش الذي كان يعيش بالخارج التصرف وأخذا يبددان الأموال يمينا ويسارا.كانت الظروف صعبة بعد الحرب، وذانك كانا ينفقان ببذخ، يشتريان السيارات الجميلة وكل ما يحلو لهما. كان عليهما الادخار والتريث في الانفاق إلا أن الإسراف وتراكم الديون كانا يلتهمانهما أحياء، فاضطرا لبيع أملاك كثيرة والاستغناء عن بعض خدم المنزل. وبعد أعوام قليلة، أقسم أنني لا أدري كيف آلت إدارة الأملاك والأطيان إلى منولارا. أتذكر كما لو كان قد حدث اليوم، أول مرة طلبت مني اصطحابها إلى أراضي العائلة وحدها. قالت: « دون باولينو جهز العربة لنذهب إلى بوليري«. نزلت إلى الجراج، وفعلت اللازم. عندما وصلت وحدها، سألتها إن كان يجب أن أنتظر السادة طويلا، فردت أنه لن يأتي أحد آخر معنا، وثبتت عيناه نحوي، تلك العينين السوداوين مثل قطعتي الجمر، كان لها عين آمرة ثم دلفت إلى السيارة بالمقعد جوار السائق، وطلبت مني الإسراع في القيادة ومن وقتها أدركنا جميعا، كل خدم المنزل أن الأمور

تغيرت. وبالنسبة لها كان فرض احترامها على الفلاحين أمراً فى غاية الصعوبة. كانت ظروف الزراعة مواتية فى العام الأول، فقد سقطت الأمطار طوال الشتاء، ورغم ذلك كان المحصول قليلا، لأن المزارعين كان يسرقون أكثر من اللازم»، وعند ذلك توقف فى حديثه ونظر لزوجته بنظرة عتاب، ولكن فى العام التالى استدعت منولارا وكيل الزراعة «ترى روسيه» ودخلت معه مكتب الإدارة وأغلقت الباب. وقد سمعتها تتحدث معه بصوت عال لدرجة أننى شعرت بالخوف من كثرة صراخها. كانت أيام ثورة الفلاحين والمطالبة بالاصلاحات، وكان الأجراء يطالبون بحقوقهم وسقط ضحايا جراء ذلك، كان تمثيلها لأصحاب الأرض يشكل خطراً كبيرا على حياتها فكان من الممكن أن تقتل على الرغم من أنها أنثى.»

توقف دون باولينو قليلا عن الكلام ليلتقط أنفاسه ثم استطرد: ولم تتوقف عند ذلك. فى ذلك العام، ظلت طوال وقت الحصاد فى الارض، لم تتخلف عن حصاد أو بذر بينما عائلة الفاليبى كانت تقضى الوقت فى المصيف والزيارات. كانت تلك المرأة تقضى الليل نائمة فوق المحصول، سواء كان قمحاً أو لوزاً، تتدثر بغطاء فوقها وتنام هناك، بكامل ملابسها دون وسادة لرأسها. ومنذ ذلك الحين أصبحت تجنى المحصول كاملا دون سرقة وهكذا بدأت الاطيان تدر دخلاً، وبدأت تتسلم الايراد المستحق لعائلة الفاليبى وتدفع الاجراء والفلاحين كما أتفقت معهم ودون تأخير.»

تدخلت دونا ميما فى الحديث: «من حسن حظها أنها لم تقتل، طريقة تصرفاتها مع الجميع.. مع الوقت أصبح لها أعداء كثيرون ويقال إنها كانت تقرض أيضاً الأموال».

علق دون فيتو على حديثهم دون أن يبعد عينيه عن الطريق قائلا: «كانت امرأة شجاعة بالتأكيد.. امرأة غير متزوجة وتقضى ليلتها خارج المنزل وحيدة فوق أرض رطبة فى الخلاء...« الخالة كارملينا لى بيرا، الخالة العانس لدونا انزا ودونا ميما عجوز خرف تعيش فى منزل ميلتللو. لم يفهم بنتا الأخت وزوجايهما إن كانت تتابع الحديث أم لا، بيد أنها تدخلت فى الحديث متعجبة: «ومن كان ليتزوج بفتاة تقضى الليل بالخارج.»

رد دون فيتو:

«ياخالة كارميلى لم يكن ليتزوج بها أحد على أية حال غريبة الأطوار كما كانت، لم يكن ليقترب منها أى رجل.»

علقت دونا ميما«لم تكن منولارا تصلح للزواج.»

أضافت دونا انيزا بابتسامة عليم: «لم يكن يعجبها الرجال» كانت مقتنعة بأنها تعرف تفاصيل عن حياة مونلارا أكثر من الآخرين بفضل الأحاديث الخبيثة للبارونة تشيشليا وبناتها التى كانت تلتقطها عندما كانت تصعد إلى الطابق الذى يقطنه السادة لتساعد سيدات البيت وتنقل لهن الأخبار التى كانت تصل إلى البوابة.

تركهم دون باولينو يتحدثون بينما كان يرتشف ما تبقى من نبيذ الغداء، ثم علق ضاحكا: «لا أدرى إن كان حقيقياً أم لا أن الذكور لا تعجبها ولكن عندما كانت تعمل بالحقول كانت خبيرة والناس لا تتغير».

أثناء ذلك وصلت ابنة العمة الشابة لدونا ميما، ليا كريسكولو والتى تعمل خادمة ببيت بيكوريلا، ودون لويجى سبشيال والذى كان يعمل سائقاً بمنزل عائلة فاتا والآن يعمل سائقاً لعربات الأجرة. لم يكن من المناسب الحديث هكذا عن راحلة لم تُوار بعد الثرى أمام الغرباء، لذا انتقل حديثهم من الحديث عن الميتة إلى الحديث عن الموت: فى روكا كولومبا، كم من الشباب قتلهم ذلك المرض الجديد. أدرك دون لويجى أن عقد الحديث المسلى قد انفرط. فحاول أن يحث دون باولينو، الذى كان فى ذلك اليوم منطلق اللسان وكأس النبيذ لا يزال فى يده على الإفصاح عن بعض الأسرار: احْكِ لنا يا بولينو، ومع المحامى الفاليبى كيف كانت القصة؟

لم يعجب دون باولينو ذلك السؤال المباشر الفج فقبل كل شيء كان يعمل فى خدمة عائلة الفاليبى فأجاب بحرص: «بالتأكيد كانت فتاة جميلة عندما بدأت العمل لديهم، وكان المحامى أوراتسيو فى شبابه مُولعاً بالنساء. هذا ما أعرفه وما يمكن أن أقوله. ولكن لم أر بعينى أى شيء فى منزل العائلة لذا لا يمكن أن أروى أكثر من هذا.

يقال إنها قبل أن تعمل فى خدمة العائلة، كان هناك شاب يعجبها بالقرية إلا أن الموضوع لم ينتهِ على خير، وبالتالى تركت منولارا العمل فى الارض وأخذتها السيدة ليللا فى خدمتها.

كانت جميلة، قوام ممشوق، ووجه جميل ولكن مع مرور الأعوام فقدت هذا الجمال.

غمغم دون فيتو: «المرارة والحقد بداخلها وما كانت تسببه للناس من أذى قبحها. هذا ما حدث.»

أرادت دونا ميما تغيير الموضوع الذى كان يتصاعد باستمرا مدركة وجود ليللا التى كانت لا تزال آنسة لذا ينبغى ألا تستمع إلى بعض الأحاديث« تدخلت فى الحديث قائلة:

«هل عرفتم أن أبناء أختها لن يحضروا الجنازة، بل سيقيمها أسيادها.

دون باولينو غير مصدق:«من أخبرك بذلك» ؟

تدخلت دونا أنزا فى الحديث بصوت عال قبل أن تفتح الأخت فمها: باولينو، اعرف هذا الأمر، اليوم بالطابق العلوي، كانت السيدة جوفأنا تحكى أمامى للبارونة بأن السيدة ليللا الفاليبى التى تعيش خارج صقلية قد أصيبت هى الأخرى بالدهشة، فقد تركت منولارا خطاباً بخط يدها، تطلب منهم عدم ابلاغ أبناء شقيقتها بوفاتها، وليس فقط عدم حضور الجنازة! هكذا سيتحمل عائلة الفاليبى كل مصاريف الجنازة.

تدنى الحديث إلى النمائم القديمة وما يحكى عن بخل عائلة الفاليبي، وسخروا من فكرة أنهم الآن مضطرون لتحمل نفقات الجنازة، افترضوا سوء العلاقات بين منولارا وأبناء شقيقتها المتوفاة تحدثوا من جديد عن شخصيتها الصعبة.

تطرق الحديث إلى هوية عشيق منولارا والايحاء بأنه المحامى الفاليبى والعلاقة بينه وبين منولارا.

كان دون باولينو يتابع فى صمت أحاديثهم التى كانت تتشعب وتتشابك، ففى أحيان كانوا يتحدثون جميعا فى نفس الوقت محركين أيديهم من شدة الانفعال.

أخيراً تحدث دون باولينو بصوت رصين هذه المرة قائلا: «أنا سأذهب إلى الجنازة، أولاً لأننى كنت أعرفها جيدا وعملت معها لسنوات ثم إنه من الصواب أن يعى عائلة الفاليبى أنهم كما يحترمون خادمتهم ويتكفلون بإقامة جنازتها، فنحن أيضاً نقدر الاحترام، وننتظر مثله عندما يحين الموعد.»

صمت الجميع. اكتست ملامحهم بتعبير جاد وانتبهت أعينهم واتجهت نحو دون باولينو، وهم يستمعون اليه بكل الاحترام الذى يكنونه له. ردت دونا أنزا متأثرة: «معك حق يا باولينو بالتأكيد عائلة الفاليبى تحب منولارا، ولهذا قرروا إقامة الجنازة وأنا أيضا سأذهب غدا.»

نظر دون فيتو إلى زوجته نظرة عدم موافقة ولكن لم يكن تواتيه الشجاعة ليمنعها وقال:

مشغول بالعمل هنا، وحتى لو لم يكن لى عمل، ما كنت لأحضر جنازتها.» عند ذلك توقف الحديث:عند الخلاف بين الزوجين يجب ترك الأمور تمر دون تعليق، وإن كانوا يعلمون جميعا أن صاحبة القرار فى المنزل هى دونا انزا»عند هذه النقطة انفض الجمع، وقد حانت ساعة إغلاق البوابة.

وفى المساء اثناء تبادل التحية بينما كان دون باولينو يطبع قبلة على وجنة أخت زوجته سألته دونا انزا فجأة: «من كان عشيق منولارا عندما كانت فتاة صغيرة؟» نظر دون باولينو مباشرة إلى عينيها وقال: «حتى أنت، لا أستطيع أن أبوح باسمه لك.. ولكن أعرف من هو، غمز بعينيه عاقداً حاجبيه تقريباً إلى منبت شعر رأسه. رافعاً جفونه المجعدة مبرزاً حدقتى عيناه، فهمت دون انزا وصمتت»

-٦- الغداء فى ظهيرة اليوم ببيت فاتا

كانت السيدة فاتا تقوم بالتطريز وقد بدا عليها القلق، كانت تعلم أن منولارا تحتضر وكانت تنتظر بقلق أخباراً من ابنة خالتها أدريانا الفاليبي، ومع ذلك فإن تحفظها الشديد كان يمنعها من الاتصال، فقد كانت تخشى إزعاجها. أخبرتها لوتشيا بأن الغداء جاهز، وقد ذهبت إلى حجرة مكتب الرئيس لتناديه. اعتادت عائلة فاتا تناول طعام الغداء فى صمت، عند عدم وجود ضيوف. بيترو فاتا، رئيس اتحاد الزراعيين للمقاطعة، كان رجلا قليل الحديث. كانت زوجته مارجريتا تحترم حبه للصمت وتعلمت أن تتحدث مع نفسها عندما كانت تشعر بالحاجة إلى الصحبة. ولكن ذلك اليوم تحدث الزوجان أثناء تناول الغداء جلس الزوج عند رأس المائدة والزوجة إلى يساره كعادتهما ثم قال بيترو: «تلقيت اتصالاً تليفونياً من ميمو ميندكو لقد ماتت منولارا هذا الصباح وقد طلبت منه أن يخبرنى بموتها، يا له من طلب غريب!.

أرادت مارجيتا أن تعتب على زوجها عدم إخباره لها بالأمر فوراً، على الأقل كان سيوفر عليها ساعات من القلق، لكنها تصرفت بحكمة ولم تعلق على عدم إحساسه المعهود بها وبمشاعرها، واقتصرت على سؤاله: «هل أخبرك بشيء عن أدرياناوالأولاد؟»

لم نتحدث عنهم. ستقام الجنازة غدا فى الساعة الثالثة ظهرا، وأعتقد أنه أخبرنى بشيء آخر.

علقت الزوجة أعتقد أن أبناء شقيقتها سيحضرون بسرعة لحضور الجنازة.

رد بيترو: أعتقد أنا أيضا ذلك ثم غاص فى أفكاره، رافعاً إلى فمه ملء شوكة من البطاطس المقلية.

كان من عادتهما، تناول القهوة بالتراس عندما يسمح الجو بذلك فى ذلك اليوم، كانت لوتشيا تخدمهم باهتمام واضح، كانت يقظة، منتبهة لالتقاط أية معلومات

عن موت منولارا، فكانت تتظاهر بالعمل، بإعادة تنظيم مقاعد الطاولات الحديدية المنتشرة فى التراس الواسع، كانت تحرك منافض السجائر، تنظف المقاعد من أوراق الغليسين التى بدأت فى التساقط من سقيفة التراس، لم تكن تدرى أى عمل تخترعه لتظل فى حضرة السيدين وتستمع لحديثهما.

كانت السيدة فاتا تتحدث عن عائلة الفاليبى: «أنا قلقة على أدريانا بعد أن ذهبت للعيش ببيت منو وقد تعلقت بها جدًا وستشعر الآن بالوحدة والألم. لا أدرى إن كانت تفكر فى العودة إلى قصر الفاليبى ولكن يجب إجراء بعض الاصلاحات وتركيب التدفئة المركزية، وهناك أيضا مشكلة الخدم.. ستحتاج إلى أشخاص موثوق بهم فهى تعيش وحدها ومنو كانت تعمل بطاقة ثلاث خادمات. فضلا عن مهاراته الأخرى تصور أنها لازالت تدير أموال دوطة أدريانا.

موت منولارا سيشكل خسارة كبيرة لها الآن يجب أن تعتمد على أبنائها أشعر بالقلق عليها.»

استمع الزوج اليها بأنتباه وسألها: «أتعلمين إن كان الأولاد معها؟»

نعم وبمحض المصادفة، تصادف أن كلهم هنا فى روكاكوملبو

رد الزوج: «أريد أن أساعدهم، فهم غير قادرين على إدارة شئون حياتهم، أنا مدين ل أوارتسيو.

استعلمى جيدا عن أحوالهم وأسئلى عن أخبارهم بالبلدة.

إذا سمعت إنهم يحتاجون إلى شيء أو يقومون بتصرفات غير مسئولة أخبرينى وسأحاول توجيههم.«

ردت الزوجة:

«حسنا، كما تشاء». كانت تشعر بالعرفان لاهتمام زوجها بعائلة ابنة عمها على الرغم من الأعباء التى تثقل كاهله.

كانت امرأة خجولاً ومتحفظة فى التردد على صالونات البلدة، ربة بيت بطبيعتها، ومنذ أن أنجبت لها زوجة الابن التى تعيش بالطابق الأول حفيدتين جميلتين وهى تجد دائما العذر فى عدم مغادرة البيت.

شعرت أن هذه اللحظة المناسبة لتطلب من الزوج طلباً تخشى ألا توافق عليه، أضافت مترددة:

«هل تريد أن أذهب إلى الجنازة غدا؟»

كان رئيس الزراعيين ينظر بعيدًا: استدار فوق مقعد وحدجها صامتاً. نفث نفخة من السيجارة، ثم عاد وتنفسها بتأمل بطىء. عاود النظر إلى ما وراء سور البلكونة الحجرى الذى يكشف المدينة كلها ثم عاد ونظر مباشرة فى عينيها وقرر:

«كانت خادمة ممتازة، خدمتهم بإخلاص ولعشرات السنين وكانت تحرص على أن تبقى من الخدم وتتصرف على هذا الأساس».

الأمر أن أدريانا بمنطقها غير المفهوم قررت أن تنتقل لتعيش فى بيت خادمتها لا يغير من هذه العلاقة.

لقد سمحت لك أن تزوريها فى بيتها، لأننى لم أجد سبباً فى قطع العلاقة الحميمة بينك وبين ابنة خالتك ولكنى أعلم أن الأقارب والأصدقاء والآخرين فى روكاكولمبو حرصوا أشد الحرص ألا تطأ أقدامهم بيت مونلارا. وأنا لا أقر تصرفهم»

استمر فى تأمل زوجته وأثناء حديثه معها، ثوبها الأخضر الفاتح، يديها الصغيرتان الرقيقتان، هيئة، وأناقة سيدة راقية. « ولكنك أنت، زوجتى ذات مكانة اجتماعية هامة فى هذه البلدة وحيث إننى فى العادة لا أذهب إلى جنازة خادمة قريب أو صديق أو زميل، فأنت كذلك لن تذهبى إلى الجنازة. يمكنك بالطبع زيارة أدريانا قبل وأيضاً بعد الجنازة.»

كان يشعر في داخله أن مارجريتا توافقه الرأي، يجب احترام المظاهر وخاصة في حالة عائلة الفاليبي، والتي لم تكن أبدًا محبوبة في البلدة وأعطت الفرصة للحديث كثيرًا عن علاقتهم الوطيدة بمنولارا ومع ذلك ظن أنه بالغ في تشدده. وشعر بالرغبة في البقاء وحيدًا، أبعد زوجته عن المكان، مشيرًا إليها بمحادثة أدريانا بالتليفون وعند ذلك اقترب من سور البلكون الحجري.

كان قصر فاتا يقع في أكثر مناطق روكاكولمبا ارتفاعاً، بجوار دير العذراء المتألمة، وبالقرب المسموح به «من القصر المهيب لأمراء بريولي، المهجور، وقد بقيت منه الأسوار الخارجية الفخمة وواجهة المبنى ذات الطراز الباروكي والبلكونات المستديرة المنتفخة، كانت النوافذ مغلقة دائما وكذلك الباب الحديدي الكبير، كان عمق الفيلا يختبيء عن عيون أهل البلدة وليس عن ساكني قصر فاتا، حيث كانت الأرضية اليانعة بالنباتات والشجيرات البرية تبدو من الشرفة، وكانت الرياح قد حطمت نوافذ آلأفنية الداخلية، وأحواض الزهور مهملة بشكل يكشف عن التدهور السريع للقصر الرائع وتحوله إلى أطلال. وكان المنظر الطبيعي من التراس يشكل في كل فصول السنة متعة كبرى لبيتروفاتا، فكان يستند إلى سور البلكونة الذي يمتد خارج الأسوار الخارجية، يشعر أنه معلق في الهواء أو فوق منبع نهر قراميد أسطح متلاطم الأمواج يتفجر تحت قدميه ويمتد فوق النتوء الجنوبي للجبل. كانت الأسطح من القرميد اسطوانية الشكل يختلف كل منها اختلافاً طفيفاً في اللون، والحجم، والميل، أشبه بموزاييك أحادي اللون مبعثر دون نظام في توازن رائع من الألوان والأحجام.

كانت تبزغ هنا وهناك من بين الأسطح، أبراج أجراس الكنائس المرتفعة الرشيقة والتي شيدت مثل أبنية سائر البلدة من الحجر الرمادي الوردي، والذي كان يبدو مرآة تعكس السماء عند المغيب من شدة تشبعه بأطياف اللون الأحمر للشمس المحتضرة.

يرتفع بين الأسطح برج جرس الكنيسة الأم بلون حجر المغرة الغامق، يقطعه خطوط من البلاط الأخضر والأبيض. وبجوار الكنيسة الأم، يتراءى قصر البريد، كما كان يسمى بتحذلق المبنى المستدير ذي الطابقين والذي تم بناؤه أثناء الحقبة

الفاشية. وبمرور الزمن انصهر هذا المبنى أيضاً داخل روكاكولومبا وأصبح جزءاً منها كما لو كان قائما منذ القدم. وقد تدهور السقف المطلى باللون الوردى اللامع مبكرًا وهذا التدهور سمح له بالتناغم تماما مع الأسقف الأخرى المائلة التى تحتضنه.

ثم كان النهر الذى يقطعه الجسر الحجرى ذو الأقواس الثلاثة، والذى كان يربط مدينة روكاكولمبا القديمة بالجديدة، شكل معمارى مشوه دون هوية ظهر فى الثلاثين عامًا الماضية. وقد اتسعت روكاكولمبا كثيرًا بعد الحرب العالمية الثانية أيضا بفضل الطريق السريع الجديد الذى كان يربط المدينة بالمراكز الأخرى للمقاطعة بعد نفق طويل. شيدت العشرات من المبانى بالأسمنت المطلية بألوان زاهية، وفى فوضى الازدهار المعمارى فى السنوات الأخيرة. وروكا كولومبا ظهرت كمدينة كبيرة زراعية حيث استثمر أصحاب الأراضى الزراعية فى الآلات الحديثة، والتكنولوجيا، وحظوا بسمعة بلدة زراعية حديثة وذلك كرد فعل على أزمة نظام عقد الايجار الزراعي. وحيثما يقل الربح من الأراضى الزراعية أو يتلاشى، كان الاستثمار العقارى يعوض النقص. وهذا الاستثمار، وإن ضمن الرخاء والتقدم لمدينة روكاكولومبا إلا أنه شوه الجمال الفريد والعريق للبلدة والذى ترسخ فى القرن السابع عشر على يد أمراء برولى وعما قليل سيدمره نهائياً، فسيختفى نسيجه الاجتماعى خلال أعوام قليلة وسيتغير كل شيء.

كان بيتروفاتا يعتبر التغيرات التى يفرضها التقدم من الأمور الإيجابية، بيد أنه كان يجد صعوبة فى التكيف معها. وكان يعانى كثيراً من عدم قدرته على التكيف مع المستحدثات ويشعر أنها دليل على اقتراب الأجل.

نظر فيما وراء المنطقة المسكونة. كانت الجبال تتسع فى منحنى واسع على شكل نصف دائرة، تضم فى منتصفها بشكل عشوائى بعض الهضاب متوسطة الارتفاع والتى شيدت فوقها مدينة روكاكولمبا العليا، وفى الأسفل كانت تظهر تلال المناطق الزراعية المهمشة التى كانت تزداد رقعتها على مرمى البصر. ومن خشبة المسرح، (هكذا كان يحب أن يتخيل التراس)

كان الرئيس يتأمل منظر التلال التى كانت تتسع للهضاب الطبيعية المنخفضة ذات قمم زرعها الفلاحون، وراء ظهره، نحو الشمال، تموج الجبال متتالية الواحد تلو الآخر، مهيبة تغطيها الغابات ذات البقع الخضراء، تقطعها قمم أخرى مدببة تنحدر إلى البحر. نظر فى الأسفل. كانت الحقول المحروثة تتلألأ تحت أشعة الشمس فوق منحنيات الهضاب التى تقع أمام روكاكولمبو، على الضفة الأخرى من النهر. والنهر المتوغل بالوادى والذى كان يحاذى الهضاب، يتلوى لامعاَ، هادئًا، فيختفى وراء هضبة ليظهر وراء أخرى،. كان منظرًا طبيعياً يحبه ويحفظ كل تفاصيله، وكان يطيب نفسه دائما بالنظر إليه. ود أن يمتهن الرسم إلا أن قدره كان رعاية أملاك العائلة الزراعية. دخل إلى المنزل واتجه إلى حجرة المكتب، لم يكن يشعر برغبة فى العمل. جلس بجوار المدفأة وعاد يفكر فى منولارا. ماتت مبكراً، كانت تستحق التمتع بشيخوخة هادئة بعد سنوات من العمل الشاق لدى أوراتسيو الفاليبى وعائلته، إنسانه يصعب تحديد شخصيتها، مخلصة مطيعة لرغبات سيدها وفى نفس الوقت قوية، متسلطة فى ممارسة قدرتها النادرة فى إدارة أملاك العائلة. كان أوراتسيو يطلق عليها « إلهة الحماية لعائلتي» بدون شك استطاعت إنقاذ العائلة من التردى المالى، أمسكت بزمام الإدارة، رغم أنها تسببت فى خلافات دائمة بين الأخوين.

كان بيترو قد قضى فترة طفولته ومراهقته مع الأخوين الفاليبى فى البلدة ثم فى المدرسة وكان فكرة الخلاف بينهما تحزنه. أمسك بكتاب ووجد بعض الارتياح فى القراءة.

-٧- بروفة ثوب حفيدة السيدة فاتا الصغيرة.

أعطت أنجلينا سالفياتو اللمسات الأخيرة لثوب حفل ريتا، وقد أعدته للبروفة الثانية والأخيرة. فردت الثوب فوق المنضدة ساوت كسرات التنورة، ربطت الكورسيه المطرزة نفخت الكمين على شكل كرتين صغيرتين، رجعت خطوة للخلف تتأمل فى إعجاب وحدها الشكل النهائى للثوب، وشعرت بالرضا عن عملها. دخلت خادمتا البيت لوتشيا وماريانا مبتسمتين مرحتين فى غرفة العمل وقد تبعتهما تتينا، ابنة شقيقة سانتا التى حضرت إلى بيت فاتا لاستعارة المكنسة الكهربائية لتنظيف بيت الفاليبى.

كانت الفتيات تتأملن بإعجاب الثوب أمام عينى أنجلينا الراضيتين ويطلقان بين حين وآخر بعض التعليقات عن وفاة منولارا الذى أعلنته لوتشيا فى المطبخ ساعة الغداء، كانت ماريانا تعلق قائلة:« لم يزل جسد الميتة بالبيت، ويفكرون فى تنظيف بيت الفاليبى ؟» كيف خطر ذلك ببالهم، لو كنت مكانهم لشعرت بالحزن الشديد وما كنت لأفكر فى شىء آخر!»

انظرى إلى التطريز فى مقدمة الفستان، أنجلينا لديك يدان ساحرتان.

وقالت تيتينا:

السيدة ليللا تبدو وكأنها قائد عسكري، تصدر الأوامر هنا وهناك، كل شيء يجب أن ينتهى عمله فوراً، بالنسبة لها، أصبحت أجنبية، تتحدث بلغة لبقة كما فى السينما، من يدرى كم تكلف هذا الستان لعمل الحزام، يبدو مثل ثوب أميرة!» كانت تجس القماش الناعم، وتتحسس شريط الحزام فكان بالنسبة لها ترفاً، بعيد المنال. «خالتى سانتا يجب أن تقوم بكل أعمال البيت والنظافة بمنزل الفاليبى فقط أنا وأمى نساعدها، وأولئك ينتظرن منا خدمة كاملة، حتى فنجان القهوة لا يستطعن عمله، يحسبن أنهن خلقن لإعطاء الأوامر. الزمن تغيَّر وبعد الجنازة يجب أن تحدثهم خالتى بوضوح فى ذلك الشأن»

ردت ماريانا:

«لو كنت مكان خالتك، لما بقيت بخدمتهم، فهى تعرفهم جيداً، وقد كانت تعمل لديهم قبل موت المحامى الفاليبي.«بخلاء متكبرين.»

كانت ماريانا سليطة اللسان لذا خصتها السيدة فاتا بالعمل فى المطبخ وليس للخدمة بحجرة الطعام أو الصالون والتى كانت تقوم بها لوتشيا الهادئة الرصينة.

كانت لوتشيا تستمع إليهما وقد ركزت عينيها على الثوب، كانت تتمنى أن تتعلم حياكة الثياب مثل أنجيلينا، وأضافت الرئيس كان يقول أن منولارا كانت تدير الأموال الخاصة بدوطه السيدة أدريانا كيف أصبحت بهذه المهارة فى إدارة الأملاك؟ انظرى كيف خاطت الحاشية، غرز صغيرة وكأنها تطريز إبرة، بالتأكيد أنت يا انجليا خياطة ماهرة ويمكنك كسب الكثير من الأموال إذا ذهبت للعمل خارج البلدة.»

سألتها ماريانا ببراءة مصطنعة:

«أخبرينى يا أنجليلينا هل كانت منولارا قريبة لأمك؟ واضح أن الشطارة تسرى فى عروقكم.» وكانت تنظر إليها، وقد تضرجت وجنتاها الشاحبتان بحمرة الحرج.

أجابت انجيلينا:

«لاأدرى، لم أكن أعرفها، كانت قريبة لأمى ولكنها لم تكونا على علاقة بها وأنا لست على هذه الدرجة من المهارة فى الحياكة أفعل فقط كل ما أستطيع.»

أنقذتها لوتشيا وغيَّرت الموضوع: تيتينا، أخبرينا هل ظهر زوج السيدة كارميلا بمنزل منولارا؟»

-«وكيف لم يذهب، قالت لى خالتى أنه كان ينتظر موت منولارا ليدخل إلى البيت، ثم اجتمعوا كلهم فى حجرة السيدة أدريانا، وأغلقوا الباب وكانت أصواتهم مسموعة من تلك الحجرة، باختصار كانوا يتشاجرون حول الميراث والمسكن والراحلة المسكينة لا تزال بالمنزل.»

كانت تيتنا منجمًا للأخبار، وواصلت الحكي:« لم يشتروا لها ولا حتى زهرة وأبناء المحامي، وكل منهم أفضل من الآخر لم يرتدوا ملابس الحداد للجنازة«. السيدة ليللا تقول أنه ليس لديها ثياب سوداء، كارميلا لن ترتدى سوادًا احترامًا لزوجها الذى لا يريد لها أن ترتدى ملابس الحداد فقط، البروفيسور جانى ارتدى كرافتة سوداء ولكنه لم يضع شارة الحداد السوداء حول ذراعه، يقول إنها لم تعد تستخدم فهو يعيش فى كاتنيا ويعرف هذه الأمور!»

- «والسيدة الفاليبي؟ -

«المسكينة، تبكى كثيراً، كانتا مثل الأختين، كانت منولارا تعاملها مثل ابنتها، أضافت ماريانا: مع أنها كانت تصغرها فى العمر.»

قالت لوتشيا وهى تدير عينيها فى إشارة لعائلة فاتا بتعبير وجه من يدرى ببواطن الأمور: «لا يعجب السادة المودة بين هاتين السيدتين، فالإنسان منا يمكنه أن يفنى نفسه فى العمل من أجل أسياده وهؤلاء الأثرياء يأخذون وينفقون ثم يتركونك عارياً من كل شيء هذا ما يقوله دائما عمى باولينو.»

تيتنا لم تفهم: «ماذا تعني؟»

لم ننتظر لوتشيا أن تكرر السؤال: «لقد قال الرئيس لزوجته إنها ينبغى ألا تحضر الجنازة لأن منولارا كانت خادمة ثم قال لها أن منولارا هى من أنقذت أموال وثروة الفاليبي.. ماذا يعنى هذا؟ أنا سآخذ إذن فى الظهيرة، وسأذهب إلى الجنازة. كلما زاد اجتهادك فى العمل، قل تقديرهم لك وفور انتهائى من نفقات تجهيز زواجي، سأتزوج ولن أعمل مرة أخرى.«أردفت دون التقاط أنفاسها وسألت انجيلينا: إن أمكننى أن أتعلم الحياكة مثلك، يمكنى أن أخيط أثواباً لبناتي، انظرى العرى كما هى جميلة متساوية وصغيرة، أنجلى هل يمكن أن تعليميني أن أخيط مثلك «ربما شيئًا فشيئًا ؟»

ردت أنجلينا « سنرى، الآن يجب أن أنظم الحجرة» كانت متحفظة هادئة قليلة الكلام بطبعها، تحترم، وتقدر أصحاب المنزل. وكانت تخجل من صلة القرابة بمنولارا ابنة الخالة المنبوذة من أهلها.

عاودت تينا الحديث: «بالتأكيد منولارا كانت تمتلك الكثير من النقود، وكيف حصلت عليها، فذلك أمر، يعلمه الله وحده، ربما الله لا يريد أن يعلم.. كانت تدفع لخالتى من جيبها وتعطى نقودًا لأبناء المحامي، كانت ذكية وشاطرة ولم تستطع التمتع بأموالها.»

كانت للوتشيا أفكار واضحة فى هذا الأمر:« أن أقول أن النقود خُلقت لنصرفها، وعندما يموت الانسان لن يأخذ معه الأموال إلى المقبرة.»

أردفت تيتنا: «يبدو أن عائلة الفاليبى تنتظر أيضا ميراثًا من منولارا، عندما يصل أبناء شقيقة منولارا، لحمها ودمها، أريد أن أرى المشادات التى ستنشب بينهم.. فهم من دمها ويحق لهم الإرث.« تصمت فجأة، وقد دخلت السيدة فاتا مع زوجة الابن والصغيرة ريتا، وانسل ثلاثتهم نحو المطبخ».

بدأت انجلينا المهمة الجادة فى عمل البروفة النهائية وتلقت إشادات ومدح من السيدات الثلاث، ثم بقيت وحيدة أخيرًا، وواصلت ترتيب أشيائها وتنظيف الحجرة لتتركها منظمة لليوم التالي.

كانت تمارس مهنة الخياطة بالمنزل، وتعمل فقط لدى عدد قليل من عائلات روكاكولمبا، كانت كلها عائلات ثرية ومحترمة. وكانت مدرستها بالمدرسة الابتدائية قد علّمتها الحياكة وشجعتها عليها وجعلت تطرز مناديل« جهاز ابنتها بدلاً من تعليمها القراءة والكتابة جيدًا، وشعرت أنجلينا وعائلتها بالامتنان لتلك المعلمة، فمنذ سن العشر سنوات لم تكف عن حياكة الملابس للآخرين»

كانت أنجلينا تكسب جيدا واتخذت دور الابنة غير المتزوجة والتى تعول وترعى والديها العجوزين. كانت راضية عن حياتها المنظمة، والهادئة. كانت تقضى أسابيع وأحيانا شهورًا كاملة بمنزل عائلة أو أخرى.

وفى تلك البيوت، كانوا يسمحون لها بسماع الراديو أثناء الساعات الطويلة التى تقضيها وحدها بالعمل مما جعلها تتعرف إلى الموسيقى وحسّن من لغتها الإيطالية.

كانت تتبادل أطراف الحديث مع الخادمات أثناء ساعة الغداء وتستمع بطعام الأثرياء الشهى.

وفى الغالب كانوا يحتفظون لها بالحلوى والبسكويت الذى كانت تحبه وقد اتخذ جسدها الشكل الممتلئ للمرأة التى تقضى معظم أوقاتها جالسة، كخطوة أولى نحو حياة العنوسة الواضحة التى لا رجعة فيها.

بعد بروفة ثوب الحفيدة، ذهبت السيدة فاتا إلى المطبخ، بحجة تحضير سلة طعام الحداد التى كانت تريد إرسالها إلى ابنة خالتها عن طريق تيتينا. وعلى الرغم من أنها تخيلت أن أبناء أدريانا بالطبع لن ينسوا إصدار أوامر لسانتا لتجهيز العشاء، فإن مارجيتا فاتا كانت تريد اتباع تقاليد الحداد الصحيحة وجهزت حلوى ومشهيات للمسكينة أدريانا للتسرية، وكتعبير صامت عن مشاركتها ألم فقد منولارا. استغرقت وقتاً طويلاً فى إعداد السلة وهى تثرثر مع تيتينا على أمل أن تحصل منها على بعض الأخبار تنفيذًا لأوامر الزوج. كانت تيتنا سعيدة بالتحدث معها وقد روت للسيدة فاتا الحكاية الرسمية بإيجاز دون إسهاب فى تفاصيل كثيرة ودون أى انتقاد لعائلة الفاليبي، تمامًا كما يحدث عند الحديث مع السادة، تركت قصر فاتا حاملة بتباهٍ المكنسة الكهربائية وسلة كبيرة من حلوى وبسكويت الحداد.

وصلت نوروتسا سالفياتو متعبة من ارتقاء السلم الذى كانت تصعده مرتين فى اليوم لاصطحاب انجلينا ذهابا وعودة. كانت لوتشيا تقدم لها دائما بعض الأطعمة الشهية. وفى ذلك اليوم قدمت لها فنجانًا من لبن ماعز مع الكعك الطازج وبينما كانت ترتشف فنجان اللبن المغلى المحلى بالسكر، والذى كانت مولعة به، روت لها لوتشيا ما حدث« لقد ماتت منولارا هذا الصباح وكل عائلة الفاليبى فى بيتها، السيدة الفاليبى منهارة، كانت منولار قديسة فى خدمتها للسيدة.« كادت نوروتسا تختنق غيظا عند سماع كلمات الإطراء والمدح عن قريبتها المكروهة، لم تستطع بلع ملء الملعقة التى ملأتها بالبسكويت المبلل باللبن الحلو والتى أصبحت كرة حلوى لذيذة كانت تزدردها فى غمضة عين.

لوتشيا، وقد ظنت أن معدة نوروتسا قد تقلصت من الحزن، عند سماع خبر موت ابنة خالتها، استمرت فى ذكر محاسن الراحلة.

وفى تلك الأثناء عادت السيدة فاتا إلى المطبخ. بدا لها من المناسب التوقف للحديث أيضا مع نورتسا، قدمت لها العزاء ثم سألتها: «أخبرينى يانورتسا: كيف ذهبت منو للعمل بمنزل الفاليبي؟»

أعتقد أن أمها كانت تعمل بمنزل مينا كابيللي»

-«ابنة خالتى نوروتسا أنسريللو كانت مريضة جدًا والسيدة ليللا الفاليبى رحمة الله عليها، أحبت ابنتها الصغيرة وألحقتها فى خدمة المحامى الفاليبى واستمرت فى خدمتهم.»

أصرت السيدة على السؤال:

«يقولون لى إن أمها كانت خادمة ممتازة فى بيت مينا كابيللي، كنت أنت أيضاً تعملين لديهم فى تلك الفترة، كيف كانت أم منولار أجابت نوروتسا:«كانت ابنة خالتى شاطرة فى العمل ولكنها لم تستمر طويلاً فى خدمتهم حيث تزوجت».

كانت نوروتسا تعلم أنها لا يمكنها الهروب من الاجابة على أسئلة السيدة ولكنها كانت تعرف كيف تجيب بأدب، وبطريقة توضح بها للسيدة أنها لن تعرف منها شيئاً آخر.»

-٨- نوروتسا سالفياتو تحكى لابنتها

أثناء سيرها مع الأم، سألتها انجيلينا عن ابنة خالتها، أجابت نوروتسا بحدة:« لا يمكن التحدث عن هذه الأشياء خارج البيت، عندما نصل سأحكى لك من كانت أم منولارا ولماذا دخلت تلك المرأة بيت الفاليبى.» واصلت المرأتان الهبوط فى صمت نحو روكاكولمبا الدنيا، تتأبط كل منهما ذراع الأخرى، الأم صغيرة الجسد نحيلة والابنة ممتلئة، فجة المظهر.

وفى ذلك المساء، بينما كانتا تجهزان الحساء للعشاء، وفت نوروتسا بوعدها وحكت لأنجيلينا قصة أم منولارا:

«كنا بنتىْ خالة وكان ترتيبنا الثانى فى البنات، وهكذا حملنا اسم جدتنا رحمها الله نوروتسا. ألحقنا بخدمة عائلة مينا كبيللى معاً كى نكسب ما يكفى لتجهيزنا للزواج، ولكن ابنة خالتى نوروتسا كان عليها أن تكسب أيضاً ما يكفى لتجهيز أختها ذات القدم الحلفاء التى لم يكن ليتزوجها أحد بهذا العيب.أسندوا إلينا أعمال المطبخ والنظافة، باختصار أسوأ الأعمال لأننا كنا صغيرتين ولكنها كانت جذابة وكانت حسنة المظهر ونجحت فى نيل إعجاب الآنسة ليللا وأصبحت خادمتها المفضلة وتركتنى وحدى بالمطبخ، أقوم بكل الأعمال الشاقة».

كانت نوروتسا تنقى العدس من الحصى الصغيرة، وعند هذه النقطة فى الحديث، أقامت ظهرها أمام انجيلينا، وقد وضعت يديها إلى جانبيها، وأردفت: «كانت تشعر أنها مهمة، ابنة خالتى هذه، لأن الآنسة كانت تفضلها وكانت تحكى لنا فى المطبخ الكثير من الأشياء الجميلة عنها وتظهر لنا الهدايا التى أعطتها لها لتشعل غيرتنا: فساتين مستعملة، ولكنها جديدة، وشرائط،و أوشحة، وملابس داخلية من القطن الرقيق مثل قماش «الفوال»، وأحذية، وغير ذلك من أشياء كثيرة أفقدتها عقلها.» كانت انجيلينا تتخيل الهدايا الرائعة للآنسة ميناكبيلى وهى التى لم تتلق أية هدية من السيدات اللاتى تخيط لهن الملابس، إلا أنها لم تنطق بكلمة.

عادت نوروتسا لتنقية العدس واستطردت: «كانت الآنسة ليللا طيبة بحق، حاولت أيضا أن تعلمها القراءة والكتابة ولكن إن كانت قد تعلمت فعلا أم لا، لا أحد يدري، كانت تتفاخر أمام الجميع وتتظاهر بقراءة صفحات من الجرائد القديمة التى كانت تصل إلى المطبخ لنلف بها الفاكهة التى تحفظ فى الشتاء فى المخزن، أو لتجفيف زيت القلي، أو لحمأية المائدة، أو عند تفريغ الزيت فى الزجاجات ولكن بالتأكيد لم تكن ليقرأها أمثالنا.»

سألت انجلينا التى كانت تقرأ كل عناوين الجرائد التى تقع فى يديها:

«لماذا، وأى عيب فى قراءة الجرائد؟»

ردت نوروتسا:

«الطاهية التى كانت تعرف القراءة جيدا وكان لديها كتاب مليء بوصفات مونسو، كانت تقول إنهم يكتبون بالجرائد هراءات، لا يجوز أن تعرفها الآنسات، ولكن ابنة خالتى كانت متعطشة لمعرفة تلك الأشياء،« وكانت نوروتسا تعتبر ابنتها، وهى أصغر أبنائها لا زالت طفلة بريئة حتى بعد أن بلغت الأربعين.

«وهكذا بفضل هدايا الآنسة ليللا، استطاعت أن تعد جهاز عرسها قبلنا جميعا وبدلاً من أن تعطيه لأنا، كما كان ينبغى لها، أرادت الزواج بـ لويجى أينسريللو، عامل المناجم، كانت تشاغله بعينيها، فعمال المناجم كانوا يكسبون جيداً. لم يكن دورها فى الزواج قد حان، ولكنها لم ترضخ لهذا الاعتبار، وطلبت تدخل الآنسة ليللا فى الأمر. وكانت الآنسة ليللا قد خطبت للمحامى تيشو الفاليبى وكانت تعد لحفل زواج كبير.

أقنعت الآنسة ليللا أمها السيدة كارميلا باستدعاء والد نوروتسا وبإقناعه بالموافقة على زواج ابنته بعد أن وعدته بإلحاق أنا العرجاء بخدمتها، غضبت خالتى بيد أنه تحتم عليها إطاعة السادة، ولم تسامح خالتى وزوجها نورتسا أبدا على فعلتها. ولم تكن علاقتهما طيبة بأنسريللو.

سألتها أنجيلينا وقد سحرتها قصة حب ابنة خالة أمها:

«وأنت ظللت صديقة لابنة خالتك بعد زواجها؟»

أجابت الأم: «كانت تبحث عنى عند الحاجة ولكنها لم تكن أبداً صديقة، هناك أشياء لا يمكن غفرانها، فالمسكينة أختها «أنا» كانت تكد وتشقى للعمل فى بيت كبير مثل بيت ميناكابيللى وتعمل خادمة بالمطبخ إلى أن تزوجت.» ثم أردفت: «سأحكى لك ماذا فعلت عندما مات زوجها، كى تعى أن الرب يعاقب من يُقصِّر فى أداء واجبه»

أصيبت بمصائب وأمراض كثيرة إلا أن الكبر كان ملازمًا لها بعد موت زوجها، عرض أخوه جوفانى أنسربللو، عليها أن يأخذها لتقيم فى بيته مع ابنتيها، كما يقتضى العرف، بالتأكيد لم يكن يسعده ذلك، وكذلك زوجته لم تكن راضية؛ فقد كان يتحتم عليهما إطعام ثلاثة أفواه فضلا عن أنها وأدولوراتينا كانتا مريضتين. ظلت فى بيت أخى الزوج أيامًا قليلة وبدلاً من أن تعترف بفضله، رفضت العيش معهم بل إنها تحدثت عنه بسوء، عن أخى زوجها الكبير وأهانته أمام الجميع. ضربها جوفانى انسريللو، وكان محقا، وحسنًا فعل. فلم تحترم كبير العائلة ومنذ ذلك الوقت قاطعتها عائلة الزوج، كانت متعالية، ولم تحصل على أية مساعدة منهم كما أنها لم تطلب أبدا أية مساعدة من انسريللو.»

ولماذا لم تشأ الحياة مع أخى الزوج ؟»

كانت انجلينا تنصت إلى أمها، مأخوذة بما تحكيه، وقد بدت حكاية ابنة خالة الأم أشبه بمسلسل تليفزيوني.

«لأن منخارها كان فى السماء. بقيت وحيدة مع ابنتيها وانتهى بها الأمر للعمل كغسالة فى منزل الفاليبي، ولم تفقد أبدا غطرستها، كانت تقول إن ابنتيها ستتزوجان زيجات جيدة وأن أبناءهما سيصبحون مواطنين وأصحاب مهن مهمة مثل السادة. انظرى كيف انتهى بها الحال».

قال نوروتسا برضا: «وعندما ضاق بها الحال، سألتنى المساعدة. أرسلت فى طلبي» كان المرض قد اشتد عليها ولم تعد تقوى على السير، هرعت إليها لعلاقة القرابة التى تربطنى بها، أرادت أن تخبرنى باقتراب أجلها، وطلبت منى أن أخذ ابنتيها فى بيتى قائلة أنهما سترعانى فى شيخوختى ولن تجعلانى احتاج إلى أى شيء من خبز أو غموس. وقد كان لدىَّ بالفعل ابنتان جميلتان وماهرتان. وكيف هذا، كنت أحدث نفسى، وأنا لدى أربعة أبناء منهم اثنان من الذكور، وهذه تقول أننى ينبغى أن أرعى أولاد الآخرين لأعتمد عليهم فى شيخوختى كيف جرؤت على احتقار أبنائي، والتأكيد على أن ابنتيها ستكونان مصدر ثرائي؟

ولكن لأجل الرب والعذراء ولأن أمى وأمها شقيقتان لم أرد عليها كما ينبغى وأجبت أننى سأتحدث مع زوجى على الرغم من أنه ليس هناك أمل كبير فى موافقته. وفى اليوم التالى عدت لأخبرها أننا لن نستطيع ضم ابنتيها إلينا، وحملت معى لها خبزًا وفاكهة وقطعة من الجبن. قالت لى إنها ليست بحاجة لمساعدتنا وأن السيدة الفاليبى وضعت أدلوراتينا فى مدرسة داخلية وألحقت الابنة الصغرى بالخدمة لديها. وبهذا اطمأنت أن البنتين ستحظيان بحياة كريمة.»

-«وماذا حدث بعد ذلك!»

-«حدث ما حدث! تزوجت أدلوراتينا، وتوفيت شابة، والأخرى ظلت فى خدمة عائلة الفاليبى وأصبحت أسوأ من أمها، تحتقر الناس، متسلطة، والآن ماتت أيضاً، الرب يعاقب الأتراك، والمسيحيين لأعمالهم السيئة. أنت تعلمين جيدا ماذا فعلت بوالدك، الآن اذهبى وألقى بالمياه فى حوض شرب الدجاج ثم ضعى الإناء فوق النار.»

-٩- نوروتسا سالفياتو وزوجها يلعنان منولارا

بعد العشاء، ظلت نوروتسا وفانى سالفياتو وحيدين، بينما كانت أنجلينا تقوم بغسل أدوات الطعام من خلف الستارة المعلقة بسلك من الحديد. كان منزلهم متواضعًا للغاية، وقد جمّلته انجيلينا بهذه الستارة من القماش المزركش بالورود والذى كان يفصل المطبخ عن المكان الذى اعتادت العائلة العيش، والنوم فيه.

قالت نوروتسا لزوجها:

-« لم أرغب فى إخبارك قبل العشاء كى لا يعلق الحساء بحلقك، اليوم ماتت منولارا.»

بصق فانى سالفيانو على الأرض وقال: «يبدو لى الهواء الذى أتنفسه أنظف، وأنقى فلم تعد تلوثه بنفسها.»

ثم أضاف فاني: « لقد فقدت الصحة والرغبة فى العمل، وقد كانت شريرة معى هذه العاهرة، والأدهى أنها كانت ابنة خالتك.» لم تكن نوروتسا تتقبل النقد بسهولة وخاصة من زوجها فردت:« وأى ذنب جنيت، ألم أكن أول من قال للأولاد إنها بالنسبة لنا ميتة، وألا يلقى أحد من عائلة سالفياتو عليها السلام، إن قابلوها بالطريق، بل يجب أن يديروا وجوههم فى الناحية الأخرى كى لا يروها؟»

ثم إننا لم نكن نتقابل كثيراً، فى روكا كولمبا الدنيا، كانت لا تأتي، فقد كانت تظن أنها من السادة، بيد أنها عاشت خادمة وماتت خادمة. أما أنا فأسير فى الطريق مرفوعة الرأس أمام الجميع، فعائلتى محترمة وأمينة، ولو كانت أمها لا تزال حية لحزنت لهذه الابنة الوقحة، الخائنة لأهلها.»

قال فاتى: «كانت وقحة حقاً، أفعالها المشينة فى بيت الفاليبى لا تعنينى ولا أريد أن أعرف عنها شيئا.»

أضافت نوروتسا: «كانت لوتشيا أندليكاتو تتحدث عنها اليوم ببيت الفاليبى وتدعوها بالقديسة، لم أشأ الرد، فكنت أشعر بأمعائى تتقلص ولم أكن لأستطيع التحكم فى كلامي.» وبمجرد وصولنا إلى البيت، حكيت لانجيلينا عن تصرفات أم منولارا الخبيثة لتتعلم ابنتنا القديسة الحقيقية كيف تعرف الناس.»

عند ذكر انجيلينا رق قلب فاتى وأراد استدعاء الابنة.

جاءت إليهما انجيلينا، مطيعة كالعادة لأبيها، فأشار اليها بالجلوس بجانبه.

«أنجيلينا، تذكرى جيدا ما فعلته بنا قريبة أمك، لأنه بعد رحيلى، ينبغى أن تحكى لكل من ولد وسيولد من عائلة سالفياتو وهم بدورهم يجب أن يرووه كلمة كلمة لكل من يتحدث بخير عن تلك الوقحة فى البلدة.»

كان عملي كبائع جائل للفاكهة والخضراوات يعجبني، كنت أرتقى كل درجات السلالم كى أصل إلى روكاكولمبا العليا، وفى بعض الأحيان كنت أدفع بنفسى الحمار، المحمل بأقفاص الفاكهة وكانت الناس تشترى منى وتحترمني.

وذات يوم توقفت أسفل قصر الفاليبي، أنادى على بضاعتي.

«ذات يوم كنت أبيع مشمشًا حلوًا ناضجًا، وأطلت تلك المرأة من الشرفة، اتفقنا على السعر، أنزلت السلة من الشرفة، بالثمن بالتمام، أخذت النقود وملأت السلة بالمشمش. سحبت السلة، وتبادلنا التحية. بقيت أسفل القصر، أبيع المشمش. كان مشمشاً طيباً، شهياً، وكانت الناس تشترى منه الكثير. عادت تلك العاهرة إلى البلكون، وبدأت فى الصياح واتهامى بإعطائها مشمشاً شديد النضج، وأن المحامى الفاليبى لا يريده ونادتنى بالغشاش، المحتال كانت تصرخ مثل المجنونة، وألقت بحبات المشمش فى السلة وأنزلتها لأخذه. وأرادت استرداد النقود التى دفعتها، ولم تهدأ إلا بعد أن أخرجت النقود وعددتها، فلم تكن تثق بى.

كانت الناس تطل من الشرفات، ويتوقف العابرون ليستمعوا إلى حديثها معى بسبب ارتفاع صوتها، والألفاظ النابية التى كانت تخرج من فمها مثل ثعابين تتقافز من بين أسنانها البارزة، أصبحت قبيحة مثل ثمرة برقوق مدودة، لم يسبق أن عاملنى أحد أبداً بهذه الطريقة، وأما أن تعاملنى امرأة وأيضاً ابنة خالة زوجتى، فكانت الإهانة مضاعفة.

استطرد فانى بصوت منخفض ونظرة حزينة:« لست أدرى كيف استطعت البيع فى ذلك اليوم ولا فى الأيام التى تلته، كان المشمش طيبا لم يكن فيه حبات تالفة، وإذا كان فيه بعض الحبات، ما ذنبى أنا؟ لقد اشتريته ودفعت ثمنه على أنه مشمش طيب، وكان ينبغى لى أن أبيعه كله، وكان من الأفضل بيعه للأغنياء الذين يمكنهم رمى نصفه دون أن ينتابهم الجوع. كان سنى قد تعدى الخمسين وكنت مريضاً وبحاجة إلى العمل لأعول عائلتي، وإلا لما كنت ذهبت أبدا لروكا كولمبا العليا. عندما كنت أمر أسفل بيت الفاليبي، كنت أشعر بساقيى ترتجفان، حتى الحمار لم يكن يريد صعود السلم الذى يؤدى إلى منزلهم.»

نظر إلى إنجلينا ومسح بحنان على ذقنها، ثم قال بصوت عال: «ابنتى الرقيقة، الحلوة، كونى ذكية وحكيمة وتذكرى ألا ينسى أحد من أبنائى أو أحفادى أن تلك السيئة قريبة أمك، كانت خادمة وعاهرة فى بيت المحامى الفاليبي.»

حدقت أنجلينا وأمها أعينهما فى وجوم ولم تدريا بماذا تجيبان.

فانى، وقد أدهشته شجاعته وشعر بالرضا عن الأثر الذى أحدثته كلماته على وجه ابنته وزوجته، استند الى ذراعيه وحاول أن يقوم بمفرده رافضا العصا الذى قدمتها له نوروتسا. نجح فى الوقوف على قدميه، واتجه ناحية باب المنزل، سائرا بثبات فوق ساقيه المعوجتين كما لو كان قد استعاد أخيراً مرونة الحركة مع استعادة كرامته التى سلبتها منه منولارا منذ عشرين عاماً.

ظل واقفاً عند عتبة الباب، رفع نظره ببطء، كانت روكاكوملبا العليا تظهر مهيبة. وأضواء المنازل القابعة فوق الجبل تعطى الإيحاء بمغارة عيد ميلاد مضيئة، تجثو تحت أقدامها بيوت روكاكولومبا الدنيا الفقيرة المسحوقة.

التفت فانى إلى زوجته التى تبعته وقال:

«نوروتسا» هناك بأعلى بيت العاهرة ابنة خالتك اعلمى أنى سالفياتو فاني، ألعنها أيضاً ميتة».

الثلاثاء ٢٤ سبتمبر ١٩٦٣

١٠ المحاسب بوماريتو لم يتناول قهوة الصباح

فى ذلك الصباح من يوم ٢٤ سبتمبر ١٩٦٣ كان المحاسب بوماريتو يصعد إلى الميدان، متشوقاً إلى تذوق القهوة الساخنة التى تنتظره فى المنزل.

كانت الساعة حوالى الثامنة صباحاً، وكان قد أنهى أحد واجبات اليوم: الزيارة التقليدية للحلاق بعد فترة الاجازة، كان هواء الصباح يدغدغ وجنتيه الحليقتين النضرتين، وكان المحاسب محقا بالشعور بالرضا عن نفسه.

وقد وجده الحلاق فى صحة جيدة وأثنى عليه. وقد سلاه بالحديث كثيراً ذلك الصباح، فروى له دون بياجيو الأخبار الجديدة للبلدة، تلك التى يمكن معرفتها فقط من الحلاق: عن الأجنبية الجميلة التى تعمل فى بيت الدعارة بجوار المقابر والنهمة دائما (مفهوم طبعا لأى شىء) ويلزم سفينة بحرية لإرضائها، عن مغامرات توتو ريزى الذى قد يفقد حياته ذات ليلة، إذا واصل زيارته لغرفة نوم زوجة الصيدلانى فى الليل سائرًا فوق الأسطح بينما الزوج يكدح فى الصيدلية فى نوبة الليل لكسب العيش.

أبطأ السير عند التقاطع مع شارع بارا ، فكر، سعيدًا بمزاجه الرائق أن اسم الشارع مناسب، حيث تعلق إعلانات الوفاة فوق الأسوار الناعمة لقصر ارتوا. لاحظ إعلانين جديدين. حدَّث نفسه «لنرى من مات» المدرسة ماتيلدا كاكوباردو عن واحد وثمانين عاما كما يذكر الإعلان الأول قرأ العبارات المعتادة فى تلك المناسبة وسجل موعد الجنازة ليخبر بها زوجته كى تذهب لأداء واجب العزاء.

الإعلان الثانى كان يخص ماريا روزاليا أينسريللو توفيت عن خمسة وخمسين عاماً، علق «مجهولة لا يعرفها أحد» المسكينة كانت فى نفس عمرى، وواصل طريقه.

دق جرس الباب، لم يفتحوا له فورا كما كان يتوقع دق الجرس مرة أخرى، دون رد. أخرج المفتاح من جيبه وقد أزعجه قليلا تأخر الزوجة والخادمة فى فتح الباب.

عدم احترام من جانب نساء البيت له. لم يرهما عند باب البيت، دخل إلى المطبخ،متلهفاً لشرب القهوة الساخنة وكان لم يزل رائق المزاج. وجدهما هناك، تطلان من النافذة.

كانت الخادمة أنطونيا مستلقية فوق مقدمة النافذة وكأنها على وشك السقوط، وقدمايها تلمسان بالكاد الأرضية وثوبها المرفوع عند مؤخرتها يظهر ساقيها الممتلئتين. حدث نفسه، سعيدا بمحافظته على الشعور بالحبور الذى لازمه منذ الصباح:

بالتأكيد مؤخرة الأجنبية ببيت الدعارة، كانت ستقدم منظراً آخر.

قال بصوت عال: «لقد عدت».

لم تتحرك الخادمة، فقد كانت منهمكة فى سماع أحاديث النسوة بالدور الأسفل استدارت الزوجة وقالت:«اه منيكو، هل عدت، أسمعت بموت منولارا؟»

وفى هذه المرة، غضب المحاسب بالفعل، فلم تفكر الزوجة فى تقديم القهوة وأجاب: «حبيبتى ميموتسا ومن كان ينبغى أن يخبرنى بذلك الحلاق مثلا؟»

أجابت الزوجة بحماس:

«ألم تقرأ الإعلان فى ركن شارع بارا؟ لقد ألصقته عائلة الفاليبى فوق جميع الأسوار.» وأخيرًا قدمت له القهوة.

فهم المحاسب بوماريتو أخيرًا سبب انفعال نساء منزله، عندما تذوق القهوة الساخنة، وذهب عند الضيق، بل تمتع بالمظهر الجميل لزوجته والتى عادت هى الأخرى لتوّها من الكوافير وتزينت استعداداً للذهاب إلى المدرسة.

«هذه هى المرة الأولى التى يقوم بها سادة (أرباب العمل) كما يقال الآن، بتعليق إعلان وفاة للخادمة. لمنولارا ابنى شقيقه. وقد شاركت كل عائلة الفاليبى بنفسها فى إعلان الوفاة»

يجب أن ترى ماذا كتبوا، اذهب، واقرأ النعى من أجل خاطرى، عندما عدت كانت السيدة كورتانو تكرره على مسامعى تقول إنهم بدأوا النعى بمقدمة من الثناء والإطراء عليها، ونعلم جميعا كيف كانت غليظة الطباع، أنا كنت زميلة دراسة لكارميلا وأعلم جيداً هذا.» كانت ميمى بوماريتو تحكى وتخبط بيدها اليمنى فوق صدرها مكررة: أعلم أنا، وكيف لا أعلم أنا، لتأكيد قولها. وقد فتح الروب كاشفًا عن ثدى ممتلئ عاد تفكير الزوج فى الأجنبية، وهذه المرة راهن أن تلك العاهرة ليس لديها ما لزوجته الشابة المثيرة من صدر بض. وهكذا لم يستطع المحاسب بوماريتو مقاومة الالحاح العذب لحبيبته ميمي، ورجع بسرعة إلى شارع بارا حيث تجمع الناس لقراءة إعلان وفاة انسريللو، كى يكرر لزوجته ما كتب بالحرف:

بالأمس توفيت فجأة

ماريا روزاليا انسريللو

عن عمر خمسة وخمسين عاماً

من منزل عائلة الفاليبي

يعلن الخبر الحزين السيدة أدرياناما نجرتشينا أرملة المحامى أوراتسيو الفاليبي، الابن جانى مع زوجته أنا كيوفارو، الابنة ليللا وزوجها الدكتور جان ماريا بولا والابنة كارميلا وزوجها.

التحقت بخدمة العائلة فى سن الثالثة عشر، وعاشت فى منزلهم منذ ذلك الحين وخدمت بكل الحب والإخلاص العائلة التى تبكيها. ستشيع الجنازة اليوم فى الساعة الثالثة بكنيسة العذراء المتألمة وستدفن الراحلة بمقبرة العائلة فى روكاكولمبا.

كانت جارتهم فى الشقة المقابلة والجارات الأخريات بالبيت فى انتظاره لم يتركن له الوقت ليعيد إعلان الوفاة كاملاً، كن يقاطعنه بتعليقاتهن فى وقت واحد. يشعرن بالألم والحزن حقيقة، كارميلا كانت تكرهها وليللا لم تعد تقضى الاجازات في روكاكولمبا بسببها! فهذا البيت لم يجرب مشاعر الحب ولو لهرَّة.»

«الخادمات يدفن فى مقابر العائلة، أصبحنا جميعا إخوة»

«لو كان المحامى الفاليبى حيا، لم يكن ليسمح بهذا الأمر».

وأبناء شقيقتها التى كانت تتباهى بهم كثيراً، لماذا لا يشاركون فى جنازة خالتهم؟

استطاع المحاسب بصعوبة التخلص من أولئك النسوة وذهب إلى عمله تاركهن للثرثرة والنميمة. وفى الطريق لاحظ أن العديد من أبناء بلدته يتوقفون لقراءة إعلانات الوفاة ويتهامسون أمامها.

كان خبر وفاة منولارا قد تم لصقه فى جميع الأماكن التى تسمح فيها البلدية بلصق الإعلانات. بالتأكيد منولارا جلبت الأموال الكثيرة لعائلة الفاليبى شديدى البخل كى تستحق كل هذه النفقات.

قرر أنه على الرغم من أن إعلان موت خادمة بدعة من العصر الحديث أو العهد الديمقراطى، إلا أنه ما كان لينفق ليرة واحدة لإعلان وفاة خادمة، بل إنه سيتذكر أن يتحدث الليلة مع زوجته عن هذا الأمر قبل أن تبدأ فى إعطاء وعود لخادمتهم انطونيا.

ثم عاد إلى القصص اللذيذة عن الأجنبية، تلك التى تستحق أن ينفق من أجلها الأموال بدلاً من المرحومة منولارا التى لم تكن جميلة أبدا ولم تعرف المتعة الحسية. وبمجرد وصوله إلى المكتب، تذكر أنه لم يخبر زوجته بوفاة السيدة كاكوباردو، هذه حقا امرأة مهمة، فهى حماة مدير المدرسة التى تعمل بها ميمى بعقد مؤقت وتبحث عن فرصة للتثبيت. ولعن منولارا.

-١١- ماريكيا بيتاريزى تلعن منولارا بعد أن علمت بوفاتها أثناء زيارتها لمحل الخردوات الحديثة

فى الصباح الباكر، ذهبت ماريكيا بيتريزى إلى الميدان لشراء خيوط للتطريز من محل الخردوات الحديثة. وجدت المحل ممتلئاً بالزبائن، وكانت الآنستان أروتا صاحبتا المحل لا تقدمان الخدمة على طاولة الزبائن بل يثرثران بالايطالية الفصحى مع بعض السيدات، وقد تركتا للبائعة مهمة خدمة الزبونات. ماريكيا وقفت فى مكان منفرد، واعية بقدرها الاجتماعى، بينما كانت السيدات الأخريات تتدافعن إلى طاولة المحل مماطلات فى الشراء بحجة انتقاء البضائع وهن فى حقيقة الأمر يسترقن السمع لحديث صاحبات المحل المسلي. أيضا كانت ماركيا تحاول أن تفهم موضوع تلك المناقشة وبصعوبة أدركت فى النهاية أنه موت منولارا.أرهفت السمع إلا أن البائعة سألتها فى هذه اللحظة عما تريد. وفى طريق العودة، قررت المرور ببوابة دون فيتو ميلتللو لتعرف تفاصيل ذلك الموت المفاجىء.

لم يتح لها الوقت لطرح الأسئلة لأنها بمجرد دخولها من البوابة بادرتها دونا انزا واحضرت لها مقعداً وهى تغمز بعينيها الضاحكتين قائلة:

ماريكيا كنت تنقصين الجمع، احكى لنا كيف كانت منولارا وقد عملتما سويا بمنزل الفاليبى، بالتأكيد تعرفين الكثير!

لم يكن يعجب ماركيا تذكر تلك الفترة القصيرة الحزينة، وافقت أن تحكى فى مقابل الحصول على المعلومات ولكنها أرادت أن تؤجل ذلك لبعض الوقت.

قالت وهى تمسح بيدها فوق جبهتها وتستند إلى ظهر المقعد الخشبى مدعية الارهاق والشعور بالتعب الشديد: أولا اعطونى كوباً من المياة، أنا منهكة». أثناء ذلك كانت تستمع لحديثهم.

دون باولينو انونسياتا وقد أسند قدميه إلى العصا الواصلة بين أرجل المقعد الذى قبع فيه، وقد باعد ما بين ركبتيه ووضع يده فوق مقبض العصا الذى كان يتأرجح بين ساقيه، أخذ يحكى بحماس:

«كنت موجودًا فى اليوم الأول الذى بدأت فيه منولارا العمل ببيت السيدة ليللا. كان واضحاً أنها معتادة على حياة الريف، كانت برية بحق. جاءت إلى المطبخ فى ساعة الغداء ولم ترد الجلوس إلى المائدة مع بقية الخدم بل تسمرت أمام النافذة تشاهد فناء المنزل مثل عصفور صغير فى القفص.»

علق دون فيتو:« نعم عصفور،أصبحت شاعرًا، تلك كانت ذئبة، استمع لما أقوله.»

وضح دون باولينو: بل كانت تبدو عصفورًا صغيرًا، خائفًا، حيوانًا صغيراً بريًا حبيسًا، لازلت أراها ماثلة أمام عيني، لم تشأ الجلوس معنا لتناول طعام الغداء، مع أنها كانت تتضور جوعًا فقد كانت نحيلة مثل العصا. بينا فاسيللو أعدت لها طبقاً من المكرونة وحملته إليها عند النافذة، كات تلتهم الطعام بيدها وبالشوكة من شدة الجوع، وقد بقعت ثيابها بالصلصة لم تكن تعرف قواعد الطعام مثل بقية الناس.

ثم أعطتها بينا قطعة اسكالوب، وأمسكت تلك بها بيديها وقطعتها بأسنانها تقريباً دون مضغ، لم توجه إلينا كلمة شكر، ولا ابتسامة وظللنا واجمين ننظر إليها. ومنذ ذلك الحين استمرت فى الأكل بمفردها بعيدًا عنا جميعا وإن اضطرت للجلوس إلى المائدة بالمطبخ، كانت تزدرد الطعام دون حديث وتنهض من فورها للعمل. كانت غليظة الطباع وبقيت كذلك، كانت إن وجه اليها أحد سؤالًا ينتفض جسدها كله وتجيب وكأنها تعوى وتطلق نظرات مثل كلب مستعد للدفاع عن نفسه، كانت عيناها سوداوين مثل قطعتى الجمر تلفح من يخاطبها بكلمة.»

أضاف دون فيتو: استمرت على هذا المنوال.« كانت إنسانة سيئة الطباع، أذكر ذات يوم توجهت لشراء بعض الأشياء للبارونة وقابلتها عند السلم كانت عائدة

إلى منزل الفاليبي محملة بأشياء ابتاعتها من السوق، كانت تذهب إلى السوق في الصباح الباكر لاختيار أفضل البضائع. رأيتها تتعثر فى سيرها وسقطت أكياس من يدها ووقعت فوق الأرض فاكهة جميلة وخضراوات، وأوانى من الخزف، تحطمت فوق السلالم.

جريت لمساعدتها، جعلت تصرخ، كما لو كنت أريد مضايقتها: «اذهب بعيدًا لا أحتاج مساعدة من أحد» جمعت ما وقع منها فى لمح البصر.. الفاكهة الخزف المكسور، الورق، ووضعت كل هذه الأشياء فى الأكياس وواصلت صعودها دون أن تحيينى بصباح الخير. ويعلم الله وحده ماذا ظن بي المارة القليلون فى ذلك الوقت عندما فطنوا إلينا وتوقفوا لمشاهدتنا.

لم أشعر أبدًا بمثل هذه الإهانة، منذ ذلك الحين اعتدت إلقاء التحية عليها، لأن التحية لا ينبغى حجبها، بيد أننى لم أخاطبها بكلمة واحدة بعد ذلك.»

سألت ماريكيا: «متى الجنازة؟» وكانت تود الانصراف بعد أن حصلت على هذه المعلومات.

قالت لها دونا انزا:« ألم تنظرى النعى فى الطريق؟ لقد علقته عائلة الفاليبى فى كل مكان تماما مثلما فعلوا مع المحامى الراحل.» ثم أردفت ماريكيا:«لا تنصرفي، أخبرينا كيف كانت منولارا مع المحامى، الفاليبى أنت بالتأكيد تعرفين.»

اضطرت ماركيا للحديث: كيف كان هو لا أعلم، لكنى أعرف كيف كانت هي. التحقت بخدمة عائلة الفاليبى بعدها بخمس سنوات، كانت قد أصبحت الخادمة الخاصة للسيدة ليللا. ولكن عند عودة أوراتسيو ابن السيدة من كاتينيا لقضاء الاجازة، كانت تلك تبذل كل ما فى وسعها لخدمته، كانت تغازله، العاهرة، ولكنه لم يكن حتى ينظر اليها».

توقفت ماريكيا عن الحديث، لترى وقع كلماتها وتلتقط أنفاسها.

دون باولينو استدار ناحية الباب الذى يؤدى إلى رواق البوابة وارتسم تعبير على وجهه فضم شفتيه إلى أسفل، وقوّس حاجبيه. أردفت ماريكيا:« واحدة مثلها كانت يجب أن تمشى مطأطأة الرأس بعد ما فعلته عندما كانت تجمع اللوز فى الحقول ولكن الناس لاتخجل. كانت السيدة ليللا تحبها وتصدق ما كانت ترويه من حكايات سيئة «لحسن حظى تركت العمل لديهم، وتزوجت.» كانت مارى كيا قد تحدثت كثيراً ونهضت للعودة إلى البيت قبل أن تضطر للإجابة على أسئلة أخرى.

وفى الطريق كان يتراءى أمام عينيها تلك الفترة الحزينة التى قضتها فى بيت الفاليبي. كانت فى ذلك الوقت مخطوبة لابن عم تحبه وكانت تتعجل الزواج، لذا قررت الذهاب للخدمة لإعداد جهازها بسرعة. كان أوراتسيو لا يزال طالبا، وقد لاحظها وانجذب اليها.

كانت ماريكيا تعلم أنها فتاة جميلة كان شعرها متموجاً لامعاً وقدها جميل متسق ولكنها كانت فتاة مخلصة وأرادت أن تحتفظ بعذريتها لخطيبها. وكان أوراتسيو لا يهدأ، كان يناديها لإحضار كوب من المياه أو لتقوم بالخدمة فى غرفته وكان يتحتم عليها إطاعة أوامره، ولأنها كانت تعلم أنه كان يجردها من ثيابها بعينيه كانت ترتجف عندما تبقى وحيدة معه، إلا أنها أفهمته بأدب أنه لا يمكن أن يفعل معها شيئاً.

أدركت منولارا اهتمام أوراتسيو بها. فكانت تكلفها بأكثر المهام الشاقة فى المطبخ والمخازن كى تبعدها عن عينى وذهن العازب، وليس لحمايتها بل لأنها كانت تشعر بالغيرة، فعلى الرغم من تقاربهما فى العمر، لم تظهر أبدًا صداقة أو مجاملة نحوها.

ذات يوم استدعتها السيدة الفاليبى وأخبرتها بنقص بعض المناديل المطرزة والتى كانت ماريكيا قد وضعتها فى أدراج السيدة. أجابت ماريكيا وقد شعرت بالإهانة لهذا الاتهام:

«أنا لم أسرق شيئا، إذا لم تجديها فقد أخذها غيري» ومنذ ذلك الوقت كانت تشعر بمراقبة السيدة منولارا لها. وبعد أيام قليلة سألتها السيدة الفاليبى عن

بعض الاغطية من الصوف كانت قد غسلتها مؤخرا. فهمت ماريكيا ما يدبر لها، ورجت أمها أن تترك العمل فى ذلك المنزل وهذا ماحدث. وعندما كانت على وشك الانصراف، اقتربت منولارا منها وأعطتها مظروفًا قائلة:« طلبت منى السيدة ليللا أن اُطلب منك إلاّ تتحدثى مع أحد ولا أن تشكريها، إنها هدية زواجك.» كان هناك مبلغ يعادل أجر شهرين من المرتب؛ مبلغ كبير من المال نفعها ولم تجرؤ على رفضه.

قالت ماريكيا بصوت عال: «ماأقبح الفقر».

كانت متأكدة أن منولارا قد أعطتها هذا المبلغ كى تسامحها على سوء تصرفها معها. أما منولارا فلم تحظ أبدا باهتمام المحامى أوراتسيو بل تحتم عليها خدمة عائلته كلها واستضافة أرملته ببيتها، مما يؤكد أن الله يعاقب الأشرار.

فكرت ماريكيا ضاحكة:

«ومكافأة لها ستدفع عائلة الفاليبى الآن تكاليف جنازتها.» ماريكيا بيترازى وعائلتها لن يذهبوا إلى جنازة منولارا.

١٢- دون جوفانينى بينزيمونيو يتحدث عن نادى الكونسيرفاتسيونى

كان العم بيبو كونيليو قد أضاع وقتا فى المخبز. كان يتنفس بصعوبة عند ارتقاء السلالم القائمة، التى تؤدى إلى الميدان، كان قد تأخر فى الوصول إلى نادى الكونسير فاتسيونى، ويخشى أن يكون عضو آخر قد استولى على نسخة جريدة «سيشليا»، ويحرمه من متعة أن يكون أول من يقرأ الجريدة.

وكانت المفاجأة أن وجد أصدقاءه مستغرقين فى حديث مفعم بالحيوية والإثارة، فلم يخطر ببال أحدهم أخذ الجريدة، التى بقيت كما هى فوق المقعد فى انتظاره.

ظل واقفاً يستمع إلى حديثهم وقد احتضن بين ذراعيه كيس الخبز، وقد انبعثت منه رائحة الخبز الطازج الساخن، نسى الآلام الروماتيزمية بساقيه.

وفى ذلك الصباح كان يلتف حول دون جوفانينى بينزيمونيو البالغ من العمر ثلاثة وثمانين عاماً العديد من الاشخاص. كان بقية الأعضاء يجلسون حوله، ويتدخلون فى الحديث بين الفينة والأخرى، مضيفين بعض التفاصيل للقصة التى يحكيها دون جوفانينى بحيوية، ويضحكون ملء أشداقهم مثل صبية صغار.

لم يفهم عم بيبينو فى بادئ الأمر عمن يتحدثون.

« كانت تتسلق الأشجار مثل القردة، قدم هنا ويد هناك، وتمتطى الأغصان، ثم تقفز من فرع لآخر، تتعلق بالفروع المحملة بالزيتون وتتقافز فوقها لتهزها كما لو كانت ترقص، فوق الفرع السفلى ارتفاعاً وهبوطاً.» نهض دون جوفانينى وأخذ يقلد الحركات وقد باعد بين ساقيه، مثنياً ركبتيه.

«كانت تتسلق الأشجار حافية، لم تكن قدماها الحافيتان تحسان بخشونة لحاء الجذوع، التى تمسها بالكاد من شدة الرشاقة والخفة. لم أر مثلها خلال ستين عاماً

من عملي بالحقول، كانت حبات الزيتون تتساقط مثل كريات الثلج، وكان الصبية ينظرون إليها من الارض بأفواه فاغرة ويحاولون الاقتراب تحت الشجرة، وتبعدهم حارسة الحقول»

قال ماريو لوجاربو متعجباً وعيناه تلمعان لتذكر متع حسية منسية:»

«كانوا يريدون رؤية فخذيها، وليس جمع الزيتون.! كان الآخرون يضحكون. وكل منهم يضيف تعليقا:

« وأى ساقين!»

«كانت غضة نضرة!»

«كانت صغيرة السن، وكان لها جسد أنثى بض.»

« وكيف عرفت؟ هل لمستها؟«

كان العم بيينو يسأل: «من؟»، لكن الأعضاء لم يعيروه اهتماماً، فقد كانوا منهمكين ومستمتعين بالذكريات المثيرة، تسليهم التعليقات المرحة التى كانوا يظنون أنهم لم يعودوا قادرين على إطلاقها.

أخيراً خاطبه دون جوفانينى: «هل تذكر منولارا، التى كانت فى طفولتها، تعمل فى أرض البارون بوتريسكا؟»

اجاب بيبينو: «نعم»، وقد أصيب بالإحباط فقد كان يعتقد أنها نميمة عن امرأة أكثر جاذبية من خادمة عائلة الفاليبي، «ولكن لماذا تتحدثون عنها؟»

قال ماريو لو جاربو، ولا زالت عيناه تدمعان من الضحك.

«ألم تقرأ النعى فى الطريق؟، لقد ماتت البارحة.»

رد بيبينو الذى كان يشعر بالغضب لأنه لم يستطع الضحك مع الآخرين، فقرر أن ينغص عليهم مرحهم فقد كان عجوزًا بائسًا:

« من الجميل الحديث عن الراحلين الذين لم يواروا الثرى بعد، والسخرية منهم أيضا، أرجو ألا تفعلوا معى ذلك بعد رحيلى.»

بادره ماريو لو جاربو برد أسكته: «لا يجيد الحديث إلا عن المصائب»

ضحك الآخرون، كان العم بيبينو يستحق ذلك الرد الجارح.

شعر دون جوفانينى، على العكس، بأنه ملوم، ولكنه أراد الاستمرار فى الحديث، مأخوذا بالذكريات:

«بيبينو، صحيح أن منولارا، يرحمها الله، قد ماتت بالأمس، إلا أننا هنا لا نتحدث عنها بسوء بل نمدح جمالها».

أضاف جاسبرى بونتي: «أعتقد أن المرحومة لو علمت أننا لازلنا معجبين بها، لشعرت بالرضا، عندما كانت شابة كانت تشعر بجمالها وكان يعجبها أن ينظر اليها الأخرون!»

عادوا للحديث عن منولارا ولكن هذه المرة بنبرة أكثر جدية، ثم عرجوا مرة أخرى إلى المزاح. فقال جاسبرى ضاحكاً: «كانت تضرب بالعصا من يمد يده ليساعدها، ضربات قوية!»

سأله دون جافنينو:

«لماذا، هل حاولت أنت أيضا؟»

«لا، من كانت تواتة الشجاعة! فالكلمات البذيئة التى كانت تخرج من فمها عند الغضب.. وكم كانت تعرف منها! وصوتها!»

أضاف ماريو لوجاربو:

«كان أقوى الأصوات جميعاً، فكانت الحارسة تلجأ اليها لمناداة شخص من بعيد عند الحاجة، كانت تبدو وكأنها مغنية، ليتها احترفت الغناء، كانت تعجبنى كثيراً عندما كانت تدندن مع الفتيات وعمال الحقل، ويرتفع صوتها بعذوبة، ثم كانت

تتحرك أثناء الغناء واضعه قبضتى يديها على جانبيها، ويتمايل مع الغناء كل جسدها.» وقف وأخذ يقلد حركات منولارا، واضعاً يديه فوق جانبيه، محركاً خصره فوق ساقيه النحيلتين المعوجتين.

ضحكوا مرة أخرى، وبيبنو الذى استسلم كان يشاركهم الضحك.

«عندما كانوا يزنون أجولة المحصول اليومي، كانت تلقى بها فوق الميزان وكأنها مملوءة ريشا، كانت معجونة بالحديد».

قال دون جوفانينى بجدية:

«من الحديد والنار».

ثم أردف، ولم يكن قد غفر لبيبنو عتابه المبرر له، وقرر أن يُشعره بالذنب لأنه اشترك فى الضحك معهم:

ثم خمدت تلك النيران، مسكينه.

ورويدا، رويدا، هدأ بقية الأعضاء وإن لم يصمتوا، فدماء الشباب التى أثارها الحديث عن منولارا كانت لا تزال تسرى فى شرايينهم الواهنة العجوز.

وقد راودتهم الذكريات، تابعوا الحديث بحنين إلى حياة الريف، وللمرة الأولى أصبح المنتدى يعبر عن اسمه، فقد واصلوا الكلام، بينما بقيت الجريدة، متروكة كما هى فوق المقعد.

وعند منتصف النهار، بدأ الاعضاء يستعدون للعودة إلى بيوتهم لتناول طعام الغداء، الأكثر شباباً، يلتقون أيضاً بعد الظهيرة.

اقترح دون جوفانينو: «بعد كل هذا الضحك بسببها، أعتقد أنه من الواجب، حضور جنازتها، فما رأيكم؟»

هكذا ضحوا براحة القيلولة عرفانًا منهم بجميل منولارا التى أثارت مرحهم، وأيضاً لإحساسهم بالخجل لعدم احترام الموت، ذهب إلى الجنازة جمع غفير من نادى الكونفرساتسيونى مما أثار دهشة وفضول الحاضرين.

١٣- جاسبرى ريسيكو، موظف بمكتب البريد وسكرتير الحزب الشيوعى الايطالى بمدينة روكاكوملبا وزوجته الفيرا

أغلقت مكتبة بكوريلا نصف ساعة قبل موعدها فى صباح ٢٤ ديسمبر كى تستطيع صاحبة المكتبة روزاليا مانجارانشيا بيكوريلا إعداد الغداء والذهاب إلى جنازة منولارا. الفيرا ريسيكو العاملة بالمكتبة استغلت تلك الفرصة لشراء بعض السردين الطازج من بائع السمك لتحضيرها لزوجها الذى كان يعشق السمك فى كل أيام الأسبوع، وليس فقط يوم الجمعة.

كانت إليفرا بالمطبخ تقلى أسماك السردين التى فتحتها ونزعت منها الشوك وقلّبتها جيدا فى الدقيق، عندما دخل زوجها خفية وأحاط خصرها بذراعيه واحتضنها بحنان، كانا متزوجين منذ ثمانية أشهر، وكان الناس يقولون عن حق أن كلا منهما مجنون بالآخر.

وبينما كان يقبّل عنقها المبلل بقطرات العرق من حرارة الزيت المغلى سألها جاسبرى كيف عادت مبكرا إلى المنزل؟

«دعنى ياجاسبرو لاتعطلنى ألا ترى أننى أقلى السمك سيتعجن لو لم أقله فوراً.» كانت تتحدث عن غير اقتناع، لأن لمسات الزوج قد تزايدت والآن يتحسس ثديها وفخذيها وجانبيها وكانت تشعر بالنشوة وابتلال ريقها بعذوبة، «لقد ماتت خادمة عائلة الفاليبي، أقارب السيدة بيكوريلا أغلقوا المكتبة مبكرا للذهاب إلى الجنازة.»

خفّت الشهوة للحظة ثم اشتعلت. قال الزوج مطوقاً جانبيها، ضاغطاً بجسده نحوها: «لعلها أينسريللو، لقد رأيتها الاسبوع الماضى بمكتب البريد وكانت تبدو مرهقة.»

توقف لحظة ثم أردف: «كانت امرأة شريرة، من النوع الذى يجب الحذر منه.

كانت الفيرا تشعر أن أسباب إعجابها بزوجها تزداد يوما بعد آخر، ذلك الزوج المثقف الذى يعرف كل شيء عن كل الناس، ويتأمل جيدًا قبل إصدار حكمه،

وأفكاره دائما عميقة وحكيمة وأضافت «على الرغم من أن السيدة بيكوريلا حكت لى أنها كانت سيدة طيبة، أحبت عائلة الفاليبى كما لو كانت عائلتها وخدمتهم بإخلاص طوال حياتها».

ثم قاطعت حديثها وقد ندمت على استخدام تعبير بورجوازى «خدمت».

وخجلت من جهلها، واصل جاسبرى عض حلمة أذنها.

واصلا الثرثرة حول المائدة وهما يلتهمان أسماك السردين الساخنة المقرمشة.

سألت الفيرا:

«ولكن لماذا وضعت عائلة الفاليبى الإعلان فى الطريق، ولِمَ يقيمون جنازتها، أليس ذلك من واجب عائلة الراحلة؟» كانت الفيرا التي تنحدر من سيركوزا، تتوق للاندماج فى بلدة الزوج حيث ستقضى حياتها كلها، مالم ينتقل الزوج إلى مدينة أكبر بسبب نشاطه السياسي.

رد جاسبرى:

«هؤلاء الأوغاد يجب أن يتعلموا كيف يعاملون العاملين لديهم باحترام أثناء حياتهم وليس بعد موتهم، انيسريللو مثال مخجل للبلوريتاريا التى تخضع لطبقة أصحاب رؤوس الأموال وتعامل الآخرين بغطرسة، أعرف ذلك وقد أجبرتها على الالتزام بحدودها مرات عديدة فى مكتب البريد.

كانت تتصرف بكبر وكأنها بارونة، بارونة فيما يخصها! لم يضف شيئاً آخر، فكان يضايقه أن يحكى أنه فى الحقيقة كانت منولارا هى من وبخته أكثر من مرة عند تغيبه أثناء ساعات العمل عن مكتب استقبال الشكاوى، حيث كان يتسلل يوميا إلى مقر الحزب لقراءة جريدة «أونيتا»، وكان مدير المكتب، زوج عمته الذى بفضله حصل على الوظيفة، يسمح له بذلك.

وكانت منولارا قد زجرته كما لو كان تلميذا بالمدرسة، وهى التى لا تعرف الكتابة بالكاد أفهمته أنها على علم بغيابه المستمر عن العمل وأن عليه إعطاء القدوة الحسنة للموظفين كى يحترموه.

كان تأثير خطبة جاسبرى الحماسية القصيرة بالمقارنة بما اعتاده من خطب تهدف إلى تشكيل الوعى السياسى لدى زوجته، مدهشًا وغير متوقع.

أسندت الفيرا يدها فوق كتفه مبتسمة، وحانية، دلكت عنقه وقالت:

« اليوم لدى مفاجأة لك»، بينما كانت تفتح أزرار الروب، وظهر ثدياها البضّان، كانت عارية تماماً.

بمجرد الانتهاء من تناول أسماك السردين القليلة الباقية، شعرت الفيرا بالامتنان للنشاط السياسى لزوجها الذى منع وجود خادمة بالبيت ولو لبضع ساعات فى اليوم، لأنه فى يوم ٢٤ سبتمبر ضاجع جاسبرى زوجته فوق مائدة الطعام التى كانت تتراقص فوقها أدوات المائدة بمرح على إيقاع حركات ساقيه.

وقد علم زوجته فضلا عن ممارسة الحب، بعض الأشياء الرائعة غير المعتادة، فبعد أن وصل إلى ذروة اللذة، ابتعد جاسبرى عن المائدة كى ينظر إلى الفيرا التى كانت ترقد فوقها شبعى، فاتنة، وكان كأس من النبيذ فى متناول يده، فشرب جرعة منه. وأحسن صنعا بصب الباقى فى تجويف سرتها الصغيرة البديعة ومن هناك سرت قطرات النبيذ فوق بطنها الغضة، وتخللت أجزاء جسدها الحميمة وتساقطت فوق فخذيها المنفرجتين. هكذا عرفت الفيرا متعة تقبيل الأجزاء الحميمة.

نسى جاسبرى ريسيكو فى تلك الظهيرة ان يخبر الرفقاء بعدم حضور جنازة أينسريللو«خائنة الطبقة العاملة». ولم يكن هناك حاجة لذلك، لأن حضور جنازة فى الثالثة ظهراً، لم يخطر ببال أحد من أعضاء الحزب الشيوعى بروكاكولومبا. ولم يمنع ذلك ريسيكو من التباهى فى الأيام التالية بأنه بفضل سرعة بديهته جنّب الحزب الظهور بشكل سيء أمام المواطنين.

-١٤- الجنازة

سار الطبيب ميندكو متأبطاً ذراع شقيقته، السيدة كونشيتا دى بريما فى الطريق إلى كنيسة عذراء الآلام لحضور جنازة منولارا. كان صامتاً، مستغرقاً فى أفكاره. كما تعود منذ تقدمه فى السن، وفجأة قال بصوت عال:«أنا غير مقتنع بوفاتها على هذا النحو، كان يمكنها أن تعيش حتى عيد الميلاد! كانت تتعجل الرحيل ونجحت أيضا هذه المرة.»

حاولت السيدة دى بريما تهدئته:«ماذا تقول يا ميمو، اهدأ.»

وعند ذلك اقترب منهم بعض المعارف المتجهين لحضور الجنازة ودخلوا إلى الكنيسة معاً.

جلس الطبيب ميندكو وشقيقته فى الصفوف الأولى. كان الطبيب يُعجبه تأمل المذبح المبنى على غرار رسومات العصر الباروكى من الرخام متعدد الألوان، تمثال العذراء المتألمة ذات النظرة المليودرامية، كما يقتضى طراز المدرسة الأسلوبية التى عرفت فى الأقليم، القبة المزينة برسومات بوتى وتغطيها تيجان الورود، الهبة السخية من الأمير برولى، ربما أراد بها ارضاء ضميره، بعد إرغامه للابنة الكبرى على الرهبنة لاسباب تتعلق بالميراث وبالفعل أصبحت رئيسة الدير فيما بعد. نظر الطبيب إلى التابوت، ولاحظ أن منولارا قد اختارت دون أن تدرى أكثر الكنائس مناسبة لإقامة جنازتها، فالمرأتان ضحت عائلتاهما بهما: الأولى للحفاظ على المكانة العائلية والأخرى لتحافظ على حياة عائلتها.

همس إلى شقيقته قائلاً:

«يشترك النبلاء والفقراء فى أشياء كثيرة دون أن يدروا.»

هزت السيدة دى بريما رأسها بموافقة غير محددة، معتقدة بأن تأملات أخيها تزداد غرابة مع تقدمه فى العمر.

كان الأب أرينا يرتدى ملابسه بمساعدة أحد القساوسة الشبان، لإقامة مراسم الجنازة فى الكنيسة التى كان قسيسًا لها لسنوات عديدة. كان قد نسى تقريبا عمله كقسيس منذ بلوغه المعاش، فكان يعيش حياة هادئة فى البيت الريفى الذى يملكه ابنه غير الشرعى، كان يعتنى بحقل الخضروات، وبزراعة الحديقة أمام البيت.

فى نهاية الأمر كان يعمل بالفلاحة، وهو ابن مستأجر أراضى الأمير برولي، وبعد أن اختار له والده حياة أفضل من حياة الريف وساعدهما الأمير فى ذلك.

وقد عادت منولارا إلى الاتصال به فى شهر مايو الماضي، وتقابلا عدة مرات استعادا فيها صداقتهما القديمة. قد أخبرته، دون ان تشى قسمات وجهها بأى تأثر، بأنها تحتضر وستموت قبل الشتاء وطلبت منه مساعدتها فى كتابة الخطابات كما كان يفعل فى الماضي، وطلبت منه أن يقيم مراسم جنازتها، وهو لا يستطيع أن يرفض طلبها.

كان الأب ارينا يرتدى الأردية الكهنوتية البنفسجية والذهبية الخاصة بقداس الجنازة، كان شريط الدانتيل المزين لطرف رداء الكتان الكهنوتى الأبيض للقسيس الجديد يصل بالكاد إلى ركبتيه. يا ترى ماذا فعل بالأردية «التونيك» الطويلة التى حاكتها الراهبات خصيصًا له، حيث كان طويل القامة، وهو أمر غير منتشر بين طبقة الفلاحين التى يأتى منها رجال الدين. كان الأب أرينا طويلا، نحيلا، ممشوق القوام، رقيق الصحة وقد تساءل مرات عديدة عما إذا كان كرم الأمير برولى معه ومساعدته إياه علاقة بأمه التى يقال إنها كانت رائعة الجمال فى شبابها، فقد كان مختلفا عن إخوته، قصار القامة، ممتلىء الجسد وقد أرسل إلى المدرسة الكهنوتية ليس لأنه أظهر رغبة فى الرهبنة، وهى لم تتولد لديه قط، وإنما لإزالة حرج من المنزل. ومثل منولارا رضى بنصيبه فى الحياة، ويمكنه القول بأنه عاش حياة بسيطة ولكنه راض عنها.

كانت إقامة القداس، تصيبه دائما بالتوتر بسبب تلعثمه الذى استطاع أن يحتال

عليه بحيلة اكسبته شعبيته: فقد تعلم إقامة الصلوات وأيضاً المواعظ بسرعة كبيرة، فكانت قداساته لا تزيد عن ربع الساعة وهى ميزة كبيرة.

كانت العائلات الثرية تتهافت عليه، بفضل رعاية الأمير له، وأيضا لطيبته وحسن أخلاقه، لإقامة قداسات الزواج، والتعميد، والمناولة الأولى، والجنازات فضلاً عن قداس العائلات فى البيوت أو كنائس القرى. وهكذا أتيحت له فرصة التردد على بيوتات العائلات الثرية والجلوس إلى موائدهم العامرة فتعلم استحسان الطعام الجيد، وكان يصرح بنهمه للطعام دون إحساس بالذنب؛ لأن كل هذه الخيرات لم تكن لتأتى له دون عمله كقسيس.

فكر الأب ارنيا طويلاً فى خطبه جنازة منولارا. لدرجة أنه كتب بالفعل صفحة صغيرة من الملاحظات إلا أنه لا يجدها الآن. حدث نفسه وهو يعدل الأردية الكهنوتية على جسده: كفى، فليكن ما يكون»، ودخل إلى الكنيسة فى تمام الساعة الثالثة يتبعه الكاهن.

فوجيء بحضور عدد كبير من الناس. كان أفراد عائلة الفاليبى يجلسون فى الصف الأول، كانت السيدة أدريانا الوحيدة بينهم بثوب الحداد. كانت سانتا محشورة بين نساء أخريات فى الصف الثانى، كن جميعهن يرتدين السواد ويغطين رؤوسهن.

كانت هناك أيضاً صديقات للسيدة الفاليبى، وقد اطمأن بذلك عليها، فتلك السيدات سيقمن برعايتها ومواساتها فى الفترة القادمة، ثم أشخاص عملت بخدمة عائلة الفاليبي، والعديد من أبناء البلدة، والفقراء، وبائعى الفاكهة، وحراس البنايات بروكا كولمبا العليا تجار صغار، معارف لمنولار.

كان الأب أرنيا ينظر إلى بقية الجمع، لم يكن ينتظر كل هذا العدد، كان هناك العديد من علية المجتمع فى البلدة، موثق العقود فاتسانو، والطبيب منيدكو وأخته، والمهندس الزراعى ماسكولو وزوجته،ورئيسه المدير، ومدرسون بالمدرسة، حتى مجموعة من عجائز نادى الكونسيرفاتسيونى.

لم ينته الأمر عند ذلك. ولكن أيضاً، حضر عدد من الفلاحين الذين كانوا يعملون فى الأراضى المملوكة لعائلة الفاليبى كانوا عديدين وقد شغلوا أربعة أو خمسة صفوف فى آخر الكنيسة فى مجموعة واحدة، ممسكين بقبعاتهم فى أيديهم، ولاحت فى أعينهم نظرة توبة مثل تلاميذ المدارس، ورجال آخرين، أشخاص متوسطى العمر من الغرباء من البلدة، لعلهم من الحمالين أو من الريف.

نظر إلى التابوت حائرا مترددًا. مسكينة منولار، من كان يصدق أنه وهو من يكبرها فى العمر بكثير، سيقيم قداس جنازتها وسط كل هذا الحشد من الناس الذين لا يدرى من أين جاءوا!

بدأ القداس وكالعادة انتهى بسرعة شديدة. وعندما حان وقت الموعظة، اقترب من المنبر، وارتجل الحديث دون أية صعوبة: «من الصعب دائما الحديث عن الراحلين. فى بعض الأحيان، أحاول أن أقول الكلمات التى كانت لترضى المتوفى، وفى أحيان أخرى ما تود العائلة سماعه... فى مرات قليلة قررت أن أقول ما أريده أنا. سأقول عن ماريا روزاليا انسريللو ما أشعر به لأننى عرفتها منذ أن كانت فى الثانية عشرة من عمرها وأحببتها مثل ابنتي، وعندما كبرت أصبحت صديقة حقيقية كنت أعرفها جيدا، المنولارا، كما كان يناديها الفلاحون للإساءة اليها، ومنو التى عملت ببيت الفاليبى بجد واجتهاد طوال حياتها، لم تعرف الراحة. شخصية ثائرة فى قلبها وعقلها، وكانت تحاول أن تقدم دائما المزيد والأفضل. كانت صعبة الطباع، سريعة الغضب، نادرًا ما تضحك، وإن كانت لها روح دعابة خاصة بها.

كرّست حياتها لخدمة عائلة الفاليبي، وفعلت لهم ما اعتقدت أنه الصواب، كان لديها القليل من الأصدقاء وإن كنت أرى الكثير من الأشخاص هنا، وهذا يعنى أنها ربما كان لديها أصدقاء أكثر مما كانت تظن، كان لديها أيضا أعداء، لم تكن تسامح بسهولة وكانت صعبة المراس وهى أخطاء سيغفرها الله لها، لأنها تعذبت وعانت كثيراً منذ طفولتها، عندما كانت تجمع اللوز فى الحقول...»

عند هذا شعر الأب أرينا بشعاعين يخترقانه بشكل مهيب ويقودانه بشكل تلقائى نحو دون فينشينسو انكونا. لفت الأنظار إلى الشخصية المعروفة فى آخر مكان بالكنيسة، أمام عمود البوابة الرئيسية.

وقد باعد بين ساقيه وعقد ذراعيه، ومعطفه ملقى فوق كتفيه الصلبتين المقوستين، فكأن السلطة قد خلقت هالة حوله.

صمت الأب ارينا وبقى ساكناً مثل تمثال. استعاد قدرته على الحديث بعد جهد كبير. أغفل ذكر ما كان ينوى قوله، وختم حديثه بسرعة: « وتألمت أيضا بموتها شابة.» أقول لكم إنها كانت امرأة تستحق الاعجاب، وبمرور الوقت سنتعلم أيضاً أن نحبها لأنها كانت تحافظ على وعودها، كانت خادمة وصديقة مخلصة. أقدم تعازيّ إلى أبناء وزوج شقيقتها غير الحاضرين بيننا بكل أسف وأيضا إلى عائلة الفاليبي.»

فقط فى هذه اللحظة، نجح الأب أرينا فى رفع بصره عن دون فيشينسو، ونظر إلى السيدة الفاليبي. شعر بقواه تخور واستند إلى المنبر. رفع عينيه باحثاً عن عينى دون فيشينسو وكأنه حملٌ صغير يبحث عن أمه، ولكن دون فيشينسو انكوانا كان قد اختفى وتلاشى كما لو كان وهمًا، لم يسمع صوت خطوه أو صرير الباب، اختفى تماماً مع رجاله.

-١٥- دون باولينو يتبول على نفسه للمرة الثانية بسبب منولارا

لم يكن دون باولينو متديناً. كان يذهب إلى الكنيسة فقط لحضور الجنازات وحفلات التعميد والزواج، وكانت دونا ميما تشعر بالأسف لذلك على الرغم من أن الزوج كانت لديه أسباب قوية تمنعه من الالتزام بالذهاب، فقد كان يعانى من روماتيزم بالمفاصل ولم يكن يستطيع الولوج والخروج بسهولة من بين الدكك الخشبية بالكنيسة، هذا الاختراع الجهنمى المزود بمسند للأقدام، تنحشر فيه قدماه باستمرار، وطاولات خشبية صغيرة تفتح، وتغلق للركوع فوقها وتصطدم بها ركبتاه، وأرفف صغيرة بارزة تحوى كتاب الصلاة، وتقيد حركته. ذات مرة فى حفل زفاف ابنة شقيقه، احتاج تدخل ثلاثة رجال لتخليصه من الدكة التى وقع وانحشر داخلها. وفى كنيسة العذراء المتألمة، فضل أن يترك زوجته، وابنة أخيه لوتشيا تجلسان فى الصفوف الأولى فى الصحن الرئيسي للكنيسة بينما جلس هو بمقعد عثر عليه لحسن الحظ بجانب باب الدخول، كى يكون من أول المغادرين بعد انتهاء المراسم.

كان يتأمل بمودة الأب ارينا، الذى اصطحبه مرات عديدة فى السيارة إلى البيت الريفى للمحامي، أثناء حياة السيدة ليللا، عندما كانت الناس تعتاد إقامة القداسات فى الكنائس الصغيرة ببيوتهم. رجل طيب، هذا الأب ارينا، كان يستلطفه. ثم إنه ليس قسيساً بالمعنى الضيق فقد حملت منه دونا مريكيا، الأرملة التى تكبره فى العمر وأنجبت ولدا يشبهه تماما لم يكن الأب أرينا يخفى هذا الأمر كما يفعل الكثير من القساوسة، فكانا أثناء الرحلة بالسيارة يتحدثان عن أبنائهما.

الاستماع إلى القداس الذى يقيمه هو أمر مريح فهو يضمن قصر القداس وانتهاءه سريعاً. كان دون باولينو يشبه قداس الأب أرينا برحلة فى السيارة؛ يبدأ دائما وهو ينفخ ويتعثر فى تلعثمه، ثم تزداد سرعته ويتحدث ملتهماً كلماته، متخطيا عبارات كاملة كى يصل فورا إلى «اذهبوا فقد حلت البركة». مثل سيارة

ماركة «ألفا روميو». كان دون باولينو ينصت إلى الأب ارينا باهتمام، واثقاً من انتهاء العظة في وقت قصير.

كان يحُدث نفسه وقد لاحظ أنه كان يتكلم بوضوح ودون تعلثم: «أحسنت أيها الأب ارينا، «يبدو أنه تحسن في سن الشيخوخة» وكان ينظر إليه بمودة.

ولكن فجأة قطع الأب ارينا حديثه بعد العبارات الأولى.

بدا لدون باوليو أن القسيس يحدق اليه، ولكن الأمر لم يكن كذلك، فقد كانت نظرات القسيس تتعداه لشخص آخر خلفه.

فكر دون باولينو:« أخطأت بظنى أنه تحرر من التلعثم، ها هو يعود إلى العي، ولا يتمكن من مواصلة الحديث، إلا أنه ظل هادئاً واثقاً في أن الأب ارينا سيعود سريعاً إلى الحديث. ولكن القسيس بقي واجماً،، صامتاً وبدا وكأن جسده تجمد من رعب لا يمكن فهم كنهه أو وصفه، كانت نظرته مثبتة فوق كتف دون باولينو الأيمن، وكأنه أرنب برى غشى بصره أمام مشعل الصيادين الليليين، ضحية عاجزة تنتظر مصرعها بوابل من طلقات الرصاص.

بدأ دون باولينو يشعر بضيق غريب، كما لو كان هو أيضاً طرفاً في هذا الموقف، كما لو كانت تنطلق من خلف كتفيه حزمة ضياء شريرة تصعق وتشل حركة الأب أرينا.

تحامل على نفسه وتحمل ألم تحريك عضلاته فلم يكن قد فقد فضوله المعهود، نجح في الالتفات والنظر إلى الخلف: وجد دون فينشينسيو مستندا إلى باب الكنيسة، الوجه المحمر العجوز ذو الجلد المشدود اللامع، تقريباً دون أية تجاعيد يضج حياة و فتوة، وقد ثبت نظره على الأب أرينا.

كان يقف حوله أربعة رجال مرتدين الملابس الغامقة وكانت أعينهم تنتقل بسرعة من نقطة إلى أخرى بالكنيسة. لاحظوا فورا دون باولينو. حدجه أحدهم

بنظرة تحذير، كانت تنقل الرسالة المعروفة: «لا شأن لك بهذه الأمور اعتبر أنك لم تر شيئاً». التفت دون باولينو، بسرعة خارقة، ودون الإحساس بأى ألم فى عظامه، وعاد إلى وضعه السابق وأحنى رأسه كما لو كان فى موقف التوبة. كان يرى ضبابا أمام عينيه ويرتعد من الخوف. شعر بسخونة داخلية كانت تسرى بين فخذيه وتنتشر فوق ساقيه لتصعد إلى مؤخرته، كان دون باولينو انونسيتا يبول على نفسه.

انتهى القداس وكان الناس يستعدون للخروج على تؤدة من الكنيسة.

ظل دون باولينو ملتصقا بكرسيه، محرجا من فكرة أن يرى الآخرون سرواله المبلل. قال لزوجته إنه يرغب فى تحية الأب أرينا وأنه سينتظره. انقشع الضباب من أمام عينيه وغدا نظره صافياً وشعر بتحسن، ولكنه أحس باللزوجة، بعد برودة البول، الذى كان يسبب له شعورًا بالضيق الشديد.

نهض بحذر واتجه نحو قاعة الكنيسة متوخياً الحذر بالسير بجوار الحوائط فى الضوء الخافت.

وكان الأب أرينا وحده وقد خلع أرديته الكهنوتية، حيث كان يقف أمام لوحة المتنيحة كارميلا دى برولي، أول رئيسة للدير ذات العينين الغامضتين القاسيتين، كما لو كان يطلب منها أن تشفع له عند الرب.

اقترب منه دون باولينو وفهم أن القسيس يطلب العون من الراهبة، ربما كانت من أسلافه، وانتظر برهة. لمس رداءه بخفة ليجذب انتباهه، انتفض القسيس:

- «اوه أهذا أنت يا بولينو لقد أفزعتنى.»

- رد بولينو:

- «أنا أيضا، رأيته، وربما بُلت على نفسى»

- رد الأب أرينا بنصف ابتسامة:

- «لا داعى للقلق على نفسك أو علىّ، أمسك هذا.» وأعطاه خرقة من الكتان وساعده بغلظة على تخفيف بلله.

بعد ذلك خرج العجوزان معا، أحدهما طويل، ممشوق مهيب الطلعة فى جبته السوداء الهفهافه، والآخر قصير، ترتعش ساقاه أكثر من المعتاد وقد انحنى فوق عصاه، ظهرا أمام باب الكنيسة الخارجى حيث كانت الناس تتباطأ فى الانصراف، منشغلة بالثرثرة فى انتظار الأب ارينا.

- قال الأب إرينا لدون باولينو: «اتصل بي».

ولحق سريعاً بموكب الجنازة الذى كان ينتظره واتخذ مكانه فى المقدمة بجوار جانى الفاليبى وتحرك الموكب. بقى دون باولينو أمام الكنيسة آملا أن تجفف الرياح الخفيفة سرواله.

وكى يتصرف بشكل لائق، تتبع بنظرة احترام الموكب الذى كان يتحرك مثل دودة بطيئة طويلة الرأس، تتلوى فى الطريق المتعرج المنحدر نحو المقابر. وعندما اختفى الذيل المتموج المتعرج الصخب عن نظره، رجع إلى البيت منكسرًا، محبطًا.

أخبر دونا ميما أن أسماك السردين المحشي (بيكافيكو) التى تناولها على الغداء، أصابته بالحموضة، واندس فى السرير متمنياً أن يجف السروال دون أن يترك أثرًا لفعلته المخجلة.

فى تلك الظهيرة، نام بعمق. استيقظ وقد حل المساء، وكان يشم الرائحة الحلوة للبصل المحمر المستخدم فى طهو طعام العشاء، وشعر بالأمان.

حدث نفسه ضاحكاً:« لم يكن ينبغى لمنولارا أن تفعلها معى».. «مرتان كثير».

كان قد مر خمسة عشر عاماً على المرة الأولى وهى دائماً طرف فى الموضوع.

كانت ليلة مظلمة من ليالى شهر ديسمبر، هبط الليل فى الرابعة بعد الظهر وكان يصطحب منولارا بالسيارة إلى الريف.

كانت تجلس بجانبه، كما تعودت عند سفرها وحدها معه، فلم تكن تعامله معاملة السادة.

كانت منولارا قد أمسكت بزمام إدارة أملاك الفاليبى منذ فترة وجيزة، وكان الصراع محتدماً بينها وبين مستأجرى الأرض الرافضين الخضوع لسلطتها. كان زمن الشقى جوليانو، وثورة الأجراء، والصراع بين النظام القديم والمافيا التى كانت فى أوج تطورها، وأصبحت اكثر عنفاً ووعياً بالدور الذى بدأت تلعبه فى الصراع السياسى والطبقى فى إيطاليا الديمقراطية المسيحية. كانت كل زيارة إلى الريف مغامرة وصدامًا جديدًا. كانت أفضل اللحظات لدون بارلينو المحب للحياة الهادئة هى لحظة الرحيل من المزرعة، محملًا بالمحصول والمنتجات الزراعية. فى ذلك اليوم كانت رائحة الخضراوات التى قطفت لتوها وعطر محصول البرتقال الجديد يفوح من السيارة. كان دون باولينو يقود السيارة بحرص مشتهياً طعم الخضراوات المطبوخة المسلوقة، مع بعض من زيت الزيتون الجديد وعصير الليمون الذى سيأكله على العشاء. كان يتقدم بالسيارة بمهارة وحرص فى الطريق الضيق الملئ بالحفر والأحجار الخطرة والذى يلتف مع منعطف الجبل، على شفا الجرف الممتلئ بالأحجار، و العوسج.

وعند هذه النقطة من الطريق عند المنعطف، أجبروه على الوقوف بالسيارة.

قطع ثلاثة رجال الطريق أمامه: كانوا فى انتظارهما.

وقف أحدهم فى منتصف الطريق، والاثنان الآخران على جانبيه، وصوبوا نحوهما بنادق الصيد، لم يكن يرى منهم إلا العيون التى كانت تظهر بالكاد بين القبعة والشال الذى يغطى وجوههم.

كان رد فعل منولار فورياً، و حاضراً وضعت يدها فوق فخذه، دون أى خجل وقالت له: «سيد باولينو، عندما أقول لحضرتك اذهب، ضع يديك على ناقل الحركة على السرعة الأولى، وتحرك بسرعة، هل فهمت. الآن قف وافعل ما يقولونه.»

صرخ الرجل الواقف فى منتصف الطريق: «أطفئوا نور السيارة». أشعل دون باولينو من شدة اضطرابه النور وتوقف. صرخ الرجل مرة أخرى:« قلت أطفيء المصابيح أيها الأحمق!» أطاع دون باولينو الأمر، وبقى فى الظلام. وأثناء ذلك فتحت

منولارا زجاج نافذة السيارة وقالت بصوت عال، واثق وهى تُخرج رأسها من النافذة:« ماذا تريدون؟»

تحرك الرجل ببطء والبندقية لا تزال مصوبة وهو ينظر مباشرة إلى وجهها وسأل:« هل هذه سيارة المحامى الفاليبي؟» وأثناء ذلك كان زميله يفحص السيارة من الداخل عبر النوافذ ليتأكد من عدم وجود أشخاص آخرين بها.

أجابت منولارا: «تعلمون جيدا أن هذه السيارة يمتلكها المحامى الفاليبى وأننى منولارا، ماريا روزاريا انسيريللو، والجالس على مقعد السائق هو دون باولينو أنونسيتا، سائق المحامي. ينبغى أن أعود إلى البلدة للعمل ببيت الفاليبي، لذا أخبرونى بسرعة بما يجب أن تخبرونى به.» وخفضت رأسها وجلست بظهر مستقيم فوق مقعد السيارة وعنقها ملتفت إليه وعيناها تنظر بثبات فى عينى الرجل القريب المتوعد. أرخى الرجل البندقية، فانزلقت ببطء على جانبه.

وضع ذراعه ببطء فوق النافذة المنخفضة، تمهل، ثم تحدث قائلا:

« يا آنسة هذا تحذير لحضرتك، الذهاب إلى الريف غير صحى بالنسبة لك، هواء المدينة أفضل كثيراً، من الأحرى بك القيام بعملك كخادمة فى بيت المحامى الفاليبى دون التدخل فى الأمور التى لا تعنيك».

احتدم التوتر. نظر دون باولينو أمامه، فرأى فوهة بندقية ذى الوجه الدميم، الواقف فى منتصف الطريق الضيق مباعدًا مابين ساقيه مثل عملاق من الحجر، مصوبة نحوه.

أحس برجفة مترددة بيد منولارا التى لم تغادر فخذه، شعر بضغط أظافرها فوق قماش البنطلون. كانت هى أيضا تشعر بالخوف، وأحس بالقنوط.

انتفض عند سماع صوتها الرنان. كانت تصرخ ويتناثر الرذاذ من فمها، ومع ذلك كانت كلماتها واضحة و بسيطة:

« لم يتحدث أحد معى بهذا الشكل من قبل، أعرف أنه ليس خطئك، أو خطأ السادة الذين بصحبتكم اليوم، لم يشرحوا لكم الأمر جيدا، وليس من واجبى التوضيح الآن. أطلب منكم أن تسدوا لى صنيعاً، لتخبروا دون فينشينسو انكونا أن منولارا تحييه وستتصل به قريباً، وألا يشغل نفسه بالاتصال بى، سأرسل اليه من يخبره بطلبى للمقابلة عندما أصبح مستعدة للحديث معه، وألا يقلق أنا سيدة أفى بوعدى، وسأظل كذلك. أوصيكم أن تبلغوه بتلك الرسالة فورا وأن تخبروه أيضاً أننى لم أشعر بالإهانة من هذة المقابلة معكم، ولم تغضبنى، فعلى أية حال، لن تتكرر مثل هذه المقابلات، وقد أخرتمونى عن الرجوع إلى البلدة. الآن ينبغى أن أذهب، لأن دون فينشينسو انكونا يعلم أننى «خادمة مطبخ» بمنزل الفاليبى. يعلم لأن الأمور كذلك، ولأنه يعلم كل شيء بالبلدة. ويعلم أيضا أننى أحب إدارة أملاك المحامى الفاليبي، ويجب أن أعود إلى الريف، هواء الريف يعجبنى كثيراً ويفيدنى جدًا. عندما سأحتاج مساعدة، لن أخجل من الاتصال به، هو يعلم أننى أحترمه. أتمنى لكم جميعا أعيادًا سعيدة وعيد ميلاد سعيد، والآن أفسحوا الطريق لأننى تأخرت.» كانت تتحدث مشيرة بيدها، وكانت قد رفعت يدها من فوقّ ساق دون باولينو ولكن عندما انتهت من حديثها، أسقطت يدها بقوة. وبصوت قوى وواثق، أمرت دون باولينو: «دون باولينو، فلنذهب والتفتت لتنظر إلى الطريق الضيق أمامها دون أن تنظر إلى الشخص الذى كانت توبخه، فقد أنهت المقابلة. أدار دون باولينو محرك السيارة وتقدم ببطء، كان الرجل الواقف أمام السيارة لايزال ساكنا، مصوباً البندقية نحوه. كانت يد منولارا تستحثه على التقدم فى السير. فكر دون باولينو أنه ربما قد حانت ساعته، وأنه سيلقى حتفه إما برصاص البندقية أو بالسقوط من المنحدر الجبلي، فقط يد منولارا الثقيلة مثل الحجر والتى كانت تضغط فوق فخذه، كانت تمنحه القوة للقيادة مثل الآلة. وبخطوات وئيدة، محتفظا بغطرسته، بدأ الرجل التنحى عن الطريق متحركا إلى جانب الجبل، وأفسح الطريق للسيارة والبندقية لاتزال مصوبة نحو دون باولينو.

وتحركت السيارة ببطء.

أطلت منولارا من النافذة وقالت:« تحياتى! أبلغوا الرسالة لدون فينشينسو انكونا، لا أريد أن أسبب لكم مشاكل، الموضوع لا يستحق.»

عصرت فخذ دون باولينو بيدها. أشعل أضواء السيارة، مثبتا قدمه فوق دواسة البنزين وانطلقت العربة مخلفة وراءها سحابة من الغبار.

أدرك عندئذ أنه يجلس فوق سائل بارد، فقد بال على نفسه.

عادا إلى البيت صامتين. عندما وصلا إلى بيت الفاليبى قالت له منولارا:« اصعد حضرتك إلى المطبخ، سأعطيك أحد بنطلونات المحامى وسأغسل بنطالك، أخبر زوجتك أن البنطلون تبقع بالزيت.»

أوصيك بألا تفتح فمك بأية كلمة لأى شخص.»

لم يحك دون باولينو أبدا ما حدث، ومنذ ذلك الوقت استطاعت منولارا إدارة الأراضى فى الريف بسهولة.

-١٦- بعد الجنازة، الطبيب ميندكو يقدم التعازي لسانتا ويتحدث مع موثق العقود انجيلو فاتسانو

قدم الطبيب ميندكو التعازي مرة أخرى إلى عائلةِ الفاليبى بعد انتهاء الجنازة. وبدا له من الواجب مواساة سانتا أيضا. حاول أن يعثر عليها بين الجمع، وجدها بجوار الكنيسة تحيط بها مجموعة من النساء، بأصواتهن الصاخبة، كن يحاولن مواساتها ويتبارين بكلمات العزاء المبالغ فيها.

كان الطبيب ينتظر بصبر انتهاءِ أحاديثهن ليصل إلى سانتا أو ليجعلها تلاحظه، وأثناء ذلك كان يسمع ما يقولونه.

كانت سانتا تعيش لحظة من لحظات مجدها، تتباهى بقدرات منولار فى الطهى والشئون المنزلية دون إغفال ذكر التقدير البالغ من منولار لها ولفضائلها. كانت النساء متعلقة بشفتيها، تنتظر بشغف كلماتها:

« علمتنى أشياء كثيرة فى المطبخ، على الرغم من أننى كنت أجيد الطهى بكل أنواعه: الحلوى بالبسكويت، والجيلاتي، واللحم المطبوخ، والسوبليه، وأيضا المارينج والبروفيتول...كانت تترك المطبخ نظيفا، لم تكن تطلب منى أبدا غسل أوان، و صوان لها، لم تتركنى أبدا آكل وحدي. كانت تعد المائدة للسيدة أدريانا وتخدمها بنفسها، مع أنها كانت تقيم فى بيتها، إلا أنها كانت تعاملها وكأنها سيدة البيت المالكة لكل ما فيه.»

كانت النسوة الصاخبات يقاطعنها باستمرار بتعليقات من الإعجاب والدهشة تغطى على كلمات سانتا، وقد ازدادت التعليقات عندما بدأت سانتا فى رواية التصرفات الأخيرة للبطلة.

«قبل وفاتها بأسبوع، أرادت صنع بسكويت باللوز وعجينة اللوز. كان لديها دقيق اللوز ولكن لم يعجبها، كانت تقول أنه يحتاج أيضا حبات اللوز المر، كانت خبيرة

بكل شيء. طلبت من السيدة كارميلا أن تشتريه لها، ثم ذهبت إلى المَطبخ لتحضير الحلوى. نهضت من سريرها لتحضير العجينة، كان يبدو عليها المرض والألم. أجهشت سانتا بالبكاء مرة اخرى، وقد غرقت فى كورال كلمات العزاء ومواساة النسوة: «يالها من امرأة» كانت قديسة«، كيف ستعيشون بدونها».

تشجعت سانتا وواصلت روايتها سأحكى لكم هذا، فقط لتفهمن كيف كانت تحترمنى وتقدرني. أعدت صينتين من البسكويت، ووضعتهما فى الفرن احترقت أحدهما، بينما الأخرى خرجت طيبة وهشة.

قالت لي: « إياك أن تأكلى البسكويت المحروق، لأنه أصبح مرًا، لا يؤكل لتأكلى أنت والسيدة أدريانا قطع البسكويت الذهبية لأنها حلوة الطعم.» أخذت البسكويت المحروق إلى غرفتها وأكلته وحدها فكانت لا تحب أن تلقى بشيء فى النفاية.«

انفرجت طاقة فى الدائرة ورأت سانتا الطبيب. ألقت بذراعيها حول عنقه ولم تتركه لفترة، كانت تفخر أمام أترابها أن الطبيب المعالج لمنولارا يعتبرها فردا من العائلة يتقبل العزاء.

كانت تلك اللمسة الأخيرة لإظهار الأهمية التى نسبتها لنفسها فى ذلك اليوم. وأخيراً وجد الطبيب الطريق للتخلص منها، وانصرف. وفى الطريق، اقترب موثق العقود فاتسيانو من الطبيب وقطعا جزءًا من الطريق معاً.

«كانت شخصية فريدة، كان لديها حدس فى الاستثمار كنت أحسدها عليه.. تخيل أنها نجحت فى تقليل خسائر تقسيم أراضى عائلة الفاليبى وأعطت للفقراء اراضى مليئة بالأحجار، والعوسج.

كانت تعرف أرضهم أفضل من أى حارس زراعى، صدقني أنا الخبير فى هذه المهنة على الرغم من شخصيتها الصعبة، إلا أنها كانت امرأة صالحة ومحبة لعائلة الفاليبى.» اختتم موثق العقود حديثه وصدّق الطبيب على كلامه.

سأله:« ميمو، أخبرني بشئ يثير فضولي، كنت الطبيب الخاص لها هل تركت وصية؟»

لست أدرى

«أسألك لأنها منذ فترة جعلتنى أقوم بإجراءات هبة بيتها للسيدة الفاليبى وظننت أنها ستكتب وصية، لكنها لم تفعل وأدهشنى هذا، كنت أعتقد أنها تثق بي.

كان يمكنها كتابة وصيتها، كانت تكتب بصعوبة، كنا نعلم ذلك جيدا ولكنها كانت تمتلك الكثير وكان لديها الكثير من الممتلكات.

لم يكن لديها، دخل معلن، فلا أحد يرغب فى دفع الضرائب، بيد أنها كانت دائما تجد النقود عندما تحتاج إليها، وكنت أتساءل دائما من أين تحصل على كل هذه الأموال.»

لم يكن أنجيلو فاتسيانو يعجب الطبيب منديكو وهذا السؤال أثار أعصابه: «ينبغى أن تعرفها أنت أفضل مني، أنا كنت فقط طبيبها، وبالنسبة للأموال لم أطلب منها أبدا أن تدفع لى.»

«ربما لم يتسن لها الوقت لترك الوصية، رغم كل شيء، كانت تبدو بصحة جيدة منذ أسابيع قليلة، يبدو لى أيضا أنها سافرت فى شهر أغسطس للإجازة ولم أكن أتوقع أن تموت هكذا بسرعة.. أنت ما رأيك؟» اضاف موثق العقود آملا فى الحصول على إجابة شافية من الطبيب، الذى أجابه بكلمة من مقطع واحد «حضرتك نعم. أنا لا.»

فهم موثق العقود أن ميمو لم يكن ليزيد فى كلامه، فتركه وانصرف.

عندما بقى الطبيب منديكو وحده، تأمل كلمات سانتا وتعليقات موثق العقود بالتأكيد منولار ماتت قبل الأوان.

كان قد شخص الورم فى مايو، ونصحها بإجراء بعض التحاليل واستشارة أخصائى إلا أنها رفضت وقد أخبرها أن ذلك الرفض الأحمق سيقصر أيامها وسألته فقط، إن كانت ستعيش إلى الخريف. فرد أنه من المحتمل أن تعيش إلى الخريف، وردت منولارا:« سيكون مناسباً لى الموت فى آخر سبتمبر.» إلا أنه فوجئ بالتدهور غير المتوقع فى حالتها فى الأسبوع الماضى وعلى الرغم من الآلام الشديدة بالمعدة إلا أنها رفضت دخول المستشفى لإجراء التحاليل وماتت فى نهاية سبتمبر كما قررت.

هز الطبيب منيدكو رأسه وقال بحزن بالغ: حان وقت التخلى عن ممارسة المهنة، لم أعد طبيباً جيداً، يجب أن أعترف بذلك.»

-١٧-دون جوفانينو بينسيمونيو يراقب المارة ويتذكر منولارا

شعر دون جوفانينو بإرهاق شديد، بعد الجنازة. توقف بالنادى ليستريح قليلا قبل مواصلة ارتقاء الطريق نحو البيت. كانت المقاعد موضوعة بالخارج، فوق الرصيف مرصوصة بمحاذاة السور الخارجي. سقط فوق أول مقعد بدلًا من البحث عن مقعده المفضل. كانت مقاعد «نادى الكونسرفاتسيونى» من القش تبدو ظاهرياً متشابهة، بيد أن كل عضو كان قد اختار له مقعدا، والويل لمن يستولى على مقعد الآخر، وقد حدثت مشاحنات كثيرة فى الماضى حول هذا الأمر.

كانت الشمس ساطعة فوق الأحجار بالطريق. كان الضوء يغشى الأبصار، فكانت عينا دون جوفانينو تجتهد فى البقاء مفتوحة، واستسلم للنعاس. أيقظته ثرثرة المارة فى الميدان. وبدلا من العودة إلى البيت كعادته طلب من النادل تحضير القهوة ليظل مستقيظا، وبدأ يشاهد المارة.

كان مبنى « نادى الكونسرفاتسيونى» متهدماً، وكان يتكون من صالة كبيرة على طراز القرن الثامن عشر، بالطابق الأرضى مؤثثة بمقاعد ومناضد صغيرة، وأربع غرف بالطابق الأول، أصبحت الآن مهجورة وممتلئة بأخشاب قطع أثاث قديمة، يقال إنها كانت تستخدم لتبادل أحاديث خاصة وفاحشة مع نساء دخلن إلى تلك الغرف خلسة. كان خادم عجوز يقوم بكل الأعمال الضرورية للنادي: فكان يقوم بالنظافة، وشراء المستلزمات وأحيانا بوظيفة السكرتير، والإدارى. كانت الطبقة البروجوازية الغنية للبلدة الآخذة فى التوسع تتردد على النادى حتى عام ١٨٦٠

وبعد ذلك انتقلت إلى نادى«أونيتا دى إيطاليا».

بدأ منذ ذلك تدهور«نادى الكونسرفاتسيونى». كان أعضاؤه ينتمون إلى الطبقة البورجوازية البسيطة بالبلده، والكثير منهم من أرباب المعاشات، وكان المبنى فى

حالة مزرية. وعلى الرغم من ذلك كان دون جوفانينو وبقية الأعضاء يتباهون بأن مقر النادى من أفضل الأماكن فى المقاطعة. بالفعل كان قد شيد فى مكان واسع من الميدان، فى الشارع الرئيسى لروكاكولومبا، بالقرب من الكنيسة الرئيسية، وأرقى المحلات بالبلدة، وأمام أيضا المقهى، الذى يتردد عليه علية القوم، كان بدون شك أفضل المواقع لمشاهدة الميدان.

مع انخفاض درجات الحرارة، كانت الناس تتدافع إلى الميدان لمشاهدة الاحتفالات الرسمية.نشاط اجتماعى طيب، وصحى وهام جدًا وقد مارسه أيضاً دون جوفانينو للبحث عن زوجة، وللبحث عن عمل، والمحافظة على العلاقات الاجتماعية، وليظهر للناس بناته اللواتى بلغن سن الزواج، ولقضاء الوقت. لاحظ دون جيوفانينو أنه على الرغم من التغيرات التى حدثت فى الفترة الأخيرة وظهور التليفزيون، إلا أن هناك الكثير من أهل البلدة يتنزهون فى الميدان، أغنياء وفقراء وكلهم متأنقون.

وكانت خادمات العائلات الغنية يتنزهن أيضا فى أيام آحاد، إلا أن منولارا لم تُر أبداً بينهم.

كان هناك العديد من الفتيات، كن الغالبية بين المارة. لاحظ أن كل أربع فتيات تتأبطن أذرع بعضهن البعض، كن يذهبن ويجئن أمامه. يثرثرن كلهن فى وقت واحد، , يضحكن ملء أشداقهن، وينظرن حولهن. ثم يسرن بتمهل أمام المقهى، مكان التقاء الذكور.

كان الرجال الجادون يتمشون قليلا وفى الغالب مع زوجاتهن االلواتى ترتدين الملابس الجميلة وتبدو عليهن الدعة بعد نوم القيلولة. أما الرجال فكانوا يفضلون، للتلاقى، والنظر إلى الفتيات والنساء، والرجال الذين يسيرون خلفهن. كان أوارتسيو الفاليبى واحدًا من هؤلاء، فكان يتنزه وحده فى الساحة متتبعاً أرداف النساء المتأرجحة.

عادت نفس المجموعة من الفتيات الصغيرات بالمرور أمام دون جوفانينو.

واحدة منهن كانت صغيرة الحجم وقبيحة، ألقت بنظرة نارية، لشاب كان مستندا بخفة إلى بلكون المقهى. كانت أعينهما تتلاقيان بشكل خاطف فى كل مرة تمر فيها الفتيات أمامه، ثم تدير الفتاة رأسها إلى الناحية الأخرى، وتواصل السير مبالغة فى هز خصرها. وقد شغل الأعضاء كل المقاعد المرصوصة بجوار السور صامتين متأهبين لملاحظة اهتزاز نهد أو حركة أرداف جميلة، كانوا يعرون بأعينهم النساء القليلات ذوات النهود الكبيرة اللاتى تجرؤن على ارتداء ملابس ضيقة بصحبة زوج، أو أب، أو أخ. اتجهت أفكاره للجسد الشاب اليافع لمنولارا. كان يحتفظ بصعوبة بعينيه مفتوحتين، فجفونه المرخية المجعدة تسقط فوق حدقة العين وتغشى بصره، كانت صور ومشاهد من الماضى تقفز أمام عينيه كما لو كان يشاهد فيلمًا سينمائيًا.

-١٨- دون جيوفانينو يتذكر

كان دون جيوفانينو مثمنًا أمينًا ومحترمًا للمحاصيل الزراعية. وكان عمله يجعله يطوف بالأراضى الزراعية ممتطياً حصانه، وكان يستطيع التباهى بالمعرفة الجيدة لكل أراضى المقاطعة. كان يترك البلدة من الفجر ويعود إليها فى المغيب. كان يرى أمام عينيه الطفلة الصغيرة ذات الأربع أو الخمس سنوات تسير بجوار أبيها فى الطريق الواسعِ فى ضوء الفجر الخافت مستقيمة الجسد، فخورة. كان لويجى اينسريللو رجلاً سيئُء الحظ فقيرا بعد أن فقد عمله فى المناجم بسبب مرضه وعلى الرغم من علمه بحال رئتيه اللتين دمرهما المرض فإنه عمل أجيراً بالحقول ليعول عائلته. كان يصطحب معه الابنة الصغيرة لأن زوجته كانت هى الأخرى مريضة. بينما كان الأب يكدح فى الأرض، كانت الطفلة تجمع الحلزونيات، الفاكهة، حبات القبار، قطع الخشب وكل ما تجده للأكل أو لإشعال النار. وعند العودة إلى البلدة كان لويجيى يجر أقدامه، وقد هده التعب، بينما تسير الطفلة بجواره مرفوعة الرأس على الرغم من جرابها المثقل بما جمعته، وأحيانا كانت تحمل أيضا فأس الأب. كان دون جوفانينو يحجم عن دعوتها للصعود فوق فرسه لأنه كان يخشى من وقوع الأب فى الطريق دون مساعدة ابنته.

بدأت تعمل فى سن السادسة فى فِرق قاطفات اللوز.

كانت أصغرهن سناً ولكن أكثرهن مهارة.

كانت تعمل بتركيز وبمهارة ومستعدة لسباق الأخريات والتعلم منهن.

لم تكن تفلت من بين أناملها الصغيرة حبة لوز أو زيتونة أو حبة فستق وكأن لبنان أصابعها عيون. كانت تعثر عليها بين قطع الطمى فى التربة الصلبة، بين الأحجار والنباتات الشوكية. حيثما مرت تلك الأنامل الصغيرة الرفيعة، لم تكن لتغادر حبة أو فاكهة سواء فى الأرض، أو فوق الأشجار، أو بين الأفنان.

كانت تتسلق الأشجار العالية دون خوف لتنزع حبات اللوز العالقة التى لم تقع تحت ضربات العصي. بعد موت أبيها، وهى لاتزال فى الثامنة من عمرها، كانت تعول أمها وأختها. لم يكن هناك عمل ترفض القيام به، أينما كان وبأى أجر، كان شرطها الوحيد العودة فى المساء إلى البلدة. كانت أصابعها تبدو كسيقان عنكبوت من شدة النحول، من العمل الدؤوب فى جمع اللوز، كأنما تنسج شبكة فوق الأرض. لذا أطلقوا عليها اسم «منولارا» الذى لم يفارقها أبدا. كانت تعمل بسعادة تقريبا. كان دون جوفانينو يتذكرها، راكعة، مستغرقة فى العمل، ولكن منتبهة لكل ما حولها: كانت تسمع من بعيد اقتراب فرسه وكانت أول من يحييه بصوت رنان:

«بارك الله فيك، دون جوفانينو.»

شاهدها تكبر وتصبح صبية متناسقة القد، نحيلة، بسبب الجوع الذى نشأت فيه، وجهها بيضاوي، وعيناها ذات الأهداب الطويلة، تشع منهما الحيوية، وابتسامتها الجميلة تكشف عن أسنان غير مستوية بارزة.

فكانت تغنى بصوت ساحر: عندما كانت الفتيات ترد بالغناء على أهازيج الأجراء، وكانت تغنى بكل أحاسيس وشغف فتاة شابة.

كانت تمزح مع الصبيان، فلم تكن تخجل من الرجال. وقد تعلمت لغة الذكور الفجة القوية، والتى كانت تستعملها بشراسة، إذا ارتكب أقرانها خطأ فى حقها أو شعرت بسوء معاملة، أو إجحاف.

كانت تعرف كيفية التصرف مع رؤسائها وعندما كان الملاحظ الزراعى، أو رئيسه العمال يسيئون التصرف معها، كانت تصمت، ويتكدر وجهها.

منذ صغرها كانت تشعر بعزة نفس، لا تتلاءم مع مكانتها الاجتماعية والاقتصادية، وكانت تنظر مباشرة إلى العيون، وتسأل دون خبث أو وقاحة وتنتظر الإجابة، وكانت بالفعل تتلقاها.

لم تذهب إلى المدرسة كانت تعرف أن واجبها إعالة عائلتها والإنفاق عليها. وخلال استراحة الغداء كانت تبتعد بنصيبها من الخبز والغموس، وتستقطع منه دائما جزءًا كبيرًا لتحمله إلى البيت. و تحتفظ فى جيبها بكسرات من الخبز الجاف، والفاكهة المجففة وقطع الجبن التى كانت تلتقطها من هنا وهناك، محتفظة بالطعام الأفضل للمريضتين اللتين تنتظرانها بالبيت.

وبعد انتهاء يوم العمل، إذا وجدت وقتا، كانت تعود وحدها إلى الحقل لتجمع الفاكهة والخضراوات التى تركها الفلاحون بعد جمع المحصول. كانت تضعها فى جرابها وتعود إلى البلدة لم تكن تخشى مخاطر الطريق أو مشقة السير الطويل.

عندما بلغت الثالثة عشرة تركت العمل بالحقول. يقال إنها أحبت أحدهم وانتهت القصة نهاية سيئة. لم يتحدث أحد عن تلك القصة لأن الشاب كان ينتمى إلى عائلة محترمة.

لم يسأل دون جوفانينو الذى كان بحكم عمله يرى كثيرًا ويتكلم قليلا، عن هذا الموضوع أبدا. كلما قلت المعرفة عن تلك الأشياء، كلما كان أفضل. وقد عرف بعد ذلك بوقت قصير أنها التحقت بالعمل لدى عائلة الفاليبي.

وقابلها بعد عشرين عاماً تقريباً. كان قد سمع أنها بعد موت والدة المحامى، تولت إدارة أملاك وأراضى عائلة الفاليبى. وقد استدعته لتقدير محصول اللوز. تقابلا فى البيت الريفى حيث كانت تتصرف كصاحبة الأملاك. لم تعد فتاة الماضى الجذابة، وإنما متحفظة، رجعية. كان دون جوفانينو قد ذهب إلى حقول اللوز ممتطيًا حصانه. كان مستغرقا فى أفكاره كعادته عندما يعمل، ولم يدرك أنها كانت تتبعه سيراً على الأقدام وعندما لحقت به، لم تتركه لحظة واحدة. كانت تتوقف عندما يقف لملاحظة ثمار شجرة أو تشذيب فروع، لم تكن نظرتها تغادر وجهه، و دون أن تنطق بكلمة واحدة. أحس دون جوفانينو بالضيق. عندما رجعا إلى البيت الريفي، دخلت منولارا إلى حجرة الإدارة وتركته ينتظر طويلا. ثم خرجت بعد

ذلك ممسكة بدفتر. استهل دون جوفانينو حديثه بالمقدمات المعتادة عن محصول السنة، الأمطار، ما حرث من الأرض وما ينبغى حرثه ليصل إلى اللحظة المرتقبة، لحظة تثمين المحصول. كانت منولارا تستمع إليه، وقد وقفت أمامه فى صمت. شعر دون جوفانينو بالحرج من صمتها، كان يسيل منه العرق باردًا.

لم يكن يفهم تصرف هذه الخادمة التى تأمر الآن. هل كانت تفعل ذلك لتظهر حسن الأدب، أم أنها تريد أن تلفت انتباهه أن الأمور انقلبت أو من يدرى أى خطة شيطانية كانت تدور برأسها.

كان واثقًا من شيىء واحد فقط، كان يتعجل العودة إلى البلدة.

حاول أن ينتهى من عمله بسرعة.

كان يوشك على النطق بتقديره النهائى، بسعر المحصول، عندما أوقفته، حيث مدت ذراعها اليمنى، وكف يدها المفتوحة نحوه، قائلة:

«قبل أى حديث، دون جوفانيو، اقرأوا من فضلكم التقدير الذى حسبته، إن كان يبدو لكم صحيحاً»، وناولته الدفتر. لا يزال دون جوفانينو يشعر بالرجفة، كلما تذكر تلك اللحظة، ماكتبته كان بالضبط الثمن الذي حدده.

ولدهشته أراد أن يعرف كيف استطاعت تحديد الثمن، ربما قرأت أفكاره؟ شرحت ببساطة الملاحظات التى جعلتها تصل إلى نفس النتيجة.

سألها معجباً:« كيف استطعت تعلم كل ذلك؟»

كانت إجابتها وجيزة:

«كنت أحب العمل فى الحقول؟ هل تتذكرون؟

يكاد دون جوفانينو يقسم أنه رأى الدمع يترقرق فى عينيه الغامقتين.

ومنذ ذلك الحين لم تعد خدماته مطلوبة ولم تحتج عائلة الفاليبى إلى مثمن فى أراضيها. كان دون جوفانيو يحدِّث نفسه:

«كانت مختلفة كثيراً عن كل الآخرين، من كانت تشبه؟ من أين ورثت ذلك العقل وهذا الحضور بالتأكيد، لم ترثه عن أبيها الذى لم يكن يتمتع بدرجة كبيرة من الذكاء ولم يكن يحب العمل، فمن؟»

وفجأة بدا له أن لمح شخصا بالكنيسة يشبه دون فينشينسو انكونا؟ انتفض للفكرة التى كانت تعبر ذهنه. تضايق وحدَّث نفسه: «بعض الأمور من الأفضل حتى عدم التفكير فيها.»

فتح عينيه جيداً، و اعتدل فوق المقعد وعاد لمشاهدة الميدان.

-١٩- فى البلدة، ليلة الجنازة

كانت روكاكولمبا تتحدث قبل الجنازة، عن قرار عائلة الفاليبى بإقامة الجنازة لخادمتهم. كانوا يتحدثون أيضاً عن المرحومة كما تقتضى الأصول، ولكن لم يكن هناك الكثير ليقال فضلا عما كان واضحا للجميع. كانت التعليقات عن حياتها الخاصة محدودة للغاية نظرا لأنها عملت دائما لدى نفس العائلة، ولم يعط ذلك الفرصة للنميمة اللاذعة، على الرغم من أن أحاديث العائلات التى كانت تتردد على عائلة الفاليبى لم تكن تخلو من التلميحات عن المغامرات العاطفية الراقية لاوراتسيو وكانوا يفترضون بسخرية، لا تخلو من شك، فى أن نزواته طالت أيضا الخادمة.

افتراض كان لا يلبث أن يستبعد، حيث كان من المعروف ولع أوارتسيو بالنساء المتزوجات الجميلات والمثقفات.

لم يخب ظن أثرياء روكاكولمبو القليلون، الذين أجهدوا أنفسهم بالذهاب إلى جنازة منولارا فى الثالثة ظهرا من يوم الثلاثاء ٢٤ سبتمبر، ليس لتقديم العزاء، ولا تقديراً لعائلة الفاليبى ولكن بدافع من الفضول لهذا الحدث غير المعتاد. فقد رأوا بأعينهم عدم الاكتراث من جانب أبناء الفاليبى لموت الخادمة التى تولت تربيتهم، كما ظهر من تاج الورود الصغير، والجنازة المتواضعة دون مسيرة يتيمات، أو موسيقى، حاولوا تثمين التاج الكبير الذى أرسله أبناء شقيقتها، وتعجبوا من عدم حضور أى منهم لجنازة خالتهم الوحيدة.

إلا إن كانت عائلة الفاليبى قد طلبت منهم صراحة عدم الحضور.

وهكذا اغتنم الحاضرون الفرصة لمشاهدة المشاركين فى تشييع الجنازة، وإعادة رواية الواقعة فى البيت والنادى والصالونات مضيفين اليها، بخبرة من شاهد الأحداث وعاصرها.

كم كان عدد الحاضرين فى كنيسة عذراء الآلام! بغض النظر عن الشيوعيين الذين امتنعوا جميعا عن حضور الجنازة، فقد شهدت الجنازة كل طبقات وأطياف المجتمع بل يقال أن دون فينشينسو انكونا ربما شرفها بالحضور. للأسف لم يشاهدوه وجهاً لوجه. وإن لاحظ وجوده القليلون، لكن شائعة حضوره انتشرت فى البلدة كلها، فضلا عن رؤية الأولاد الصغار الذين كانوا يلعبون الكرة أمام مدخل الكنيسة لسيارة ماركة جوليتا سوداء لامعة وصلت إلى الميدان الصغير بعد بداية القداس، وتوقفت بالضبط أمام الباب الرئيسى حيث نزل منها أربعة رجال بصحبة رجل عجوز سمين ضخم، دلفوا إلى الكنيسة ليخرجوا منها بعد ذلك بفترة قليلة بينما كان القسيس لا يزال يتلو القداس، واستقلوا السيارة التى انطلقت بسرعة كبيرة واختفت فى لمح البصر.

منذ ذلك اليوم، منذ ظهيرة الثلاثاء، بدأ الناس يتحدثون عن منولارا بحرص، واحترام، وإن كانوا قد سبروا غور حياتها فى أدق تفاصيلها، حيث لم يكن هناك الكثير ليقال.

كان الخوف الذى يثيره اسم انكونا فى روكاكولمبا، كبيراً لدرجة تجعل الجميع يخفضون أصواتهم عند الحديث، ولا يجرؤون على ذكر اسمه فى الأماكن العامة، أيضا فى المحال وفى ملتقى الميادين، من المعروف أن حتى لحوائط البيوت وللأحجار الطريق عيونًا وآذانًا، تنقل الكلام لمن يجب أن يعرفه، ومن الحكمة ألا يحدث ذلك.

كانوا يتعجبون مرة أخرى من نجاح منولارا الكبير، وارتقائها من خادمة إلى امرأة أعمال، فأدارت أملاك عائلة الفاليبى وأنقذتهم من الافلاس وسمحت للعائلة بأكملها أن تستمر فى حياة السادة، بينما قنعت بعمل الخادمة التى تتولى كل شئون المنزل. بالتأكيد اضطروا لقبول تصرفها كصاحبة الأملاك، وتدخلها فى شئون حياتهم، واحتمال استيلائها على بعض أموالهم، لكنها على الرغم من كل شيء كانت مخلصة للعائلة، واستضافت ببيتها أرملة المحامى وبذا رفعت عبء رعاية الأم عن كاهل الأبناء.

وكان الرأى العام حول منولارا أنها كانت امرأة جاهلة ولكن ذكية قادرة على التصرف، سيئة الطباع، ومتسلطة، كرست حياتها كلها لخدمة عائلة الفاليبي.

كان الأثرياء ينكرون عليهم سماحهم لها بالتدخل فى قرارات العائلة بشكل غير مسبوق، وغير مقبول للناس العاديين، ولكن أفراد عائلة الفاليبى كانوا مختلفين عن الأخرين أيضاً فى ذلك: فكانوا مستعدين لبيع أرواحهم للشيطان فى سبيل الحياة المريحة وراحة البال.

كان الفقراء ينكرون على منولارا انحيازها لجانب السادة على حساب أبناء طبقتها بما فيهم أبناء شقيقتها لتحصل فى النهاية على جنازة متواضعة لقاء ما فعلته معهم.

أما تقدير دون فينشينسو انكونا لها فيظل على أية حال من الأمور الغامضة التى ليس لها ما يبرزها، ولكنه أمر، يفضل الفقراء وأبناء الطبقة المتوسطة، بكل حكمة، عدم التوقف أمامه، وتجاوز التفكير فيه.

كان يمكن التحدث بحرية عن هذا الأمر فقط فى صالون البارونة تشفيليا، بحضور عدد قليل من الأصدقاء المقربين لإظهار مدى احتقار الطبقات الراقية للمافيا. كان بينهم أشخاص من كاتنيا، ضيوفاً جاءوا خصيصاً لحضور حفل الزواج المزمع إقامته قريبا فى بيت فاتسانو، كانوا يروون الحكايات عن الخيانات الزوجية لأوراتسيو، وغلظة ماسيمو ليوني، وغطرسة ليللا، وحياء جاني.

تحدثوا عن الوضع المالى لعائلة الفاليبى الذى سمح لخادمه أن تقوم بإدارة أملاكهم، وهم من أثروا فى القرن السابق لإدارتهم أملاك الأمير برولي. كانوا محظوظين لأن منولارا لم تضاههم فى الجشع واشترت من نقودهم فقط بيتًا متواضعًا لها. وهناك العديد من الحالات المماثلة لمن قاموا بإدارة أملاك وحققوا ثروات هائلة من وراء النبلاء والسادة الخاملين لذا كان ما حدث عادلًا بشكل ما، ومن المعتاد عند تدهور أحوال هذه العائلات أن تلقى نهاية مماثلة. ولكن لم يحدث أبدا إدارة الأملاك من قبل امرأة وخاصة خادمة.

كانت قصة عائلة الفاليبى غريبة ومثيرة للدهشة، بسبب علاقة التبعية التى ربطت السادة بالخادمة، وكانت غير منطقية لأنه على الرغم من تمرد الجيل الجديد من العائلة على استمرار هذه العلاقة المريضة، بيد أنهم فى الحقيقة استمروا فى اعتبار منولارا جزءًا من العائلة لدرجة إعلان نبأ وفاتها وتشييع جنازتها كما لو كانت واحدة من الأقارب المقربين.

من ناحية أخرى كان هناك سر ما فى حضور دون فيننشينسو للجنازة، وهو زعيم المافيا المعروف بالمقاطعة، ووالد شخصية مهمة تعيش خارج صقلية، رجل عصرى محترم يساند الحكومة. كان حضوره مثيرًا للدهشة والقلق وجديرًا بالتأمل. وبعد مناقشات حامية، بقيت نظريتان كلتاهما جريئة وغير مقنعة: الأولى أن دون فيننشينسو هو والد منولارا الحقيقى الذى ورثت عنه الدهاء، أو أنه عشيقها السرى فى شبابها. وبذا أصبح دون فنيشنيسو انكونا، رجل المافيا، الذى قتل بوحشية دفاعا عن المافيا، بل قتل أيضا زوج شقيقته لأنه تحدث أكثر من اللازم، والأب لأربعة أولاد، والكاثوليكى الملتزم، شخص يتبع نزواته، وربما رومانسي، ضحية للمشاعر.

وفى بوابه بناية تشفاليا، كانوا يتحدثون فقط عن الجنازة. لم يبلغ اى منهم سذاجة ووقاحة السادة، وتجرأ على التفكير فى أن نوروتسا انسيريللو، أو ابنتها كانتا عشيقتين لدون فنيشنيسو انكونا. واهتدت الحكمة الشعبية إلى افتراضين: الأول أن منولارا تنتمى إلى المافيا وهو من الأشياء الاستثنائية نظرا لأنها أنثى وفقيرة أو أنها قدمت لدون فنيشنيسو خدمة كبيرة، استحقت بها ذلك التقدير بعد موتها. فى كل الأحوال سرى بين الحاضرين التبجيل لمنولارا، وإن أراد دون ميليتيللو توضيح أن الراحلة على كل حال كانت شخصية، كريهة، لم تثق بأحد وأنها انتقلت إلى صفوف السادة بعد أن دهست بأقدامها أبناء طبقتها.

-٢٠- الاربعاء ٢٥ سبتمبر ١٩٦٣

لا يزالون يتحدثون عن منولارا على خلاف التوقعات، جاسبرى ريسيكو يسيء معاملة كارميلا انتقاماً من عجرفة منولارا.

فى صبيحة يوم الأربعاء الخامس والعشرين من سبتمبر، تكررت أحاديث النميمة على سمع القليلين الذين لم يعرفوا بها بعد، وقد أضافوا إلى الروايات، وزينوها بعد ليلة من النوم الهادئ، وإن كانوا يتحدثون بحرص دائمًا.

اتفق جميع أهالى بلدة روكا كولمبا سواء ممن يسكنون الطبقات العليا، أو البوابين على أنه لم يعد هناك ما يمكن مناقشته، أو نقده، أو كشفه حول منولارا والفاليبي، وقد سئموا الحديث فى هذا الموضوع، الذى قتل بحثا، وقدر له أن ينتهى تماما من اليوم التالي. كان من المتوقع أن يشغل خبر حفل الزفاف القريب لابنة موثق العقود الثرى فاتسانو حيز النميمة الذى يستحقه، إلا أن ذلك لم يحدث.

كانت كارميلا قد قبلت بقلب واجف قرار أهلها بأن تذهب إلى مكتب البريد لاستلام الخطاب المرسل إلى منولارا، حيث إنها الوحيدة من العائلة التى لا تزال تعيش ببلدة روكا كولمبا، لذا فهى شخصية معروفة ومحترمة.

وقد ناقشت مع الزوج حتى ساعة متأخرة من الليل، أدق التفاصيل فيما يتعلق بهذه المهمة: ماذا ارتدى؟ وإذا اتهمونى بمخالفة القانون، لأنه ليس قانونياً استلام خطاب خاص بشخص لا يمت لك بصلة قرابة، علاوة على أنها ميتة، ماذا أفعل؟

هل أذهب مع صديقة؟

فكرت فى أن تذهب إلى مكتب البريد فى الظهيرة مرتدية ثيابًا أنيقة وأن تشرح إلى الموظف أنها فكرت فى المرور لاستلام خطابات لأمها السيدة الفاليبى والتى تصل باسم خادمتها الأمينة كى تتمكن من استلامها.

كانت كارميلا تشعر بالقلق وبأنها مراقبة أثناء ذهابها إلى مكتب البريد. كانت

ساقاها ترتجفان، ليس من جراء الكعب العالي، وخطوتها غير الثابتة فوق الطريق المرصوف بالحجارة، كان العرق يسيل من كل جسدها، وتشعر باليأس. نجحت فى السيطرة على مشاعرها بإظهار الغطرسة الموروثة عن عائلتها، وأخيراً وصلت إلى مكتب البريد.

كانوا قد ظنوا أن معرفة موظف شباك البريد بموت منولارا، ستكون من الأمور الحتمية.

إلا إنها وجدت موظفة جديدة.

نسيت كارميلا الكلام الذى حفظته تقريباً وفعلت عكس ما كان ينبغى عمله. سألت بصوت متردد إن كانت هناك خطابات باسم الآنسة ماريا روزاليا اينسيرللو. سيدة أنيقة مثلها ترتدى الحلى من الواضح أنها متزوجة، ولن تكون بالطبع الآنسة اينسريللو.

أدركت الموظفة ذلك فوراً وسألتها دون أن تراودها أية شكوك إن كانت تود استلام خطابات بالنيابة عن الغير.

لم يكن، ذلك السؤال مقدمة للرفض من قبل الموظفة، فقد كان من المعتاد أن يذهب أشخاص لمكتب البريد لاستلام خطابات مرسلة إلى أبناء عمومة، أو آباء، أو أبناء، وأعمام دون أى توكيل رسمى منهم فقط استنادا إلى كلمتهم.

تلعثمت كارميلا، ولم تنجح فى الرد على ذلك السؤال البسيط. استعادت بشكل عفوى كبريائها العائلي، ردت بعنف ينبيء بتطور الأمر إلى مشاجرة، ارتفع صوتها بالصياح والتهديد للموظفة المسكينة التى ظنت أنها تسببت فى رد فعل العميلة على هذا النحو.

اتهمتها كارميلا بالوقاحة، وأنها لا تعرف من هي، ابنة المحامى أوراتسيو الفاليبي. أمرتها بتسليمها كل مراسلات اينسريللو فورا، دون إهدار وقتها، لأنها لديها ما تفعله بدلا من الانتظار على شباك البريد وخاصة أنها تسببت فى خلق طابور من العملاء.

وردت على سؤال الموظفة عما إذا كانت قريبة لاينسريللو بأن منولارا كانت خادمة لدى عائلة الفاليبى وأنه يحق لها السؤال عن كل البريد العادى والمسجل، والحجوز بالبريد لأن كل مراسلات منوللارا فى الواقع تخص عائلة الفاليبى وكان يجب على الموظفة إدراك ذلك.

وفى حالة تقاعسها عن تسليم الخطابات، فإنها كارميلا الفاليبى حرم ليونى ستتقدم فى حقها بشكوى إلى مدير المكتب الذى تعرفه شخصياً.

قررت كارميلا أن تحكى الحقيقة، أمام رفض الموظفة القاطع بتسليم الخطابات.

فقد جاءت بناء على طلب من عائلتها. والدتها السيدة أدريانا الفاليبى كانت تعيش مع خادمتها انيسيرللو ببيت الخادمة، التى توفيت منذ يومين بمرض السرطان. والسيدة أدريانا تشعر بالحزن الشديد لفقدها، وليست فى حالة تسمح لها بالذهاب إلى مكتب البريد لاستلام المراسلات التى تصل باسم انسيريللو بينما فى حقيقة الأمر تخص عائلة الفاليبي.

كان التفسير بسيطًا وكان عليها العودة إلى والدتها بالمراسلات فى الصباح.

لم تأت حكاية كارميلا بالنتيجة المطلوبة، فلم تصدق الموظفة روايتها الحقيقية، وازدادت شكوكها وجعلتها تتشدد أكثر وتتمسك بموقفها الأول بل إنها رفضت أن تخبرها عن وجود خطابات باسم الآنسة الراحلة.

كانت كارميلا تزداد إصراراً، وتكرر نفس الكلمات، وفى النهاية طلبت من الموظفة بنبرة هيسترية أن تخبرها عما إذا كانت هناك على الأقل خطابات محجوزة بالبريد باسم اينسريللو، مهددة بأنها لن تتحرك من أمام الشباك إلا بعد حصولها على هذه المعلومة.

طلبت منها الموظفة الانصراف لأن هناك زحاماً من عملاء آخرين ينتظرون دورهم.

عندئذ بدأت كارميلا فى توجيه عبارات التهديد للموظفة، مؤكدة هذه المرة أنه لايهم إن كانت انسيريللو مريضة أو بخير، حية أو ميتة، هناك مسائل عائلية ينبغى

حلها فوراً، لذا يجب أن تخبرها فورا عن وجود مراسلات لاينسريللو وإلا ستحدث مصائب للجميع. أسقط فى يد الموظفة حديثة التعيين، ولم تدر ماذا تفعل.

استدعت زميلة لها لمساعدتها. احتقن وجه كارميلا، وتصلب جسدها وكانت كمن أصيب بالشلل، لم يكن لديها أية نية للانصراف وثبتت فى مكانها أمام الشباك. كان الموظفون والعملاء يستمعون إليها بتعجب وضيق من تعطيل الخدمة، وأيضاً بنوع من الفضول والشعور بالتسلية. ومن كان يعرفها تمتع بالمشهد وكان يستمع إليها بنهم.

قرر موظفو مكتب البريد أن الحل الوحيد هو اصطحاب العميلة إلى الزميل الطيب الذى اختار أن يعمل بمكتب شكاوى الجمهور، السيد ريسيكو، وهكذا فعلوا. تطلب الأمر تدخل اثنتين من الموظفات لإقناع كارميلا بالابتعاد عن الشباك، أحاطتا بها، و أمسكتا بذراعيها وهى لا تزال فى حالة هياج وأدخلنها إلى المكتب.

دعاها جاسبرى للجلوس بالمقعد المقابل لمكتبه وقد سألها بنبرة فى غاية اللطف والأدب:

أية خدمة ياسيدتي؟»

تسللت الموظفتان غامزتين بأعين يقظة وهما تضحكان، كانتا تقدران أسلوب ريسيكو، الزميل الشهم، الفطن، فضلا عن وسامته. وأثناء ذلك، أمسك جاسبرى بورقة وقلم وكتب تاريخ اليوم بعناية.

كانت كارميلا تجلس أمامه وقد باعدت ظهرها عن مسند المقعد، واثنت ساقيها بعصبية، مستعدة لتهب واقفه فى أية لحظة. أخيراً صمتت.

سألها ريسيكو بصوت عذب عن بياناتها لتحرير محضر الشكوى. أزعج هذا التصرف كارميلا الذى أمرته بعجرفة ألا يكتب شيئاً، استمع إليها بهدوء وأدب، حيث إنها ابنة المحامى اورتنسيو الفاليبى كانت تود فقط استلام مراسلات الخادمة وأضافت أنها تعرف مدير مكتب البريد جيدًا وتتوقع أن يتم حل المسألة بسرعة لمصلحة الجميع بمن فيهم السيد ريسيكو.

عندما سمع اسم الفاليبي، لم يصدق ريسيكو هذه الصدفة، فقبل ذلك بدقائق كان مستغرقا فى قراءة جريدة «لاسيشيليا»، وتضايق عندما اقتادت الزميلتان إليه تلك الحمقاء فى غرفته. الآن يشعر بتحقق أمنيته فى تلقين درس لواحدة من عائلة الفاليبى التى وقعت الآن بين براثنه.

كان ريسيكو يمتلك قدرة فطرية على جعل الآخرين يتحدثون بحرية، بكل ما فى جعبتهم، ليهاجمهم فى الوقت الذى يشعرون فيه بالاطمئنان الكامل، ويقودهم بذلك إلى الإقرار بصحة ما يقوله، ويشكرونه على حسن معاملته على الرغم من إخفاقهم فى تقديم شكواهم.

كان ينجح فى حل معظم المشكلات والشكاوى ويعطى للعملاء الانطباع بأن هناك من يأخذ شكاواهم بجدية ويشكرهم على مساهمتهم فى تحسين خدمات مكتب البريد الحكومي. ولم تكن تضره بالطبع جاذبيته.

قرر ريسيكو التظاهر بعدم معرفة أمور عائلة الفاليبي. ترك كارميلا تحكى له ماحدث بشباك البريد متفقاً معها على أن عملاء مكاتب الخدمات الحكومية يجب أن يعاملوا بكل احترام.

استطاع أن يصل إلى ما يريد الوصول إليه، بتوجيه أسئلة بسيطة مشجعة، مستخدماً لغة الإشارة، بسط كفى يديه وثبتهما نحوها، شفتاه مفتوحتان بالكاد عن نصف ابتسامة. كانت المسكينة تكشف له شيئاً، فشيئاً عن السبب الحقيقى وراء سؤالها عن مراسلات أنسيريللو. كان ريسيكو ينظر مباشرة إلى عينيها ليرخى جفنيه، متألما أمام الاتهامات الموجهة إلى الزميلة، ويهز رأسه مصدّقا على حديثها، ويحثها باحترام على الاستمرار فى الحديث. أخيرا أقرت البائسة أنهم كانوا ينتظرون خطابات هامة باسم منولارا وأن هذه الخطابات فى الغالب تحوى أموالا، وأنها كانت مستعدة لتزوير توقيع اينسريللو لتتمكن من استلامها فورا. أضافت كارميلا أنه إن ساعدها ستقدر تصرفه وتذكره بخير عند مديره.

كان صمت جاسبرى يشجعها على الاستمرار فى الحديث إلا أنها كانت قد تحدثت بشكل كاف. ابتهجت فى صمت، وحدثت نفسها« كان يلزم وجودك»! واستقامت

فوق المقعد. بينما كان يشير اليها بالقلم، وكأنه رمح، عنّفها بشدة، واتهمها بالسرقة، وانتحال شخصية أخرى، وتزوير توقيع، ونصب، وشهادة زور، وتزوير بيانات شخصية خاصة بأشخاص آخرين أمام موظف حكومي، وتهديد ومحاولة رشوة لمخالفة واجبات العمل. فضلا عن أنها جرؤت على شكاية موظفة الشباك التى لم تشكك فى روايتها، وخطتها لإحكام محاولة النصب والإضرار بمصالح الورثة الشرعيين للراحلة انسيريلو.

ثم نهض بإباء، وأعلمها بوقار أنه سيحرر مذكرة ويرسلها إلى المدير لسببين سيشرحهما لها بالتفصيل.

وعند ذلك توقف ليشاهد رد فعل كارميلا، التى وجمت. كانت تشق وجهها المنتفخ قطرات ضخمة من الدموع.

جلس ريسيكو من جديد، ليسرد أمامها السببين. وقال وهو يهز إبهامه نحوها:

«الأول أننى أتقاضى راتبى من الدولة لخدمة الجمهور، وسيادتك حضرت إلى المكتب لتقديم شكوى لعدم رضائك عن الخدمة التى نقدمها، من حقك أن آخذ شكواك على محمل الجد.

الثاني: أن حضرتك أخبرتنى عن علاقة صداقة تربطك بمديرنا. وذكر هذه المعلومة بالتأكيد له مبرر، وليس لاتهام المدير بالرشوة أو الإهمال لأنه شخص أمين ومحترم. ربما إذن لتهديدى وفى هذه الحالة يجب أن ألجأ إلى المدير لاتخاذ القرار النهائي:

لو حضرتك محقة فى طلبك، ونحن من يرفض إعطاء معلومات وتسليم مراسلات يحق لك استلامها، أم أن حضرتك لصة أو محتالة تحاول الحصول على ما يخص الراحلة ماريا روزاليا انيسيريللو.

فى رأيى ليس لك أى حق فى استلام بريد يخص مواطناً آخر دون توكيل أو تفويض كما ينص القانون، ولائحة مكتب البريد، ونفس الأمر ينطبق على معلومات خاصة بمواطن متوفٍ.»

تغير الوجه الجميل لكارميلا بشكل مخيف:همدت غرة شعرها.. التصقت خصلاتها الشقراء بجبهتها الغارقة فى العرق بشكل سيىء، كان ظل الجفون يتساقط فوق وجنتيها، وكان أحمر الشفاه الذى أطبقت عليه شفتيها بقوة كى لا تنفجر فى البكاء، يسيل مكوناً هالة حول فمها.

كانت كارميلا فى لحظة الخطر الداهم تتشبث بكبريائها: حبست دموعها ورجت ريسيكو أن يتركها تنصرف، فهى لم تحسن شرح الأمر، وليس كما فهم منها، أسهبت فى الحديث لأنها حزينة جدًا لموت منولارا. ومع عبارة:

«اعتبر أننا لم نتقابل أبداً، وإن كنت أجدك انسانًا مهذبًا جدًا وأتمنى مقابلتك فى ظروف أخرى.» حاولت رسم ابتسامة مصطنعة جذابة على شفتيها المنتفختين بدون أحمر الشفاه.

رد جاسبرى بقسوه، الرد الذى كرره بفخر أمام زوجته تلك الليلة: سيدتي، سيادتك تمثلين الشعب الإيطالى الذى يعانى من تسلط هيئات الدولة التى خلقت فقط لخدمة المواطنين وقد قدمت شكوى مستخدمة حقك كمواطن وسيتم تحقيق العدالة وأنتوى القيام بواجبي».

بعد هذا القول، جمع ما كتبه من ملاحظات وباحترام شديد استأذنها:« اسمحى لى.»

وانصرف تاركاً كارميلا عاجزة عن الكلام. ولكن ليس لفترة طويلة.

-٢١- ماسيمو ليوني، يعاقب زوجته على حماقتها

يحكى أنه فى ذلك الأربعاء بمكتب بريد روكاكولمبا، اضطروا لاستدعاء الموظفة الحاصلة على شهادة فى الإسعاف والمساعدة الطبية، لتهدئة كارميلا ليونى التى أصيبت بنوبة هيستريا حقيقية إلا أنها لم تنجح. لذا قام نائب مدير مكتب البريد الذى تم استدعائه بالاتصال بالزوج ماسيمو ليوني، ليصطحب زوجته خارج مكتب البريد.

ويبدو أن ماسيمو كان ينتظر تلك المكالمة، وصل بالسيارة التى أوقفها أمام المدخل الرئيسى للمبنى، ودلف فوراً للداخل سائرا وراء الموظفين الذين كانوا ينتظرونه بفارغ الصبر. وبمجرد أن رأى كارميلا، أمسك بذراعيها وضغطهما خلف ظهرها بقبضته ثم أجبرها على النهوض من المقعد الذى التصقت به.

أجبر ماسيمو زوجته على السير بدفعها للأمام فى ردهات المكتب ممسكاً بذراعيها اللذين قيدهما خلف ظهرها، وقد ضغط عليهما بقوة حمّرت لحمها فى لمحة بصر.

كان ماسيمو يدفعها من الخلف بركبته، وجسدها ينتفض وتجهش بالبكاء إلى أن وصلا إلى صالة المكتب وخرجا من المدخل الرئيسي. وكانت الكلمات الوحيدة التى وجهها ماسيمو لزوجته على حد قول (جمع الموظفين) والمارة المجتمعين حولهم «امش! إلى الأمام! كما لو كان يسوق حماراً»

دفعها أمام الجميع داخل السيارة الرياضية الجميلة، وبمجرد أن جلست اندفعت إلى الأمام وخرج من فمها نهر من القىء الأصفر. كان جرس التليفون يرن، عندما فتح ماسيمو باب شقتهما. كان يمسك بكارميلا من ذراعها تحت إبطها، أحكم قبضته حولها حينما رفع سماعة التليفون، كانت ليللا قلقة، تنتظر معرفة ما حدث بمكتب البريد فى الصباح.

أخبرها ماسيمو أنه لم يكن هناك أية رسائل وأن كارميلا تعانى صداعاً نصفياً وعلى وشك الخلود للنوم. أشار بالانصراف إلى الخادمة ميما التى كانت قد سارعت إلى التليفون، عند

سماع الجرس، ثم دفع كارميلا داخل غرفة النوم ووارب الباب. انهال عليها فى صمت ركلاً ولكمًا فوق فخذيها، وصدرها، وظهرها، لن يرى أحد زرقة الجسم فى تلك الاجزاء، كان يعرف جيدًا كيف يضربها. لم يكن هناك داع لغلق باب الغرفة. فالخادمة ميما لم تكن لتسمع صراخًا أو نحيبًا، فقط أنفاس ماسيمو المتلاحقة ووقع الضربات فوق جسد كارميلا التى سقطت مغشيا عليها فوق السجادة. غسل ماسيمو يديه وصفف شعره ثم جلس إلى المائدة. حيث قدمت الخادمة ميما له الطعام، ميما الخادمة ببيت ليونى بالتأكيد لن تحكى لأحد ما حدث. بعد الغداء، خرج دون أن يمر بحجرة النوم، لم يشأ أن يأخذ السيارة، لقد كان بحاجة للتنفيس عن غضبه بالمشى. كان يشعر بالاستياء الشديد لتصرف زوجته فلم تلوث فقط السيارة الجديدة من الداخل ولكنها أيضا تصرفت بشكل قد يسبب فضيحة فى البلدة، ومن يدرى أية مصائب أخرى. كان يشعر بندم شديد على زواجه منها.

تزوجها تحدياً لمعارضة عائلتها للزواج، بقيادة منولارا، وليس طمعًا فى دوطة كبيرة كما كان يشاع فى البلدة، والآن يندم على زواجه من تلك المرأة التى لا تصلح لشيء. استمر فى السير بخطوات واسعة فى طرقات البلدة الخاوية ثم راودته رغبة البقاء وحيداً فى الهواء الطلق بين الحقول.

حافظ على خطواته الثابتة وقطرات العرق تتساقط منه تحت وهج شمس الخريف الساطعة. دون أن يدرى وجد نفسه فى طريق المقابر، نفس الطريق الذى سلكه بخطوات وئيدة فى اليوم السابق وراء جثمان منولارا شعر برغبة لا تقاوم فى الدخول وتحطيم الجدث الذى بنته تلك المرأة بالضبط أمام كنيسة العائلة. كان باب المقابر مغلقاً. وظلت يداه ملتفتين حول الحديد المطروق تحت وهج الشمس. كان الغضب يختلط بالعطش، شعر بالتعب وقرر أن يعود إلى البلدة.

وفى طريق العودة، لاحظ أن نوافذ بيت الدعارة مفتوحة، دخل وبقى إلى ما بعد الظهر، خرج منهكاً ولكن دون إحساس الترف المعتاد، فسألته القوادة إن كانت الأجنبية قد نالت إعجابه، وبعد أن أخذت النقود، قدمت له على استحياء العزاء فى وفاة منولارا.

لعن ماسيمو وأضاف: «ربما كانت تقيم علاقات جنسية مع رجال المافيا، لقد فضحت بعد موتها.»

-٢٢- الأب ارينا يقوم بزيارة التعزية للسيدة الفاليبى ويوبخ ليللا على اقتراحاتها غير المهذبة.

كان الأب أرينا يُكن مودة للسيدة الفاليبى. كانت قد تحملت بكبرياء صامت خيانات المحامى اوراتسيو، الذى ورث شهوانية والده ولكن بدلاً من مخالطة العاهرات، كان يفضل إغواء سيدات من عائلات طيبة ومعروفة بالبلدة والمقاطعة. ظلت زوجة وفية صابرة بخلاف حماتها التى كانت تحتقر زوجها علناً وأفرغت رغباتها القليلة فى التسلية المتاحة لسيدة من طبقتها فى زيارات الصديقات، ولعب الورق وكانت سعيدة بترك العناية بالبيت لمنولارا التى خدمتها بنفس الإخلاص والتفانى الذى خدمت بهما حماتها.

لم تكن تؤذى أحدًا كما لم تقم بأى عمل طيب. كان يقال عنها فقط إنها تنفق ببذخ على شراء الملابس: وهذه خطيئة صغيرة فى نظر الأب ارينا، فضلاً عن أنها أثناء شبابها متّعت بجمالها رجالاً كثيرين، وهو واحد منهم دون أن تقودهم إلى الخطيئة. كانت على أية حال، سيدة محترمة مثل سيدات أخريات وقد كشفت عن أنها غير تقليدية بشكل أدهش الجميع، عندما أقدمت لمرة واحدة على القيام بتصرف غير معتاد بالنسبة لسيدة مثلها، عندما تركت بيت عائلة الفاليبى بعد موت الزوج لتقيم ببيت منولارا.

فى ساعة مبكرة، كما يليق بقسيس يؤدى واجب العزاء، دق الأب أرينا جرس الباب الكبير لمنزل الفاليبى. حتى وقت قريب إلى وفاة أوراتسيو، كان هناك دائماً أحد ببوابة البيت.

انتابت الأب ارينا هواجس حزينة حول مستقبل السيدة أدريانا بعد ترملها للمرة الثانية، وكان يأمل ألا يكون الأمر عسيراً بالنسبة لها وأن تستطيع التكيف مع الحياة وحيدة فى ذلك البيت الواسع الحزين وألا يتركها الأبناء وأن يعتنوا بها.

كانت ليللا قد فتحت له البوابة واعتذرت عن تأخرها واصطحبته إلى الطابق العلوي. كانت درجات سلم من الحجر الأحمر تؤدى إلى بسطة سلم تضيئه كوة من الزجاج متعدد الألوان تطل على الفناء الداخلي، وبسطة أخرى كانت تصل إلى الطابق العلوى حيث يقع بابان من خشب الجوز الخالص: الأول كان المدخل الرئيسى للبيت والآخر كانت تفضى إلى مكتب المحامي، ثلاث غرف واسعة مفروشة فرشاً جميلاً كما يليق بمن يدير أملاك الأمراء بريولي. كانت ليللا تسبق القسيس أثناء صعود السلم ووقفت أمام النافذة الزجاجية لتنتظره. كانت أشعة الشمس تتخلل الزجاج وتضيء شعرها الفاتح: كانت تشبه أمها كثيراً فى شبابها، وطابت نفس الأب ارينا كثيراً عند ذكرى أدريانا الجميلة اللطيفة وتذكرها عندما كانت عروسة شابة.

قالت له ليللا:

«أبتاه، أريد أن أتحدث مع سيادتك دقيقة على انفراد، أعلم أنك كنت تقابل منولارا كثيراً فى الشهور الأخيرة. كما تعلم أعطى أبى لمنولارا حرية كبيرة فى التصرف وفى النهاية كانت تدير كل أملاكنا. وعند موت أبى لم يتم توزيع كل الميراث علينا واحترامًا لرغبة أمى التى كانت تحب منولارا وتضعف تجاهها، سكتنا عن ذلك.»

كان الأب أرينا ينظر إليها وأمام نبرة صوتها الحاد الواثق، أدرك أنها تشبه أمها فقط فى الشكل. وأثناء ذلك كان يحاول أن يفهم ماذا تريد منه؟ القسيس المسكين.

أضافت ليللا وقد كشفت أخيراً عن نواياها:

«ينبغى أن أعود سريعاً إلى روما، لذا أحاول أن أعرف دون إبطاء ماذا فعلت بثروتنا وأين خبأتها. أعتقد أن لدى سيادتك بعض المعلومات، فقد كنت تكتب لها الخطابات فى الماضى وظللت دائماً أباها الروحي.

ظل الأب أرينا واقفاً ينظر إليها وقد شعر بالإهانة من طلبها غير المتوقع. لاحظت ليللا ضيقه وأدركت أنها أخطأت وصححت كلامها:«من المؤكد أنه إذا حظينا بمساعدتكم، سنحفظ لكم هذا الجميل وعندما تتحسن الأمور أضمن لكم شخصياً أننا سنعبر عن امتناننا عملياً، ثم أضافت مترددة أمام صمت القسيس الطويل: «سيكون مبلغًا كبيرًا يمكن أن يساعد، وحضرتك الآن فى المعاش».

رد الأب أرينا بغضب متلعثماً وبلغة إيطالية أنيقة:

« حضرتك تعيشين منذ سنوات طويلة بالخارج، وربما قد نسيت أشياء كثيرة، ولكن من المستحيل نسيان أن قسيساً لا يمكنه أبداً أن يخون أسرار الاعتراف فى كل العالم الكاثوليكى. لقد شرفتنى منولارا بصداقتها وكان معروفاً للجميع أننى كنت أكتب لها الخطابات. وقد جهزت لها مسودة ما تركته لكم وأعلمت أبناء شقيقتها بوفاتها وأستطيع أن أعطيك عناوينهم إن أردت، ليس لدى ما أقوله لك. وبالنسبة لعرض الأموال، إن كنت قد فهمت جيداً، فانى أشكرك ولكنى لست فى تلك الحالة من العوز التى تجعلنى أبيع كرامتى ومبادئي. وبالنسبة لك، يجب أن تخجلى من تصرفك الذى لا يليق بسيدة تنتمى إلى عائلة الفاليبى.» أشاح بنظره بعيدًا عنها واستمر فى ارتقاء السلم قائلاً: « الآن لنصعد، قد جئت لزيارة والدتك».

استقبلت السيدة الفاليبى الأب ارينا بالترحيب المعهود وشكرته لأنه ظل بجوار منولارا فى أيامها الأخيرة. وتبادلا ذكريات الماضي. كانت السيدة تتذكر: « كانت عنيدة، يا أبت، هل تذكر كم مرة شجعتها سيادتك على الكتابة ولكنها لم تشأ أبداً التعلم رغم أن حماتى كانت تذكر أنها كانت تعرف القراءة والكتابة ثم اتجهت إلى ليللا وأضافت:«ربما لا تعلمين ولكن الجدة أرادت لها التعلم فبعد موت والدتها، عانت منولارا كثيرًا ولم تعد تتحدث. ففكرت الجدة أنها ربما تجد سلوى فى قراءة الصلوات وأرادت أن يعلمها الأب ارينا القراءة والكتابة».

أضاف الأب أرينا وقد حمسته الذكرى: « كنت قسيساً شابا وكانت السيدة ليللا تغمرنى بعطفها. كنت آتى إلى البيت لإقامة قداس يوم الجمعة، وأستمع إلى اعترافات أهل المنزل وأبقى لتناول الغداء، وفى الظهيرة كنت أعطى دروساً لمنولارا، كانت تتعلم بسرعة وكانت تقرأ جيداً، ولكنها لم تكن تعرف اللغة الإيطالية، وقد أهديتها قاموساً إيطالي - صقلي، فتح لها عالم الأدب، لا أعتقد أنها كانت تقرأ الكتب الدينية بل أظن أنها لم تقرأها أبدا ولكنها قرأت الكثير من الكتب الأخرى».

وكان المحامى اوراتسيو قد سمح لها باستخدام مكتبته، وكانت بعد استئذان المحامى تعيرنى كتبًا من الأدب الحديث؛ فكافأتنى على ما قمت به من دروس قليلة منذ سنين مضت.»

وعند ذلك، عرضت أدريانا الفاليبى فى نوبة سخاء مفاجئ على الأب أرينا عرضاً، قبله بترحاب:

« هل تسمح سيادتك لى بإهدائك بعض الكتب، فهناك الكثير منها التى لا يقرأها أحد، فلتختار ما يحلو لك منها، كنت أود إعطاءها لك بعد موت اوراتسيو، ولكن خشيت أن يسوء ذلك منولارا، فقد كانت تظل حبيسة تلك المكتبة لساعات طويلة فى اليوم وكانت تشعر بالغيرة الشديدة من كل التوافه التى كان اوراتسيو يحتفظ بها، كما تعرف حضرتك».

قالت ليللا وقد شعرت بحرج القسيس:

« إذا سمحت لى سيادتك، إن كنت تثق فى اختياري، سأذهب فوراً وأحضر بعض الكتب التى ربما تصادف اهتمامك.»

رد القسيس: « شكرا يا سيدتي، الكتب مرتبة حسب الترتيب الأبجدى لاسم المؤلف فقد رتبتها منو بعد رحيل والدك»

انسلت ليللا من بينهما وتركت العجوزين فى أحاديثهما اللطيفة. ثم عادت بعد قليل ومعها حقيبة مليئة بالكتب. لم يفتح الأب أرينا الحقيبة وإن كان يشعر

بالسعادة فقد كان يشترى الكتب المستعملة ويلتهمها. انصرف الأب بعد أن وعد السيدة الفاليبى بالعودة لزيارتها وتركها هادئة مبتسمة. عندما لحقت بها ليللا بعد توصيل الأب، قالت ادرينا « إنسان طيب».

قالت ليللا فى نبرة حانقة: « لا أدرى كيف يمكنك قول ذلك « تعلمين جيِّدا أنه من ساعدها على كتابة الخطاب وعلى إخبار أبناء شقيقتها بوفاتها».

أجابت الأم: « وما الضرر فى ذلك، لماذا لم يكن ينبغى له فعل ذلك؟ ثم أردفت: أى كتب أعطيتها له؟»

أجابت بحدة: «أول مجموعة وجدتها، كلها لـ «دانونسيو» وبالمناسبة كانت منو قد وضعتها كلها تحت حرف « أ » واضح أن الأب أرينا قد علمها جيداً الحروف الأبجدية.

كان رد فعل السيدة الفاليبى مفاجئاً:

« لقد سببت، كارثة، هذه الكتب تركها أبوك لبيترو فاتا. وقد فكرت فى إعطائها له اليوم تحديداً! كانت رغبة واضحة من أبيك بل إنه كررها مرات عديدة قبل موته، ولكن منو كانت قد اعترضت وأخبرتنى أنها كانت ستسلمها له. ربما تكون قد نسيت وفى الأسبوع الماضى أوصتنى أن أُعطى هذه الكتب لبيترو. كيف خطر ببالك إعطاء قسيس كتباً لدانوسيو وهى من الممنوعة بأمر الكنيسة». كانت السيدة الفاليبى تجهش بالبكاء مثل طفلة وتفرك يديها « الآن ماذا يجب أن أفعل، يا لها من مصيبة!»

عند هذه اللحظة، فقدت ليللا أعصابها وصرخت فى وجه الأم بأن الكيل قد فاض بها من كل شىء، وكل شخص، وأنها تتشوق للعودة إلى روما. انخرطت السيدة فى بكاء يائس. وكانت قد حانت ساعة استقبال الزيارات، فاستعدت الأم والابنة لاستقبال الناس. وهكذا وجدت عائلة لوداتو تشيفليا التى حضرت لتقديم

العزاء السيدة أدريانا الفاليبى فى بحر من الدموع منذ أول الزيارة فلم تبد بهذا الانهيار حتى عند موت الزوج. بعد الزيارة كانت البارونة تشيفليا وابنتيها قد أعددن تعليقاتهن حول الفاليبى: أدريانا كانت على حافة انهيار عصبي، متألمة، حزينة جدًا، ليللا لا تساند الأم أو تساعدها وكانت تتجنب النظر إليها كما لو كانت غاضبة منها، لم تستطع أن تخفى رغبتها فى السفر، وترك البلدة، كانت تتحدث عن الراحلة دون أية مودة، كان من الواضح أنها تريد أن تعلم الجميع أنها تسعى للحصول على معلومات عن الوضع المالى لمنولارا وأنها بقيت فى البلدة فقط من أجل هذا.

-٢٣- الأربعاء ٢٥ سبتمبر،

ظهيرة من اللقاءات البغيضة لبيتروفاتا

أزعجت زيارتى جيرولامو ميلي، وليلا الفاليبى راحة القيلولة لبيتروفاتا. كان مدير مكتب البريد والذى تعود أصوله إلى مدينة راجوزا، قد اتصل تليفونيا قبل موعد الغداء طالباً تحديد مقابلة معه. لم يكن يعرفه جيداً، وقد اندهش بيترو من طلبه وقابله بمكتبه بشكل رسمي. كان ميلى أبيض البشرة مثل الشمع، ويتحدث بسرعة وينهض باستمرار من مقعده ويسير فى الحجرة متجنباً الاقتراب من البلكونة المفتوحة كما لو كان يخشى أن يكون مراقباً. حكى له عن المذكرة التى كتبها موظفه ريسكيو، شاب نشيط ولكن مع الأسف شيوعى وأكثر من ذلك من أولئك المثاليين الشرفاء وكان يقترح إبلاغ الشرطة لأن هناك ما يريبه فى تصرفات كارميلا ليونى.

فى رأيه عناصر انتهاك القانون متوفرة. ولأن القرار النهائى يعود إلى المدير ميلى فقد قام بجمع بعض المعلومات بشكل متحفظ عن مراسلات انيسريللو. فقد كانت تتسلم مراسلات بالبريد من طرود وخطابات مسجلة بعلم الوصول، بالإضافة إلى طرود عديدة تبدو فى ظاهرها مجلات وكتباً من إيطاليا والخارج. كان يعتقد أن تلك الطرود كانت تصل باسمها لتسهيل استلامها بدلا من إزعاج أوراتسيو الفاليبى، ولا يزال بعضها يصل لاشتراكات لا تزال سارية أو ربما عروض إعلانية.

وفى السنوات الأخيرة، بعد موت المحامي، كانت تتلقى مراسلات من بنك من مقاطعة لومبارديا، فرع أو مكتب لأحد بنوك زيورخ، من البنوك التى تمتاز بطبقة معينة من العملاء. كان مدير مكتب البريد متأكدًا أن هذه المظروفات تضم نقوداً وكانت تصل بشكل منتظم يوم ٢٥ من كل شهر ما عدا شهر سبتمبر كما لو كانت المرأة حدست موعد موتها ونبهتهم...

وهناك أيضاً أمر آخر، كان المدير يكاد يقسم بأن أحداً لم يشعر بتحرياته ولكنه أخطأ. فموظف بالمكتب عيِّن عن طريق المافيا من أولئك الذين لا يمكن المساس

بهم أو الاقتـراب منهم. حضر إلى مكتبـه ونصحه ألاّ يهتم بمراسلات انيسيرللو، فلن تصل أية خطابات أخرى. كان التحذير الأول الذى تلقاه منذ عمله فى روكا كولمبا وكان يشعر بالخوف.

هناك أيضا أمر حساس يريد أن يناقشه.. فيما يبدو فإن ماسيمو ليونى مثقل بالديون وله علاقة بأرباب السوابق فضلاً عن أنه عنيف، فظ الطباع وقد تورط أكثر من مرة فى مشاجرات. كانت الموظفات قلقات على كارميلا ويخشين أن يؤذيها زوجها أثناء نوبـة الغضب التى حاول أن يكتمها إلا أنها كانت ظاهرة فى ذلك الصباح.

شعر بأن من الواجب والضرورى إخبار بيتروفاتا بذلك، وطلب مشورته حيث إنه صديق وقريب لعائلة الفاليبى فضلاً عن أنه شخص محترم لحكمته وتصرفاته الرصينة فى كل روكا كولمبا.

لم يخذله الرئيس فاتا، وطلب منه ألاّ يفعل شيئاً وينتظر.

أكد له ثقته التامة فى حسن تصرفه وشكره بحرارة على حضوره ولجوئه اليه. اتفقا على تبادل المعلومات عن تطورات الموقف (فكر الرئيس..« ما لم يطلب الرجل نقله فإنه يكاد يتغوط فى سرواله من شدة الخوف»)

عاد فاتا إلى المكتب آملا أن يرتاح أخيراً، إلا أن زوجته دخلت بوجه مقطب، قلق لتعلمه بأن ليللا الفاليبى فى الصالون تريد أن تخبره بأمر عاجل.

لم يكن قد قابلها منذ عام، كانت أفضل الإخوة الثلاثة: ذكية، حاسمة، وأنيقة. روت له ليللا عن الوصايا التى تركتها منولارا بالنسبة لجنازتها وكان واضحاً أن ذلك لم يكن هدف الزيارة. طلب منها فاتا أن تدخل فوراً فى صلب الموضوع شرحت ليللا الأمر، جادة كعادتها وحذفت بعض التفاصيل التى شعرت بأنها محرجة:« بعد موت أبي، أرادت منو أن تستمر فى إدارة الأملاك التى ورثتها إلا أننا رفضنا وأعتقد

أنها قررت ترك الخدمة لإغاظتنا وأجبرت أمى على قبول الإقامة غير اللائقة فى بيتها. ومن الواضح أنها كانت تدير أملاكًا أخرى لم تشكل جـزءًا من الميراث، ربما لتجنب دفع الضرائب، أعتقد أنها ربما استثمارات لأموال سائلـة أو أسهم. لم تشـأ أن تخبرنا عن الحسابات البنكيـة أو عن الأشخاص الذين يتولون مراجعة تلك الاستثمارات كانت تدفع لنا الفوائد فى يوم ٢٥ من كل شهر، حيث كانت الأموال تصل بالبريد. كنا ننتظر معلومات بشأن ذلك عن طريق موثق العقود فاتسانو كما حدث للميراث أو عن طريق أحد المختصين أو شخص من ثقاة منولارا كى نستطيع الحصول على هذه الأموال، ولكن أحدًا لا يعلم شيئاً عنها. حاولت كارميلا أن تعرف شيئاً فذهبت إلى مكتب البريد، ولكن يبدو أن الموظفين رفضوا تسليمها المراسلات الخاصة بمنو.. أعلم أنها كانت تلجأ إليك بعد موت أبى لتسألك النصيحة. هل تعلم شيئاً قد يفيدنا؟ أعرف أن الأب أرينا قد ساعدها فى كتابة الخطابات، ولكنه أخبرنى بالقليل، ربما معك يمكنه التحدث بحرية أكبر. ماذا تقترح؟»

تنفس بيترو فاتا الصعداء. فقد خشى أن تحكى له ليللا عن عنف ماسيمو ليونى مع كارميلا. قد بالغ ذلك المدير الأحمق. نصحها باللجوء إلى مهنيين آخرين بالمقاطعة يقدرهم وكانت تربطهم بمنولارا علاقات عمل وأضاف « فى الحقيقة تفاجئيننى بقصة وجود أموال للفاليبى تحت سيطرة منولارا حسب علمي، قد أطلعتكم على كل شيء. كانت دقيقة وأمينة لو كنت فى مكانكم، لاتبعت تعليماتها بدقة.»

تنهدت بعمق وقد تكدرت عيناها الفاتحتان، ردت ليللا:

« علينا أن نطيع أوامرها أيضا؟« ونهضت لتعود إلى المنزل.

- لحظة، أين كارميلا؟

توقفت ليللا وأجابت الإجابة المعدة سلفاً:

«ماسيمو أخبرنا أنها أصيبت بصداع نصفى وبقيت بالمنزل.»

قال لها فاتا بنبرة آمرة:

- «اسمحى لى أن أنصحك، اذهبى إلى أختك واسأليها ماذا حدث بالضبط بمكتب البريد.»

فهمت ليللا وعادت لتجلس، حكت عن عنف ماسيمو وعن مشاكله المالية. منذ شهر يناير الماضي، ومنولارا تسدد نفقات كارميلا للدائنين مباشرة. بالطبع كانت تعلم وضعهم المالي. لم تكن ليللا تعرف ما الذى يمكن أن تفعله لحماية أختها، جانى لم يكن لديه الشجاعة ليتحدث مع ذبابة، من يستطيع مواجهة ماسيمو؟ ونصحها بيترو فاتا بما اقترحه على مدير البريد:

«أن ننتظر وتنتبه لما حولها.»

-٢٤- الرئيس فاتا يتأمل

قضى الزوجان فاتا ما تبقى من فترة ما بعد الظهيرة معاً فى صالون السيدة، حدث آثار دهشة لوتشيا عندما دخلت إليهما،فقد انزعجت مارجريتا بشدة لما حكته ليللا وخشيت على سلامـة كارميلا واستمرت فى التطريـز، بينما كانت تتنهد.

كان بيترو يجلس بجانبها فوق المقعد، يفكر، وكل حين يتبادلان بعض الكلمات المليئة بالمعانى فقط لمن قضيا حياة طويلة معاً:

«أواه

بالضبط!

حقا يا لها من دنيا!

يالها من حياة. « عالم مختلف» « أشياء تفقد العقل».

كان زواجهما هادئاً ودوداً، إلا أن بيترو لم يشعر أبداً بمشاعر حب جارف تجاه زوجته الطيبة. ظلّ زوجاً وفياً لها لخوفه من فقد سمعته كرجل محترم، والتى كان يحرص عليها مثل حرصه على التناغم الخفى للبيت. كان كل منهما يحترم الآخر، وكوّنا معاً عائلة جميلة وكان يشعر بالامتنان الكبير لزوجته لذلك. كانت مارجريتا تبكى فى صمت. هدأ بيترو من روعهـا ووعدها بأن كل الأمور ستسير على ما يـرام، بناتا أوراتسيو تتصرفان بشكل مسرحي. هدأت الزوجة ومسحت بيدها فوق وجهه. أخذ يديها وطبـع فوقها قبلة طويلة، كان واثقًا أنه عند موته ستسير الأمور بشكل مختلف.

بقى وحده أخيراً، استعاد هدوءه وتناول القهوة، الفنجان الأخير فى اليوم ولجأ إلى مكتبه. هناك كان يحتفظ بمجموعة للتسرية، مجموعة سرية من الكتب القديمة

والحديثة كتب إيروتيكية وبورنو، كان يحتفظ بها فى الأرفف المزدوجة التى صممها مع أورتسيو. كانت تلك الكتب متعته الصامتة الوحيدة، فقد جرب القليل من المغامرات الحقيقية فى شبابه، ولم يمر بأية مغامرة بعد الزواج.

أما صديقه الحميم أوراتسيو والذى كان بمثابة أخ له، فلم يكن لديه هذه المشكلات. على الرغم من أن والديه أجبراه على ممارسة مهنة المحاماة، فكان يمارسها بشكل متقطع، وبعدم اهتمام لدرجة أنه عندما قرر أن يكف عن ممارستها، لم يلحظ ذلك إلا قليلون فى البلدة.

وقد قبل الزواج من أدريانا مانجارشينا إرضاء لوالديه، كما فعل بيترو عندما تزوج من ابنة العم، ولكن زواج اوراتسيو لم يجعله يتخلى عن أو يقلل من اهتمامه بالنساء وولعه بهن والذى ارتبط عنده بهواية الصيد. كان يتحلى بروح الدعابة الكبيرة وكان يؤكد أنه يركز طاقاته على زيادة عدد الرجال ذوى القرون وتحسين النسل بروكاكولومبا التى يغلب عليها الزواج بين الأقارب. وكان ارواتسيو يحسن التصرف فى تلك الأحوال، فلم يكن فقط عشيقًا حصيفًا محترمًا ولكنه استطاع أيضاً أن يحتفظ بعلاقات مودة سرية مع معظم السيدات المتزوجات، بطلات مغامراته العاطفية.

لم تكن هناك أسرار بين الاثنين، كان أوراتسيو يحكى لبيترو عن نسائه وكانا يخططان معا للاستيلاء على قلب المرأة، من المغازلة إلى الإغراء. كان بيترو يشارك بثقافته الواسعة الراقية، كان كما لو كان يعيش معه تلك القصص من شدة تلاحمهما وغزارة التفاصيل والأحاسيس التى كان صديقه يحكيها له. كان اوراتسيو أيضاً رجل ثقافة ومتعدد الاهتمامات. نشأ مدللًا من أمه وتعوَّد أن تلبى كل نزواته وأن يكون دائمًا محط الأنظار والاهتمام.

وبفضل العلاقة مع أمراء برولي، كانت عائلة الفاليبى تتردد على الطبقة الارستقراطية التى كانت تقضى الإجازة فى الجبل وكان اوراتسيو محبوباً ومقدراً

نظراً لمنطقه الذكي واللطيف وثقافته المنتقاة. بالإضافة إلى أنه كان يحب الموسيقى وخاصة الأوبرا، وكان يهوى جمع الأشياء النادرة. كان يكرس وقتًا قصيرًا وبكثافة لجمع ما يثير حماسه، ثم يتركه لمشروع جديد كما كان يفعل مع النساء منفقاً أمواله وميراثه. لم يكن يهتم بأملاكه ولا بعائلته، ولولا حسن إدارة الأم ومن بعدها منولارا لكانوا أفلسوا وضاعت أموالهم مثل كثيرين غيرهم.

يبدو أنه بموت منولارا، سينفرط عقد العائلة وتطفو فوق السطح حماقة أفرادها. أمسك بيترو فاتا بكتاب ونسي روكا كولمبا والعالم بأسره.

-٢٥- ماسيمو ليونى يتصالح مع زوجته ويتلقى تحذيرًا والعائلة تأخذ قرارًا مهما

كانت كارميلا ليونى ترقد فى سريرها فى أول ما بعد ظهيرة يوم الأربعاء ٢٥ سبتمبر ١٩٦٣، متألمة ولكن مسرورة بزيارة شقيقتها غير المتوقعة. فليللا التى كان يقتلها الفضول لمعرفة ما حدث فى مكتب البريد، أسرعت بالذهاب بعد الغداء مباشرة إلى بيت أختها، بينما كانت أمها تأخذ قسطاً من راحة القيلولة.

وفى البيت وجدت كارميلا فوق الأرض فاقدة الوعى تقريباً، استدعت بسرعة الطبيب منيدكو الذى شخّص الحالة بكسور فى العضلات وسحجات فى أماكن متفرقة من جسدها. وأوصى بالراحة لمدة أسبوع على الأقل، بقيت الأختان وحدهما، بكت الشقيقتان معاً وتحدثتا طويلاً، وعلى الرغم من كآبة اللقاء إلا أنه قرب بينهما.

وكانت العلاقة بينهما منذ زواج ليللا قد أصبحت فاترة ورسمية؛ فكان زوجاهما مختلفى الطباع بشكل كبير، وليللا كانت تشعر بالخجل من الملامح الريفية التى اكتسبتها كارميلا أو ببساطة احتفظت بها. وللمرة الأولى تحدثت معها كارميلا بصراحة عن الوضع المالى شديد التدهور لماسيمو وعن عنفه وأضافت أنها على الرغم من كل شيء تحبه وتحتاج إليه، وتتمنى البقاء فى البيت وألا يعلم أحد بما حدث ولا حتى جاني. ثم استغرقت فى النوم خائرة القوى. أيقظها الزوج.

وكانت الخادمة قد أخبرته بزيارات بعد الظهيرة، ودخل الغرفة متردداً. أشارت إليه كارميلا بالجلوس على حافة السرير واعتذرت له لأنها لم تستطع إخفاء الأمر عن ليللا. همهمت وقالت باكية: « حضرت دون سابق انذار.» نكس ماسيمو رأسه وغطاها بذراعيه، رفع كوعيه فوق رأسه، غرز ذقنه فى الجزء السفلى من عنقه، وتشبثت يداه بقفاه، وأجهش معها بالبكاء.

سألها كاسراً الصمت:« ماذا حدث؟»

كانت كارميلا قد رسمت خطة أثناء غفوتها. إذا سألت الأم، سيخبراها بأنهما تشاجرا ولكن الأمور انتهت على خير. وأن مظهرها غير المهندم يعود إلى حزنها على وفاة منولارا. لن يتحدثا عما حدث بمكتب البريد، وقررا أن يتناولا العشاء ببيت الفاليبى كى لا يثيرا الشكوك.

ساعد ماسيمو كارميلا على الاغتسال وارتداء ملابسها بحب شديد.

وعندما ارتديا ملابسهما، ذهب ليأخذ العربة والتى ركنها فى المكان المعتاد. بدت له السيارة من بعيد منخفضة عن المعتاد، فكر أنه ربما كان هو الآخر متعباً وأن نظره بدأ يضعف، اقترب أكثر من السيارة كان قد ركنها فى اتجاه الحائط فى شارع ضيق خلف البيت فى الظهيرة بعد أن أخذها إلى الغسيل وكانت فى هيئة ممتازة، الآن الإطارات فارغة من الهواء وبها قطع طويل وغائر. دار حول السيارة فى صمت وقد شعر بالخوف، لاحظه عجوز يقطن فى بدروم بالزقاق المقابل، كان يجلس أمام مسكنه بوجه مكرمش دون أن تبدو عليه أية تغييرات، صامت تماماً ولم يكن الوضع يسمح بأن يسأل عن أية معلومات، فتح ماسيمو باب السيارة وأخذ الورقة الموضوعة فوق المقعد:« لا تتحدث كثيراً والتزم بشئونك» وجدها مكتوبة بالحروف الكبيرة.

وعلى عكس المتوقع، لم تنفعل كارميلا عند رؤية هذا المشهد واكتفت بقولها: نحن مراقبون وذهبا فوراً إلى أمها بسيارتها الصغيرة.

تناولوا جميعاً طعام العشاء بحجرة الطعام الكبيرة، كان ماسيمو قد تناول الطعام مرات قليلة بمنزل الحموين كى يتجنب مقابلة منولارا. كانت أصونه الأطباق وأدوات المائدة الضخمة ذات الألوان الغامقة الملتصقة بالحوائط، تبدو خيالات عملاقة مخيفة كلها آذان، كانت وأدوات المائدة من أطباق وكؤوس موضوعة فى العارضات الزجاجية تهتز مصدرة صوتاً كلما مر أحد بالقرب منها، والضوء الضعيف للمصابيح ذات الفولت المنخفض كان يخلق جوا مليئًا بالظلال السائلة.

كان يشتم رائحة زنخة تنبعث من الحجرات غير المسكونة، كما لو كان شبح يشعر بالإهانة يسكن البيت، يريد أن يعاقب الحاضرين أو يحذرهم. أكلوا قليلا، ودون شهية. ناقشوا الموقف أثناء تناول العشاء. كان جانى يشعر بالاضطراب وعدم القدرة على التفكير أو اتخاذ أية مبادرة. كانت الأم تفكر فقط فى مشاكلها الصحية، فقد أجهدتها زيارات بعد الظهيرة لدرجة أنها لم تدرك أن كارميلا كانت تسير بصعوبة. كانت ليللا محبطة، ولكنهم كان يجب عليهم أن يتخذوا قرارا.

التحذير الذى وجهه إلى ماسيمو كما ظن الجميع حدث نتيجة ذهاب كارميلا إلى مكتب البريد ولم يشأ أى منهم أن يتوقف عند تفاصيله. من الواضح أن منو كانت لها علاقات بأشخاص من المافيا، من المحتمل أنها قد أعطت تعليمات لإهانتهم أكثر. كانت تلك طريقتها فى الانتقام منهم لأنهم لم يسمحوا لها بالاستمرار فى إدارة ممتلكاتهم بعد وفاة الوالد. كان الأبناء الثلاثة مقتنعين تماماً بذلك ولكن لغطرستهم، لم يجرؤ أى منهم على اقتراح ما كان واضحاً، جلياً للجميع، ألا وهو ضرورة إطاعة أوامرها وإعادة كتابة الإعلان.

تحدث ماسيمو:«لايهمنى أن يسخر منا الناس، ولكنى لا أريد أن تتمزق إطارات سياراتكم أو يحدث ماهو أسوأ. ليس أمامنا إلا تصحيح إعلانات الحائط ووضع النعى كما أعدته تلك المرأة، كما كتبته وفورا. اتفقوا جميعا على ذلك.»

-٢٦- تحليل الموقف بمنزل ريسيكو

بعد العشاء، نزعت الفيرا فنجان القهوة الفارغ من يد زوجها وسألته: «ما الشيء الهام الذى قد تحتويه خطابات خادمة؟». كانت الفيرا تريد أن تعرف ما يحدث.

بدأ جاسبرى الحديث قائلاً:

« ماسيمو ليوني، شخص سيء، عاطل، زير نساء» ثم أضاف:« يُقال أنه قام باغتصاب غسالة فى شبابه. ابن وحيد لتأجر أخشاب صغير وقد دفع بشركة أبيه إلى حافة الإفلاس فى أعوام قليلة. وقد أنقذ الشركة زوج أخته الذى عيَّنه بوظيفة وهمية بها. كان زواجه بكارميلا الفاليبى ضربة حظ كبيرة بالنسبة له. يشاع فى البلد أن اينسريللو كانت تعتبره غير كفء لكارميلا ولم تشأ أبداً الاختلاط به ومعرفته، وقد تزوجا أثناء الصيف بينما كانت اينسريللو تقضى الإجازة مع أبناء شقيقتها. ماسيمو يخون زوجته باستمرار وأكثر من ذلك يضربها.»

قال متكدراً ومصححاً من نبرة الأسلوب التأديبى الذى يحدث به الفيرا « لا ينبغى ضرب النساء، يقال أن أباه كان يوسعه ضرباً ولكن ما دخل ذلك بضرب زوجتـه..» وبقى فى مكانه، مستسلمًا كما لو لم يعد قادراً على التصديق.

ومن ناحيتها، كانت الفيرا لديها أخبار جديدة مثيرة: ففى الظهيرة دخلت الآنسة ارتو إلى المكتبة لتحكى للسيدة بيكوريللا أن إحدى زبائنها قد روت أنهم مزقوا إطارات سيارة ليونى الجديدة. وأيضا هذا الصباح تحدثت السيدة بيكوريلا فى حذر مع الأب أرينا عن شخص مهم ظهر فى الجنازة ولم تجرؤ على ذكر اسمه وقد خفض القسيس بصره موافقًا على كلامها.

وخمنت الفيرا: «قد تكون للمافيا علاقة بالموضوع؟» لم يكن جاسبرى يود الحديث عن قساوسة أو عن رجال المافيا. وقال مستعيداً نبرة صوته المعتادة:

«لنحلل الموضوع بشكل منطقى كما شرحت لك حتى موت اينسيرللو، لم يكن هناك ما يريب فى تصرفات الفاليبي وليوني، على الرغم من غرابة الموقف. الأحداث اليومية بها ما يثير الريبة، هناك شيء لا أفهمه. كانت اينسيرللو تتلقى طرودًا، مجلات وخطابات تتسلمها من مكتب البريد، يمكن فهم هذا فى إطار الواجبات التى كانت تضطلع بها، وكسل وخمول أفراد عائلة الفاليبى الذين كانوا لا يرهقون أنفسهم حتى باستلام المراسلات الخاصة بهم، ولكن وصول الخطابات استمر بعد وفاة المحامى الفاليبى وهذا الشيء لا أستطيع تفسيره. كانت كتبًا ومجلات باهظة الثمن من مجلات بورنو، فنون وآثار. من يمكنه قراءة تلك الكتب والجرائد، إن استثنينا انيسيريللو نصف الأمية، فمن غير المحتمل أن تكون السيدة الفاليبى، السيدة البرجوازية التافهة ذات الذكاء المحدود حسب رواية من يعرفها، والتى بالتأكيد ليس لديها اهتمام بالآثار.. إذن من؟ هل استمرت الاشتراكات بسبب الإهمال والكسل وكانت الطرود تظل مغلقة؟ أشك نظرا لتقتير عائلة الفاليبي.«

تدخلت الفيرا فى الحديث وهى تنكمش تحت ذراع الزوج:

« وإن كانت المرأتان تقرآن هذه الكتب بصوت عال كما نفعل نحن؟ فى جميع الأحوال، كانتا تعيشان فى نفس المنزل وليالى الشتاء طويلة...

همس جاسبرا مداعباً خصلات شعرها: « علاقة سحاقية..»

اعترضت: «ماذا تقول؟ بين العجوزتين!»

رد جاسبرا وهو يعذبها بنزع خصلة من شعرها: «القصة تأخذ منعطفًا جديـدًا ومعقدًا بزيارة كارميلا ليونى لمكتب البريد. كانت انيسريللو تستلم خطابًا مسجلًا يوم ٢٥ من كل شهر. أتذكر أنها اشتكت ذات مرة لتأخر وصول الخطاب يوماً واحداً فقط عن موعده وقد دونت اسم الراسل، وهو بنك وانتظر تحريات من زميل.

لكن الخطاب لم يصل اليوم، هناكِ من ينتظر ذلك الخطاب ويحتاجه، لذا كانت كارميلا تهدد وتتوعد وكانت خائفة جدًا. ماذا تحوى هذه الخطابات؟ وما الذى يهدد عائلة الفاليبى؟ ولماذا؟»

استقامت الفيرا، حررت رأسها من يد الزوج ورفعت كتفيها كما لو كانت تريد أن تقول إنها لا تدرى كيف تجيب.

قال لها جاسبري:

«ثم عنصر المافيا؟ كيف يمكن تفسيره؟ الأمر غامض. الفيرا، لنذهب للنوم ولنر ما سيحدث غداً.» همست وهى تطفئ المصباح:« من يدرى ربما يصل الخطاب متأخرا عن موعده».

-٢٧- الزوجان فاتا يتحدثان

كان من المعروف فى بيت فاتا، أن الرئيس عندما يغلق باب حجرة مكتبه، لا يحب أن يزعجه أحد.كانت قاعدة، تكسرها دائماً الحفيدة الصغيرة ريتا التى كان الجد يسمح لها بكل ما تريد. وكانت مارجريتا فاتا تحرص على اتباع واحترام عادات الزوج الثابتة، ولكن فى تلك الليلة بعد عودتها من زيارة التعزية لأدريانا، اتجهت مباشرة إلى مكتبه، دقت الباب دون تردد وجلست بجوار المدفأة فوق مقعد الفوتيه المقابل للزوج الذى كان يقرأ ويستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية.

سأل بيترو وهو يرفع نظره من الكتاب ويغلقه ببطء:

« مارجريتا ماذا حدث؟»

كانت رواية ايروتيكية، الأخيرة التى سلمتها له منولارا، المستلم البريء لمنشورات دار نشر خاصة، وكانت تحمل له الكتب طاعة واحترامًا لأوامر اورتسيو حتى بعد وفاته.

قالت له الزوجة باستحياء:

«أريد أن أخبرك بمطلب لأدريانا وأحدثك عن زيارتى لبيت الفاليبى كما سألتني: كان البيت مليئًا بالأشخاص، الكثير منهم جاء بدافع الفضول ثم للنميمة بعد ذلك ولكن أدريانا فى حاجة للصحبة، فهى تقريباً وحيدة.. كارميلا غائبة وليللا قاسية مع أمها. أدريانا لا تشعر بالراحة فى بيتها، وتحن إلى أيام إقامتها ببيت منو، كانت قد اعتادت عليها وكان لديها كل ما تحتاجه من الراحة. وأثناء الزيارة أخذتنى إلى حجرة نومها لتخبرنى بشيء على انفراد.

لن تصدق، فكل ما كانت تريد حكايته هو أنه هذا الصباح زارها الأب أرينا لتقديم العزاء وقد أهدته ليللا كتباً من مكتبة أوراتسيو.»

قوّس بيترو حاجبيه كما يفعل عادة عندما يشعر بالفضول: الأمر يتعلق بكتب.

استمرت زوجته فى الحديث:

« قالت لى أدريانا أن ليللا ذهبت إلى مكتب اورتسيو وأخذت كل كتب دانونسيو ووضعتها فى كيس وأهدتها للأب أرينا. كانت أدريانا المسكينة تبكي، كانت تبدو لى واهنة محطمة الأعصاب. وعلى أية حال، يبدو أن اوراتسيو كان قد أوصاها بإعطاء هذه الكتب لك بعد وفاته. ولم تسمح لها منو بذلك لأنها كانت تريد الاحتفاظ بالمكتبة كاملة. وكالعادة أطاعتها أدريانا. يظهر أنها كانت الأمنية الأخيرة لاورتسيو. أكنت تعلم شيئاً عن ذلك؟»

أجاب بيترو مترددًا: « لا، لا، لم أكن انتظر أية هدية منه فقد كان سخياً معى أثناء حياته»

«أدريانا جعلتنى أعدها أن أخبرك بأنها ترغب فى أن تتحدث أنت مع الأب أرينا وتطلب منه إعطاءك هذه الكتب وستسمح له باختيار كتب أخرى، لأن تلك الكتب كانت مخصصة لك.»

قال الزوج: «يجب أن أتذكر التحدث مع الأب أرينا فى هذا الشأن عندما أراه.»

- «لا، ادرايانا كانت تلح بشدة، ترغب فى أن نتحدث معه فى أقرب فرصة. الأب أرينا يعيش فى الريف ويحضر إلى البلدة مرات قليلة.. من فضلك افعل ما تطلبه منك المسكينة، يكفى ما يشغلها من أفكار.»

أراد بيترو فاتا تغيير الحديث، كانت زوجته تثير أعصابه وسأل:

«ماذا يقال أيضا؟»

«يبدو أن دون فينشينسو انكونا حضر الجنازة، رآه قليلون ولكن الشائعة سرت وانتشرت.»

كان حضور العجوز القوي، زعيم المافيا لجنازة خادمه من أخبار النميمة التى لم تكن تهم فاتا على الإطلاق وقال: « ربما كانت منولار على صلة به ولكنى لا أفهم لماذا يتكلف عناء حضور جنازة خادمة، قد يكون قد فعل ذلك احترامًا لعائلة الفاليبى.»

نبهته مارجريتا:« ولكنه لم يحضر جنازة أوراتسيو.»

لم يرد الزوج وقد زاد إلحاح زوجته من شعوره بالتوتر.

استمرت الزوجة فى قص ما حدث مطمئنة إلى المهمة التى أسندت إليها:

«كانت الآنستان أروتسا تتحدثان فى محل الخردوات الحديث عن كارميلا وماسيمو. الجميع يعلم ما حدث، الناس تتحدث كثيراً. بالإضافة يقال أن إطارات سيارة ماسيمو، قد مزقها مجهولون، هذا الشاب على علاقة بأشخاص مشبوهين.

ماريا جوزيه سليتو، والتى تشبه أمها كثيراً البارونة تشفاليا تطلق أحاديث النميمة باستمرار، كانت تحكى أنه بعد أن أوسع زوجته ضرباً ذهب إلى مكان سيء السمعة».

ابتسم بيترو، وتضرج وجه زوجته بالحمرة، وكانت متحرجة لم تكن تستطيع نطق كلمة « بيت دعارة» وقالت للجميع أن منولارا، كانت واحدة من هؤلاء. ابتسم بيترو مرة أخرى، ربما كانت مارجريتا من شدة براءتها لا تعرف كلمة عاهرة. «وربما كانت على علاقة برجال المافيا، لم أسأل، كان يبدو لى الأمر شديد السوء، ولكن قل لى يا بيترو من يكون قد أخبر ماريا جوزيه بكل تلك المعلومات.»

أجاب الزوج بصبر واستسلام.. لسذاجة الزوجة التى تقربها من الغباء:

«لا أدري، تصرفات المهندس سالفاتورى سيليتو، الزوج الخائن لزوجته وغير الملتزم، كانت معروفة للجميع.» أشكرك حقيقة، أعلم أنك كنت تفضلين البقاء بالبيت للعب مع الطفلتين بدلاً من الخروج وسماع أحاديث النميمة ولكنه كان أمراً ضروريا، الآن يجب أن أنتهى من القراءة، لنتقابل على العشاء.»

خفض بيترو فاتا عينيه على الكتاب الذى كان يضعه فوق ركبتيه بينما كانت مارجريتا تنهض من المقعد، أخيراً نجح فى إبعادها.

-٢٨- ريتا بارينو تتأمل فى الماضي

ريتا بارينو سكوتي، الابنة الوحيدة لموثق العقود بارينو، أرملة، شابة للبروفيسور المعروف سكوتي، أستاذ الأدب الايطالى بجامعة باليرمو، عادت إلى روكا كولمبا لتعيش مع والديها. امرأة جريئة جذابة، اختارت ألاّ تتزوج مرة أخرى وكرّست وقتها للفنون وخاصة الموسيقى.

أقامت العديد من العلاقات العاطفية المتزنة، كلها مع رجال متزوجين ومن بينهم اوراتسيو الفاليبي، لم تكن تحاول خطف الرجل من زوجته وكانت مقتنعة أنها تضفى سعادة على الحياة الزوجية لعشاقها، وكانت تتأكدمن ذلك من خلال استمرار الصداقة بينها وبين الزوجات المخونات، اللاتى كن يترددن على صالونها الموسيقى فى الظهيرة وكأنهن يشكرنها.

كانت ريتا تحتقر أدريانا الفاليبى ومونولارا وكانت تعتبرهما المسئولتين عن النهاية السريعة لقصة حبها مع أوراتسيو، التى كانت دون شك أكثر القصص عمقاً ومرحاً فى سنواتها الناضجة.

كان من السهل بالنسبة لهما التمتع بالصحبة دون اللجوء إلى الحيل المعتادة، ودون التسبب فى أية فضيحة، كانا يتقابلان فى الريف فى بيت ريتا الريفى بحجة أن اوراتسيو يهتم كثيراً بعلم النباتات وكان يعجبه البقاء فى حديقة باريني. كان اوراتسيو عاشقًا كريمًا، مفعمًا بالحيوية والخيال، يحدثها قليـلاً عن عائلته وكان يبـدو أن أدريانا تتقبل مغامرات الزوج وخياناتـه لها، تقريبـاً بنوع من الارتياح.

ريتا كانت تشعر بالفضول تجاه شخصية الخادمة السيدة منولارا، فى البداية راودتها الشكوك بأن منولارا تحبه سراً، وأن ذلك هو الدافع وراء طاعتها له. فكانت تستطيع التعرف علي قطع الخزف القديمة وتعيد ترميمها وكانت تساعده فى فهرسة

القطع الأثرية. كان أوراتسيو يسخر من شكوكها، ووضح لها أنه يعرف منولارا منذ دخلت بيتهم للخدمة وكانت فى الثالثة عشرة من عمرها، ولم تبد أبدا أية غيرة، ولم تطمح إلى ما تعرف جيداً أنه لا يمكن الوصول اليه.

كانت من خدم البيت، تنتمى إليهم لذا كانت مخلصة له ولكل العائلة، كانت تؤدى واجبها فقط.

وقد تأكدت ريتا من ذلك عندما علمت بأن منولارا، أخذت على عاتقها مسئوليات بدلا من اوراتسيو لتترك له الوقت الكافى ليقضيه معها، ربما كانت تخلق لاوراتسيو أسبابًا مقنعة للقيام برحلات عمل فى إيطاليا، ولم يكن الأمر فى الواقع سوى إجازاتهما اللذيذة التى يقضيانها معاً.

وكانت منولارا من تترك لها رسائل وهدايا من أوراتسيو بالبوابة، كى لا تثير الشبهات. كانت ريتا ترى منولارا امرأة متعطشة للسلطة نهمة، وطاغية فى طاعتها لعائلة الفاليبى لدرجة أنها أقنعت اوراتسيو وأدريانا بالانضمام إليها فى رفضها لزواج كارميلا من ماسيمو ليونى، إنسان تافه وربما لذلك كان مناسبا لابنتهم!

لم تكن تلك العائلة تتخذ قرارات دون موافقة منولارا.

وبعد عودتهما من رحلة سعيدة بشكل خاص، قام بها أوراتسيو بحجة الاشتراك فى مؤتمر عن الموسيقى. أراد أوراتسيو دعوة ريتا مع والديها إلى بيته لمشاهدة إناء آيونى مهرب من حفائر «بوسكو ليتوريو» فى جيلا. كان حدثا ببيت الفاليبى. فقد كانت منولارا لا تسمح بإقامة دعوات ليللا بحجة أنها تشعر بالإرهاق ولا يمكنها إقامة موائد، بينما كانت تبذل قصارى جهدها، وتتفنن فى تنظيم حفلات فى الريف فى الصيف، وحفلات الاستقبال المعتادة فى الظهيرة التى كانت تقام لصديقات أدريانا.

لم يدع أوراتسيو ريتا أبدا لزيارة مكتبه الذى أعاد ترميمه بنفقات باهظة كان يتباهى بذكرها، ولم يظهر لها مجموعاته. كانت الدعوة تمثل مناسبة عظيمة.

تبادلوا أطراف حديث ممتع على مائـدة الطعام، كان الطعام ممتـازاً وكانت منولارا تخدمهم كما ينبغـى فى صمت. بعد الانتهاء من تناول الطعام، دعا أوراتسيو ريتا لزيارة مكتبـه بعد تناول القهوة بينما أدريانا. كانت ستصحب والديها إلى الصالون.. وفى تلك اللحظة عادت الخادمة السيدة إلى حجرة الطعام تحمل فناجين القهوة فوق الصينية الفضية، التى ألقت بها فوق المنضدة بجانب أدريانا بغضب شديد أرجف كل الفناجين فوق أطباق البورسلين الصغيرة. قالت منولارا: لن أخدم تلك العاهرة! ثم انصرفت وأغلقت الباب وراء ظهرها. وجموا جميعًا من الدهشة، وأثبتت أدريانا سرعة بديهة فقالت « معذرة لا أدرى ما أصابها، لقد احترمتنى دائماً ولا أدرى لماذا تهيننى الآن أمام ضيوفي. صمت أوراتسيو. وحاول الجميع التظاهر بأن شيئاً لم يحدث، وبعد قليل استأذنت عائلة بارينى ولم تزر ريتا مكتب أوراتسيو.

كانت ريتا واثقة من أن منولارا كانت تعنيها بكلماتها. وتأكدت من ذلك فى اليوم التالى عندما أرسل إليها أوراتسيو خطاب وداع!

« حبيبتى ريتا، أدرك أن السعادة العائلية والتى بالنسبة لى مصدر سعادة وحبور، تهددها قصة حبنا الغالي، مما يدفعنى لاتخاذ قرار صعب. الوداع يا ملهمتي، مع عرفانى الدائم.. اوراتسيو».

رأته بعد ذلك بأيام قليلة بحفل فى عاصمة المقاطعة بصحبة أدريانا. وكانت أدريانا هى من اقتربت منها لتعتذر لها عن تصرف الخادمة قائلة « إنها مخلصة جدًا.. ولكنها تتجاوز حدودها فى بعض الأحيان.. كانت لديها بعض المشاكل.. ويبدو أنها غضبت مني، أشعر بالخجل والأسف جدًا، أسألك المعذرة مرة أخرى» ظل أوراتسيو بجوار زوجته صامتاً لا يبدو عليه أى تعبير.

كرهت ريتا أدريانا، شخصية مزيفة عديمة المشاعر لم تكن تلك الزوجة التافهة، كما كان يصفها أوراتسيو الغبي، بل كانت حية تتمتع فى المدينة بسمعة امرأة فاضلة، لقب لا تستحقه. أما بالنسبة لمنولارا، فقد أخطأت أيضا فى فهمها فكانت امرأة تدافع عن منطقة نفوذها. لم تكن لتتنازل عن السلطة دون مقاومة. وغالباً

خشيت أن ينتهى الأمر بانفصال الزوجين مما يدمر مكانتها ببيت الفاليبى، المكانة التى لم تكن لتحتفظ بها إلا والعائلة متحدة، لذا انحازت إلى الزوجة ومعها مارستا تسلطهما على أوراتسيو الضعيف.

ومنذ ذلك الوقت طرأ على اوراتسيو تغيير جذري، كان يظهر فقط فى الاحتفاليات الموسيقية وليس فى الحفلات... كان يخرج مع عدد محدود من الأصدقاء الرجال وكان يحبس نفسه بالبيت، يكرس كل وقته لهواية اقتناء وجمع التحف.

كان يشاع بالبلدة أن تصرفه هذا كان سببه المرض الذى أدى إلى وفاته بعد ذلك بأعوام قليلة.

عندما ترملت أدريانا، اختارت أن تعيش مع منولارا ببيتها، ريتا فهمت أخيراً لعبتهما. لم تكن أدريانا تعجب بالرجال كثيراً ويبدو أن الخادمة كانت ترضى رغبات سيدتها لتحقيق مصلحتها أو لهوى فى نفسها. لم يكن لدى ريتا أى شك أن المرأتين ارتبطتا بعلاقة سحاقية من قبل وكان ذلك حل اللغز.

كانتا تظهران بمظهر ضحيتين لأوراتسيو: الأولى ضحية خياناته الزوجية، والثانية للمسئوليات التى أثقل كاهلها بها، وهما فى الواقع قد أخرجتاه من الحياة العائلية وكانتا تعيشان فى علاقة تكافل شاذة.

كانت المسكينتان تخشيان أن يدمر أوراتسيو وريتا تلك العلاقة الخفية بقصر الفاليبى. الفتاتان الشريرتان، لو كانتا تعلمان أنها على الرغم من حبها لأوراتسيو لم تكن لتضحى بحريتها أبداً من أجل رجل.

أخفت ريتا عن الآخرين نظريتها والاحتقار الشديد الذى تكنه لهاتين المرأتين. الآن بعد موت منولارا كانت تشمئز من سماع عبارات المدح والثناء عليها وأن يتحدث عنها الناس باحترام وإعجاب. كانت تود البحث فى ماضيهما لتكتشف اهتماماتها الخاصة. وكانت لتفعل نفس الشيء عند موت أدريانا.

-٢٩- الصالون الموسيقى فى بيت بارينى بعد الظهيرة لم يستمعوا إلى الموسيقى وإنما تحدثوا عن منولار

كانت صالونات بارينى تزدحم ليس فقط بالسيدات، وإنما أيضاً بأزواجهن وهى ظاهرة غير مألوفة. كان الرجال فى الغالب يصطحبون زوجاتهم ثم يعودون لأخذهن بعد الظهيرة عند نهاية الصالون الموسيقى، حدث جديد فى المناسبات الاجتماعية، ابتدعته ريتا بارينى التى كانت لا تزال تحتفظ بلقب عائلتها.

كانت السيدات يحاولن الالتزام بالقواعد المنظمة لهذه اللقاءات ولكنهن لم يكن يستطعن. لم يكن الرجال يبدون أية نية فى الانصراف فضلاً عن أن كل الضيوف لم يكونوا يهتمون بالموسيقى. كانوا يتجمعون فى حلقات لمجموعات صغيرة أو كبيرة حسب أهمية الأخبار وما تحويه من نميمة عن أحداث غير عادية حدثت بمنزل الفاليبى.

كانوا يشبهون طفيليات الأميبا، التى تذوب ثم تتشكل عند استشعار أول فرصة للنميمة اللاذعة أو الأحاديث المشابهة للنميمة. على الرغم من أن الأحداث المروية لم تكن مسلية، بيد أنها كانت تتمتع بروح المرح، فقد كان أهالى روكاكولومبا يشعرون بجفاء يصل إلى حد البغض تجاه عائلة الفاليبى التى استغلت إدارتها لأملاك أمراء بريولى، لتحقيق ثروة باقتناء إقطاعيات بأسعار زهيدة، ثم تعالت عليهم.

كانت متعة النميمة المتأصلة فيهم تتغلب على متعة الاستماع إلى موسيقى «فاجنر»، التى أصبحت مجرد خلفية موسيقية لأحاديثهم. لمح البعض كارميلا ليونى تهبط من السيارة فى الظهيرة أمام بيتها وهى ترتعش وتتحرك بصعوبة وقد لوثها القيء. كان ماسيمو يسندها وقد سندها إلى باب البيت بوجه غاضب. ماذا حدث لها؟

البارونة تشفاليا التى نادراً ما تزور صالونات البلدة والتى تظاهرت فى بادئ الأمر بالترفع عن رواية مثل تلك الحكايات السيئة، الآن تتباهى أمام جمع غفير بأنها عرفت من مصادر موثوق بها أن ماسيمو ليونى ضرب زوجته كارميلا، وقد

وجد بها الطبيب منديكو بعض الكسور فى الضلوع، أغفلت البارونة ذكر «المصدر الموثوق به» ألا وهو بوابة بيتها انزا ميلتيللو التى عرفت بتلك الأخبار عن طريق زوج الكواءة ببيت ميندكو والتى بدورها، نجحت فى معرفتها باستراق السمع على حديث الطبيب منديكو و أخته السيدة دى بريما، وحكت كل شيء لزوجها عندما ذهب ليصطحبها إلى البيت.

قالت السيدة ميمى بوماريتو متعجبة وقد ألهت دون قصد بقية الضيوف عن البارونة: «منولارا كانت مثل كاسندرا فى التنبؤ بالمستقبل! فقد تنبأت بكل ذلك، لقد حكت خادمتى لى أنها كانت ضد زواج كارميلا لأنها كانت تعلم بعنف ماسيمو ليونى حتى مع أمه التى صفعها، كانت محقه فى رفضها له!

كانت منولارا تود فقط الخير لعائلة الفاليبى لو كانوا استمعوا إليها....»

الضيوف وقد سحرتهم هذه المعلومة، أهملوا توجيه أسئلة أخرى إلى البارونة. شعرت البارونة بالإهانة ولم تشأ الثناء على تعليق المدرسة بوماريتو، سيدة من أصول متواضعة كانت تعتقد بسذاجة أنها تستطيع تثقيف نفسها بالتردد على صالونات بعد الظهيرة ببيت بارينو تلك الصالونات التى يتم تنظيمها كما يعلم الجميع لاستعراض فضيات موثق العقود وليس حبًا فى الموسيقى.

حرصت البارونة على سلب النصر المباغت الذى حققته بوماريتو وقالت بازدراء: «لا يجب تصديق ما يقوله الحثالة، والخدم وما يقررون إخبارنا به فليسوا أهلاً للثقة. بالتأكيد ماسيمو ليونى كسر ثلاثة ضلوع لكارميلا المسكينة ولكن لم يكن لخادمة أن تستغل الثقة التى منحها إياها الفاليبى وتتدخل فى أمر زواج ابنة سادتها، فهذا قرار رب الأسرة، اوراتسيو ولكن كما هو معروف كان ضعيف الشخصية أمام بعض النساء وكان القرار النهائى دائما للخادمة.»

بعد أن أحست البارونة بالسعادة وقد أصابت هدفين بعبارة رصينة، نظرت بسرعة إلى ميمى بوماريتو التى تضرج وجهها بالحمرة بعد أن شعرت بالتحرج

منصاعة للدرس الذى لقنته لها البارونة فى الذكاء الاجتماعى والرقي، ثم صوبت عينيها إلى وجه ريتا بارينو عشيقة سالفاتورى سيلنتيو زوج ابنتها منذ فترة قصيرة، والسبب فى الشقاق والألم بيت الابنة ماريا جوزيه.

استمروا فى اغتياب عائلة الفاليبى، والتحدث عن غطرستهم، وضعف الرجال بدء من النهم الجنسى للمحامى جاني.

رمت البارونة قبل انصرافها، بسهمها الأخير مباشرة نحو ريتا: « من المعروف أنه فى العائلات التى يكون الرجال فيها ضعاف الشخصية، فإن خادمة مثل منولارا يمكنها أن تصبح السيدة الآمرة. فى الحقيقة اوراتسيو عاش دائماً تحت سيطرة أمه ومن بعدها منولارا، على الأقل منولارا أنقذت العائلة وحافظت على وضعها الاجتماعى وكانت مخلصة وأمينة، ولم تأكله حيا كما فعلت صديقاته اللاتى حصلن على هدايا ورحلات كما يقال! ومرة أخرى جذبت البارونة الاهتمام إليها، شحب وجه ريتا بشكل واضح ونظرت إليها نظرة نارية ردت عليها البارونة بنصف ابتسامة مستمتعة بضيقها، وانصرفت إلى مجموعة أخرى من الضيوف.»

هنأ المدعوون أصحاب البيت على نجاح الظهيرة الموسيقية، وعندما بقيت ريتا وحدها مع والديها، شكت من صداع شديد وذهبت إلى غرفتها.

ذهبت الأم إلى المطبخ لترى إن كانت الخادمات قد غسلن وجففن كل أدوات المائدة الفضية ثم لتعد أدوات الطعام وتضعها بدولاب الحائط وتغلقه بالمفتاح.

بقى موثق العقود بارينو وحده.. فقد لاحظ الإهانات التى لحقت بابنته من كلام البارونة اللاذع وكان يفكر فى طريقة للانتقام منها، بينما كان يتمشى فى الردهة بخطوات واسعة ثقيلة ورأسه منكس ويداه معقودتان بعصبية خلف ظهره ولم يلاحظ نظرات الخدم التى كانت تتسلى بمشاهدته وتدهش لحركاته وكى ينسى ما حدث، ذهب إلى النادي.

٣٠- الرجال يتحدثون عن الاعمال
فى نادى عن أرتيا دى إيطاليا

كسب بيتروسانساردوا، السمسار الذى أصبح حديثاً صاحب شركة إنشاءات، مباراة البوكر وكان يقدم الشراب لزملائه الخاسرين. وكانوا محاطين بأعضاء آخرين يثرثرون حول مصائب عائلة الفاليبى.

كان المحامى العجوز ايتورى مانسيللو يصرح بثقة وبشكل مسرحى أن ريسيكو، شخص سيء من الشيوعيين، قد قدم بالفعل بلاغاً ضد كارميلا، وأن أركان الاتهام متوفرة: سيؤدى ذلك إلى الدمار الحقيقى لسمعة العائلة.

«أفراد عائلة الفاليبى مجانين، عم يبحثون فى مراسلات تلك الخادمة؟ نحن أتراب اوراتسيو نعلم جميعاً أنه كان يطلب بعض المجلات الإباحية من باريس باشتراك خمس سنوات، يدفعها مقدماً، ويرسل منولارا إلى مكتب البريد لاستلامها وتسليمها إلى منزل فاتا من خوفه أن تكتشف المرحومة والدته الأمر. كان يمكن لكارميلا أن تتسلم تلك المجلات إذا كان الاشتراك لا يزال سارياً، أتمنى أن أصبح ذبابة لأرى وجوه أبناء الفاليبى عند فتح تلك الخطابات الحقيقية، إن الأبناء لم يقنعوا بالميراث الذى تركه لهم المسكين اوراتسيو ولم يثقوا بإدارة منولارا لأملاكهم والتى حسب ما شاهدت كانت أمينة.»

شرب كأسه الصغير من الخمر، واستأذن قائلاً « أراكم بعد قليل ثم نهض تاركاً المنضدة ومتجها إلى صالة أخرى من النادي».

بيترو سناساردا كان صديقاً لعائلة ليوني، لذا كان يدافع عن تصرف عائلة الفاليبى: «منولارا كانت لا تزال تدير ممتلكات الدوطة لأدريانا الفاليبى والأبناء محقين فى سعيهم لمعرفة إن كانت ممتلكات العائلة ستؤول إليهم وليس لأبناء شقيقة منولارا. وان كانت كارميلا قد تصرفت بتهور فى مكتب البريد، فتصرفها له ما يبرره.. كم

القلق والأفكار التى تدور برأسها جعلها تبالغ، هكذا النساء، ضعيفات عقل، يحدث للكثيرات. ولكن زوجة ماسيمو ليونى كانت محقة فى الذهاب إلى مكتب البريد وفى السؤال والتحري. فقد كانت تلك الخادمة تتصرف فى ممتلكات العائلة، وإن كانت الآن فى رحمة الله، فهى لم تعطهم كل نصيبهم وإلا فسروا لى كيف تأتى لها امتلاك شقة واستضافة سيدتها مجاناً. كانت ابنة فقراء معدمين وتعيش بمرتب خادمة ونعلم جميعاً أن آل الفاليبى لم يتميزوا أبداً بالكرم مع من يعملون لديهم، قال ذلك وهو ينظر حوله ثم.. عصر كتفيه وبسط ذراعيه وأردف:

أيها السادة: « على هذا النحو والحساب غير صحيح»

قال موثق العقود فينشينسو:

« بيترو، لقد نسيت قصة بيع الأراضى ببلوبرى لقد حصلت منولارا على نسبتها الخمسة بالمائة وهى النسبة التى تستحقها كوسيط فى البيع. فقد نصحت الأخوان الفاليبى بعدم البيع وبالانتظار لمدة عام. وقد كسب « اوراتسيو وفيشينسو كثيراً جدًا بعد اتباع نصيحتها ففى خلال العام، تحولت هكتارات كثيرة من الأراضى الزراعية فى بوليرى إلى أراضى بناء. بعد ذلك أسند أوراتسيو إدارة كل أملاكه إليها. على عكس فيشينسو الذى ركبه الغرور ولم يشأ ترك الأمر لها وتشاجر مع أخيه، فلولا منولارا، لباع الأخوان تلك الأرض التى أصبحت ذهباً للعائلة فيما بعد فقد كتبت عقود البيع والتقسيم وأعرف جيدًا.»

لم يكن سانساردا مقتنعاً:« كانت مجرد خادمة وبعض المعلومات لا يمكن أن تصل إليها، كانت محظوظة. ثم من يجزم بأنهم كانوا غازمين على بيع أرض بوليرى ولم يرغبوا فى الانتظار، من يمكنه الوثوق بتصرفات عائلة الفاليبى.»

لم يستسلم فاتسانوا:« أؤكد لك ذلك، كانوا غارقين فى الديون وكان فينشينسو الفاليبى فى أمس الحاجة إلى النقود، وأوراتسيو كما نعلم جميعاً، كان يجيد فقط إنفاق الأموال. وقد كلفنى الأخوان بكتابة عقد البيع الابتدائى مقابل عشرين مليون

ليرة وهو مبلغ ضخم فى الخمسينات. وذات يوم استدعانى أوراتسيو بمنزله. أتذكر جيداً ذلك اللقاء وكانت منولارا حاضرة بالمكتب، كانت تلمع بعض الآنية، التى اشتراها اوراتسيو، فخار قديم كان يضيع أمواله فى شرائه، وبقيت منولارا بالحجرة مما بدا لى فى غاية الغرابة. أقسم لكم، لم أر اوراتسيو أبداً يتكلم بذلك التصميم والثبات، أخبرنى أن البيع لن يتم، وأن عليّ إخبار المشترين بذلك، لم يكن يريد عروضاً أخرى حتى بضعف الثمن وكانت تلك تراقبه من بعيد بنظرات خاطفة.»

لم يستسلم سانساردا:«ولكن إن كانت بوليرى والأراضى حولها تحولت إلى أراضى بناء، فما دخل منولارا بذلك؟ لا يمكن أن تخبرنى أنها كان لها دخل فى ذلك أو أنه بسبب صداقاتها فى البلدية أو المقاطعة؟ كيف تسنى لها أن تعرف؟ لا أعتقد أنها كانت لديها مصادر تخبرها بذلك ومن هم؟ فكما تعرف زوجاتنا بالأخبار من الخادمات، تفعل الخادمات نفس الشيء مع سيداتهن، ولكن تلك المعلومات لا تعرفها زوجاتنا أو الخدم الآخرون. كانت محظوظة، محظوظة جدًا وحصلت على عمولة كبيرة من عائلة الفاليبى فى صفقه البيع دون أن تستحق تلك العمولة.»

كان موثق العقود بارينى يستمع باهتمام وفى تلك اللحظة تدخل قائلاً:

«تذكروا أن المدينة الجديدة كان ينبغى أن تشيد فى الناحية الأخرى من الجبل فى «باياموتني. لم يتوقع أحد أن تشيد فى بوليري، لا أحد على الإطلاق. وقد دهشت لذلك وخسرت أموالاً وقد اشتريت بالفعل أراضى فى بايا مونتى وبقيت لزراعة الشعير والأرز.

قال ابيتروما نسويلا: «تبا لذلك! ليظهر تعاطفه مع الاستثمار المتهور الذى قام به بارينو الذى لم يلتفت إليه واختتم بسرعة:« تلك المرأة كان لديها من يحميها

و ينصحها جيداً وبالتأكيد ليس الخدم الآخرون.

المهندس بومياتشى، مستشار المقاطعة وشخصية سياسى بارز من حزب اليمين، قليل الكلام ومستمع جيد قال:

« تضيعون وقتكم فى التخمين، كانت محظوظة، أحياناً يحدث.»

كان المحامى مانسيللو، قد عاد لتوه من صالة اللعب وانضم إلى المحادثة ضاحكاً: « محظوظة منولارا ومحظوظ جدًا اوزاتسيو.عقب تلك الصفقة الموفقة، كان يثق فيها تمامًا ولم تفعل ما يجعله يندم على ذلك، ولم يحدث له ما حدث مع فينشينسو، الذى باع كل إرثه مقابل أموال قليلة. ففى ديسمبر ١٩٥٠، قبل صدور قانون الإصلاح الزراعى وكى تتجنب منولارا استقطاع أراضى عائلة الفاليبى، جعلتنى أعمل مثل البغل لحل منازعات قديمة وحديثة لإرث مشترك مع أفراد آخرين من العائلة، كى يتمكنوا من عمل عقود هبة، وبيع صوري، عقود بيع صحيحة قانونيا، استطاعت دائماً أن تحتفظ لعائلة الفاليبى بأفضل الأراضى فقد كانت تعرف أراضيهم شبراً، شبراً مثل خبير. بيترارى كان يبيع لأولئك المساكين الفلاحين الذين كانوا يشترون قراريط قليلة معتقدين أنهم أصبحوا بالفعل أصحاب أراضٍ زراعية وأنهم سينسون عرق العمل والجوع.»

كان الآخرون يستمعون إليه غير مصدقين، لم يكونوا ليتخيلـوا أن منولارا على هذا القدر من الكفاءة وتحمل المسئولية.

قال سانسا رداً: «لا أصدق بالتأكيد تخلط بينها وبين أشخاص آخرين.»

كان مانسيللو لا يستسلم بسهولة:

«ماذا تقول؟ أنا عجوز حقا، ولكن لم أفقد عقلى بعد!. فلنسأل أنجلو فاتسانو... لقد قمت بكتابة العديد من العقود لعائلة الفاليبى فى ذلك الوقت هل صحيح ما أقوله أم لا؟»

أرخى موثق العقود فاتسانو جفنيه وأخفض رأسه مرتين بوجه غامض ففهم الجميع.

أشعل حماسه تأكيد انجيلو فاتسانو، واصل إيتورى مانسيللو الكلام بصوت عال: « أوراتسيو كان يعيش حياة عازب خالى البال، كان يكرر ذلك دائماً لى ويسخر من نفسه. كان يقول إن منولارا عفريتة فى استثمار الأموال كانت تقوم بكل شيء فى البيت، فى الريف، وفى استثمار الأموال.

كان يضايقه فقط حتمية تدخله فى بعض المواقف عندما كان يتعين عليه الحفاظ على المظاهر والتصرف وكأنه من يتخذ القرارات، ففى بعض الأحيان يحتاج الأمر إلى رجل، طبقة معينة من الناس لا تقبل أن تتعامل مع أنثى أمية.« كان يهم اوراتسيو فقط الحصول على الأموال للتسلية، وشراء أشياء لا فائدة منها. ولإنفاقها على نفسه وعلى النساء، ملايين أنفقها على من يسمين ببنات العائلات، أكثر مما كلفته العاهرات!«

قطع مانسيللو حديثه، فقد أدرك وجود جوفانى بارنيو والذى بقى جامدًا لم يبد على وجهه أى تعبير، فقد كان رجلاً متزنًا ثم ابتعد عن مجلسهم واقترب من منضدة لعب أخرى عندما تأكدوا أن موثق العقود باينو لم يسمع حديثهم، استمروا فى الضحك والسخرية حول نفس الموضوع حتى أن فاتسانو حكى:«اوراتسيو كان يؤكد أن الحياة لا معنى لها دون نساء، والأموال التى تنفقها من أجلهن ليست ضائعة، من سخرية القدر أنه استطاع التمتع بالنساء بفضل عمل خادمة بل وعانس.»

اتخذ، الحديث نبرة لاذعة عن الخدمات الخاصة التى تقوم بها بعض الخادمات الشابات لأسيادها حقا، أدرف مانسيللو: «يمكن التأكيد أن منولارا قدمت لاوراتسيو ولعائلة الفالبيى كلها خدمات خاصة بل من نوع نادر، كانت حمارا يخرج نقودا وفى الحقيقة، لو كانت فى الفراش بنفس البراعة التى كانت عليها فى أعمال البيت والإدارة لكان اوراتسيو من أسعد الرجال حظا، ولكن المرء لا يمكنه الحصول على كل شيء فى هذه الحياة وكنت أحسده على منولارا.»

قال فاتسانو

«خادمة ماهرة، مخلصة وأمينة لا يوجد مثلها.»

عاد الموثق بارنيو إلى الصالة، كان يتظاهر بمتابعة اللعب بالمنضدة القريبة ولكنه

فى الواقع كان منصتا لحديثهم بينما كان يفكر فى ابنته الحبيبة وفى الألم الذى سببته لها منولارا. اقترب من المجموعة وقال:

«أنثى تجيد العمل، نعم ولكن أمينة لا أعتقد، بالتأكيد رجل ذو مكانه لن يذهب إلى جنازة خادمة أيا كانت، لجنازة عشيقة ربما.. وبعد أن قال ذلك، استأذن منهم بتحية تصبحون على خير وأدار قدمه وخرج من المنتدى محييًا من يقابله من الأعضاء فى الطريق بأدب دون التوقف للحديث معهم كالمعتاد وإنما عاد إلى بيته مباشرة.

بهت الحاضرون من المزحة الصريحة لرجل معروف بالتسامح واللياقة ثم عادوا إلى ثرثرتهم بحبور، وقد شعروا بالحرية فى الحديث والنميمة أكثر عن مغامرات ريتا بارينو، تفرع الحديث وتشعب إلى الأحاديث التقليدية المملة ذات التلميحات الصريحة عن مغامرات الأرامل داخل الإطار الأخلاقى واحترام التقاليد وبالطريقة اللائقة. وعن تصرفات بارينو، وتسامح الوالدين معها بشكل تعدى حدود اللياقة الاجتماعية.

وفى ساعة متأخرة، ترك الموثق فاتسانو النادى بصحبة المهندس بومياتشى، وقطعا سويا جزءًا من الطريق سيرا على الأقدام كانا صامتين. وعند مفرق الطريق وعند تحية كل منهما للآخر، قال له بومياتشي: « لو كنت صديقًا لعائلة الفاليبى، لقلت لهم بأن يعتنوا بأمورهم، وألا يفكروا فى أشياء قد تجلب لهم المصائب. وإذا كنت صديقا لبارينو، لنصحته بأن يتحدث قليلا، لقد تحدث كثيرًا هذا المساء، وعليه أن يحترس لما يقوله. ونظرًا لأننى صديقك ياعزيز انجيلنيو فإننى أقول لك إنه من الأفضل عدم الحديث بالخير أو بالشر عن بعض الراحلين.»

صافحه فاتسانو مصافحة طويلة، ضغط فيها على يده وعاد إلى بيته راضيًا بالثقة التى أظهرها له المهندس بومياتشي، الرجل الذى يترقى فى السياسة الاقليمية، لذا فهو صديق من المهم الاحتفاظ بصداقته.

خلال الليلة بين الاربعاء ٢٥ الخميس ٢٦ سبتمبر، تعرضت حديقة منزل بارينيو الريفى لخسائر كبيرة على يد مجهولين.

شاءت المصادفة أن تكون السيدة ريتا أول من يكتشف ذلك، عندما ذهبت فى صباح يوم الخميس الصباح، عندما ذهبت بزهور البصل لزراعتها فى الربيع القادم. وجدت تخريبًا كاملا بالحديقة. نباتات وشجيرات اجتزت جذورها، كانت أحواض النباتات قد امتلأت بالقاذورات فقد أزيلت النباتات أولا بالفأس، بشكل دمر الزهور الجميلة الموجودة بالأحواض ثم غطيت بالحجارة والجبس، تهشمت الآنية الفخارية الجميلة، وجذت النباتات المزدهرة من جذورها ثم هرست بالأقدام، فى حين شوهت ضربات البلطة الأشجار الناضجة وجرحت جذوعها، قلبت التماثيل والمقاعد الحجرية فوق الأرض وقد قطعت رووس التماثيل. حوض الحوريات ذو المياه الرائقة الشفافة مصدر فخر ريتا، كان مملوءًا بالوحل الطرى ذى الرائحة الكريهة، الأسماك الصغيرة الملونة طافية فوق الطمى، ميتة.

وذات الأحجام الكبيرة ممزقة البطن متدلية الأحشاء وقد وضعت بعناية فى صف فوق أحجار البراكين التى تمثل مقاعد حول الحوض. أقسم الفلاح، حارس الفيلا بحياة أولاده ورحمة أبيه أنه لا يعلم شيئا. ففى الليلة السابقة كان قد روى الحديقة وتركها معطرة، مزدهرة وكأنها الجنة لم يسمع أية ضجة، أو صوت أثناء الليل وهذا ما أكدته أيضا زوجته وأولاده.

فى ذلك الصباح، تغيب عن الحديقة وذهب ليعزق فى أرض بعيدة بينما زوجته التى كانت فى الغالب تبقى فى البيت ذهبت إلى البلدة لزيارة أمها المحتضرة. شاء الحظ العاثر أن يحدث ذلك فى أثناء غيابه مع عائلته، حضر أولئك الأوغاد ودمروا الحديقة بهذا الشكل. وهم فى أغلب الظن من الأولاد المتشردين الذين يصلون إلى روكاكولمبا بسهولة من الطريق السريع ويتجولون فى الأراضى الزراعية، أردف وهو يقلّب كفّيه من الحسرة أن أكثر ما يؤلمه أن السيدة ريتا اكتشفت ذلك الدمار قبله ولم يتسع له الوقت لتنظيف الحديقة وإزالة آثار الدمار والأفنان المجتزة، والنباتات المنزوعة، و الأسماك كريهة الرائحة، كى يجنب السيدة ريتا التى يحبها كثيرًا مثل ابنته، الحزن عند رؤية حديقتها المحبوبة على هذا النحو.

-٣١- الخميس ٢٦ سبتمبر ١٩٦٣

الأب ارينا يقابل الرئيس فاتا فى الميدان ويتناولان جرانيتا

كان الأب ارينا يخرج من مكتبة بيكوريلا ويرتقى الطريق، محملًا بالكتب ويتصبب عرقًا.

هبت رياح الخريف التى لا تزال حارة، فبعثرت خصلات شعره ولم تنعشه. كان سعيدًا بأنه انتهى مما ينبغى عمله سريعًا ليعود إلى الريف فى الصباح. كانت رغبته فى الرحيل عن روكاكولومبا تستعر ويستشعر لذة قراءة الكتب التى استبدلها بالكتب المهداة له من أدريانا الفاليبى. كان يرى نفسه جالسا فى حديقته الصغيرة، وفى الخلفية زهور الخريف، تشكل الخلفية الرائعة ليريح بصره كل حين أثناء القراءة.

هزه صوت الرئيس فاتا قائلاً:

«تحياتنا أب ارينا»

أجاب الأب أرينا

«تحياتى يا حضرة الرئيس

أضاف الأب ارينا بنبرة احترام وحسم لمن لا يتوقع رفض طلبه:

«هل أستطيع دعوة سيادتك إلى شراب؟

وجد الأب ارينا نفسه جالساً إلى منضدة ببار إيطاليا بصحبة بيترو فاتا الذى يعرفه منذ سنوات عديدة ولم يكن بينهما أية حميمية، ونحى جانبا أمل اللحاق بحافلة الصباح.

بمجرد ابتعاد النادل بالطلب، شرح بيترو فاتا له سبب الدعوة:

« أعتذر عن تطفلى، ولكنى علمت بأن لديكم كتبًا لدانونسيو، اختارتها ليللا الفاليبى من مكتبة ارواتسيو. أخبرت أدريانا زوجتى أن اوراتسيو كان يود إعطاء

هذه الكتب لى. بصراحة لا أدرى لماذا فهى كتب لكاتب قديم، وقد قرأتها كلها عند صدورها وليس لدى نية إعادة قراءتها. ولكن أدريانا مصممة على ذلك وأريد إرضاءها. هل يزعجكم استبدالها بكتب أخرى؟»

شعر الأب ارينا بالاضطراب. غمغم بكلمات مضطربة، توقفت الجرانيتا بحلقة، وكادت تسيل على ذقنه، أحتاج إلى شرب رشفة مياة، لم يكن فى إمكانه ايجاد إجابه تجنبه الخجل من الإفصاح عن أنه قد استبدل هدية السيدة الفاليبى بالكتب الموجودة فى الكيس الذى يكاد يغطيه طرف ردائه الكهنوتى والملقى عند قدميه. خفض عينيه ونظر اليه، وتمنى أن ينحشر فى ذلك الكيس، أن يسحق ويتحول إلى ورقة لا يلاحظها أحد ويهرب من مخالب الرئيس الناعمة.

ظن بيترو فاتا أن القسيس لا يريد التنازل عن هذه الكتب. فقد ارتكب الأب ارينا الكثير من المغامرات أثناء شبابه، ربما كان يود معرفة دانونسيو منذ وقت طويل وطلبه هذا يحرمه من الفرصة الوحيدة للحصول على هذه الكتب بطريقة بريئة.

ضم شفتيه لإخفاء ابتسامة ساخرة، ثم قال:« لايساور سيادتك القلق، لتحتفظ بهذه الكتب فهى مهداة لسيادتك. ولكن هل تسمح لى بتصفحها سريعا؟ كان اروراتسيو يدون أحيانا فى بعض الكتب بعض الملاحظات على النصوص، أعدك بإعادتها خلال الغد.»

عندئذ رفع بصره بنظرة كلب مطارد، شرح الأب أرينا متلعثماً بعزة نفس وتحفظ أنه أيضا لا يعجبه دانونسيو وأن كتب أوراتسيو معروضة للبيع بمكتبة بيكوريلا بقسم الكتب المستعملة.

كان يحب القراءة كثيراً ولكنه لم يكن يستطيع شراء الكتب الجديدة وكانت السيدة بيكوريلا تسمح له باستبدال الكتب التى قرأها بكتب جديدة تعجبه. أضاف بحرج كبير:« انه لا يريد ان يجرح السيدة الفالبيى ويثق فى حصافة بيترو فاتا. ابتسما، وقد اتضح الامر وأصبحا شريكين فيه.

كان المحامى مانسيللو قد دخل لتوه إلى البار بصحبة زوجته. وقد لمحهما فى تلك اللحظة الهامة، أساء فهم تصرفهما، اقترب من منضدتهما وقال بصوت مرح:« أراهن أنكما تتحدثان عن إعلان الوفاة الثانى لمنولارا، إنها حقا مسرحية!» الأب ارينا وبيتروفاتا، ردا فى نفس الوقت بالتعبير الشائع بين الصقليين: جعدًا جبهتيهما، وزما شفتيهما المغلقتين إلى الخارج قليلا.

أطلعهما مانسيللو على الموقف: إعلان الحائط تم ترقيعه بإضافة بعض عبارات الثناء البليغة عن منولارا وإعلان وفيات آخر، ظهر فى جريدة «جورنال سيشيليا» وضع يديه فوق المنضدة الصغيرة، منتظرًا أن يتم دعوته للجلوس معهما، ولكن نداء زوجته أجبره على اللحاق بها وقد شعر الأب أرينا وبيتروفاتا بالارتياح لذلك.

بعد أن بقيا وحدهما، شربا فى صمت وبرشفات كبيرة بطيئة كل كأس المياه، قال بيترو فاتا:

«هناك أشياء ليست على ما يرام بمنزل الفاليبي، أيها الأب، وذلك الأمر يقلقني، أنا أيضا كنت أشعر بالمودة لمنولارا وأريد أن أتحدث معك عنها، بمنزلي، هذا المكان مزدحم بالناس. هل يمكننى دعوة سيادتك إلى تناول الغداء؟»

كان الأب أرينا يريد الهروب من البلدة، لذا لجأ إلى كذبة، وقال إن لديه بالفعل ارتباطًا ولكنه اضطر للموافقة على زيارة فاتا يوم الاثنين القادم فى الرابعة ظهراً.

افترق الرجلان واتخذ الأب أرينا طريقه بقلب واجم مهموم. وتعمد ألاَّ يشترى الجريدة ولم ينضم إلى جمع الفضوليين الذين كانوا يقرأون ويعلقون بصوت عال على التصحيحات الملصقة فوق الإعلان القديم.

وعلى العكس ذهب بيترو فاتا مباشرة إلى مكتبة بيكوريلا وهو يأمل ألاَّ يجد فى تلك الساعة من النهار، ابنة عم زوجته. إلا أنها كانت هناك، ثرثارة سخيفة كالعادة.

كانا يعلمان أن النفور بينهما متبادل، ولكن فى حين كان يحرص على تجنبها كانت روزاليا بيكوريلا تتحين الفرص للدخول معه فى أحاديث ومناقشات سخيفة مليئة بالتلميحات.

وعدته بأن تجد الكتب بمجرد أن ترتبها الموظفة فقد كانوا فى مجموعة من الكتب المستعملة فى المخزن. قال بيترو:« أستطيع أن أنتظر، أشكرك ونهارك سعيد». وكان على وشك الانصراف. ولكن بيكوريلا أوقفته بـ «انتظر يا بيترو، ماذا يحدث فى بيت أدريانا أسمع أشياءًا مقلقة؟.. يبدو الأمر مسرحية هزلية ولكن لا أود أن تتحول إلى تراجيديا.» قريبة زوجته تعامله بقدر من عدم الكلفة، لا تبررها القرابة البعيدة. تضايق بيترو وقال بعصبية «تقرئين كثيرًا عن المآسى ليس فى الأمر أى ظل للتراجيديا الأمر يتعلق فقط بموت امرأة فى منتصف العمر.»

تعجبت وقد شعرت السيدة بيكوريلا بالإهانة فرفعت صوتها:

«أنت من يقول هذا.... وهل هذا ما حدث أيضًا مع كارميلا والتحذير الذى تلقاه ماسيمو، والرجال ذو المكانة الذين حضروا الجنازة، بل يتحدثون عن شكوك حول وفاة منولارا وتعتقد أننى أبالغ!»

ألقى إليها بيترو فاتا بنظرة باردة، رفع قبعته وخرج مرددًا:«نهارك سعيد مرة أخرى.»

عاد إلى بيته، وقد اختار السلم الذى لا يرتاده الكثيرون كى يتجنب مقابلات أخرى.

التفتت السيدة بيكوريلا نحو الفيرا ريسيكو وقالت لها:

«لا تشغلى بالك بالبحث عن تلك الكتب الآن، يمكنك البحث عنها يوم الاثنين، ذلك المغرور زوج ابنة عمى يمكنه الانتظار، لولا زوجته لما تعامل معه أحد من روكاكولمبا من شدة غطرسته.»

-٣٢- روكاكوملبا متحيرة من إعلانات وفاة منولارا

دهش أهالى روكاكوملبا ولكن ليس لمدة طويلة، عندها أدركوا أن إعلان الحائط عن وفاة ماريا روزاليا انسيريللو قد حدث به بعض التصحيحات.

وقد ألصقت أسفل بيانات الراحلة، قصاصة من الورق، كتب فيها:« مديرة أملاك وعاملة بمنزل الفاليبي. بكل الأسى تنعيها عائلة الفاليبى وتعبر رعن خالص الحزن لمصابهم الأليم وخسارتهم الفادحة.» وشريط آخر صغير فى أسفل الإعلان: «عاشت بمنزل العائلة الفاليبى منذ سن الثالثة عشرة، خدمت بإخلاص العائلة التى تبكيها بحرارة.»

نشر الإعلان أيضاً بجريدة« جورنال دى سيشيليا»، بشكل كامل تضمن أيضاً تاريخ مراسم الجنازة والذى أصبح تاريخًا فائتًا.

ظن القليلون الذين لا يعرفون الفاليبى ومنولارا أن الأمر يتعلق بخادمة محبوبة جدًا من سادتها الذين لم يتفقوا على نص النعى بسبب اضطرابهم عند وفاتها، لذا أرادوا تعديله بشكل رسمى وإن بدا غريبًا.

أما من كانوا يعرفونهم، ولهم علاقة مباشرة مع عائلة الفاليبي، فكانت دهشتهم مضاعفة.

فلم يتوقعوا نعياً آخر وإضافة كلمات مدح أخرى إلى الراحلة بعد مشاهدتهم أثناء الجنازة وزيارات العزاء وإنما إعلان تحذف منه بعض كلمات المدح والثناء أى عكس ما حدث.

وكان السؤال الأول الذى طرحه أهل روكاكوملبا: لماذا كل هذه الإعلانات وكان تفسير الأمر فى غاية البساطة أبناء الفاليبى أصيبوا بالجنون، وكان السؤال الثاني: ما الذى أفقدهم رشدهم؟

وعن هذا السؤال البسيط المخدد لم ينجحوا فى إيجاد إجابة منطقية مقنعة.

وكان رد فعل الأصدقاء والمعارف كما هو متوقع، الذهاب إلى بيت الفاليبى مستغلين العرف الذى يقضى بأن زيارات التعزية فقط يمكن القيام بها دون دعوة وأحيانا دون إخطار. استقبلت أدريانا الفاليبى التعزية بالعرفان والأدب المعهود. كانت تبدو حزينة شاردة تجهش بالبكاء بسهولة وبكثرة. كانت الزيارات متعددة لدرجة أنه لم يتسن لأحد الفرصة لسؤالها عن سبب تكرار إعلانات وفاة منولارا.

فى الحقيقة لم يكن لقاء أدريانا الهدف من تلك الزيارات، وإنما مقابلة الأبناء ومحاولة فهم دوافعهم من خلال تصرفاتهم أو من خلال الإجابة عن بعض الأسئلة الملتوية غير المباشرة التى تُسأل فى مثل هذه الظروف.

ويبدو أن الأبناء قد خمنوا ذلك، فجانى عاد مسرعًا إلى كاتنيا، وكارميلا ظلت مع الأم لفترة قصيرة قبل أن تعود إلى البيت لشعورها بصداع نصفى ولكن الجميع كانوا يعلمون أنها لا تزال تعانى من ضرب الزوج.

أما ليللا فقد كانت مشغولة جدًا باستقبال، وتوديع الأشخاص العديدين الذين توافدوا على بيتهم ونجحت دائما فى تجنب الأسئلة المباشرة عن إعلانات الوفاة إلى أن حضرت ابنتا الخالة أرتوا فجأة فى ساعة الغداء.

ماريلا وتاننيا ارتوا عجوزان عانسان ترتبطان بصلة قرابة بعائلة الفاليبي. لم تكونا ثريتين فقد تزوج جدهم من خادمة وبسبب هذه المخالفة للتقاليد حرم من الميراث. كانتا تعيشان من إيراد محل الخردوات الذى تملكانه، وكانتا محبوبتين فى البلدة لطيبة قلبيهما ولأنهما لا تتحدثان بسوء عن أحد وتساعدان الجميع.

وكانتا تتمتعان بخصلة أخرى محببة فى كل البلدة، على الرغم من أنهما لا تتحدثان بسوء عن أحد ولا تحبان النميمة، غير أنهما لا تحفظان أى سر.

كانتا تكرران كل ما يقال لهما وتحكيان كل ما تشاهدانه. ليس فقط دون مبالغة أو تجميل ولكن أيضا دون أية تعليقات سلبية، كانتا تلغراف البلدة اللاسلكي.

ماريلا طلبت من أدريانا أن تطلعها على تطريز معين، وذهبت المرأتان إلى صالون العمل. بقيت ليللا وحدها مع تانينا أرتوا التى سألتها بصراحتها المعهودة: «يجب أن تخبرينى لماذا غيرتم إعلان الوفاة، لقد سألنى الكثيرون عن ذلك فى المحل، أريد أن أجيب بالحقيقة وإلا سيظن الناس بكم السوء».

وكانت ليللا قد جهزت مع جانى تفسيراً يقال للناس وانتهزت فرصة عدم وجود كارميلا لإذاعته: «الذى تقرأونه ليس الإعلان بعد تغييره، وإنما هى النسخة الحقيقية لإعلان الوفاة. يؤسفنى قول ذلك ولكن الخطأ، خطأ ماسيمو، فقد عرض أن يقوم بنشر الإعلان الذى أعددناه سويًا. تعلمين جيدًا أن أمى كانت متعلقة جدًا بمنو وأمام إصرار أمى قمنا بكتابة خبر الوفاة كما أرادت منيو. لست أدرى كيف ولماذا ولكن الإعلانات التى ظهرت يوم الثلاثاء لم تكن كاملة، ماسيمو نسى بعض العبارات، أو ربما لم يقرأ جيدًا المسودة التى أعدتها. لا أدرى بالضبط ولكن الحقيقة أن أمى استاءت جدًا وقررنا أن إرضاء والدتنا أهم لدينا من انتقادات الناس، أخيراً سيقرأ الناس النص الحقيقى الكامل.»

أما ماسيمو وكارميلا فقد حكيا الأمر بطريقة مختلفة بعض الشيء» لا أحد يدرى كيف ولكن سواء عامل الطباعة، أو التحرير بجريدة« جورنال سيشيليا» حذفا بعض الكلمات من النص الأصلى وقد اعترض ماسيمو على ذلك، شارحًا الألم الذى سببه الحذف لحماته، لذا قررا تصحيح الإعلان على نفقتهما.»

الآنستان أرتوا بذلتا كل جهدهما لنشر القصة كما حكتها ليللا ولكنهما وجدتا أشخاصًا قليلين مستعدين لتصديقها، أما حكاية ماسيمو وكارميلا، فقد كذبها عامل الطباعة.

-٣٣- ليللا تحاول فهم ما يحدث
تتذكر أحداث الماضى وتقتنع بأن منولارا كانت محقة

وفى صباح الخميس ٢٦ سبتمبر تحدثت ليللا مع زوجها محادثة تليفونية طويلة، وكان الزوج غاضبا لنشر الإعلان الثانى بجريدة «جورنال دى سيشيليا». سألها جان ماريا عن تفسير معقول لما حدث، وكان ذلك مستحيلا لأنه لا يوجد. أجهشت ليللا بالبكاء، وحكت لزوجها عن حضور رئيس المافيا للجنازة، وخدش سيارة ماسيمو، الرسالة التى تحمل بوضوح طابع المافيا والتى ترجعها إلى رفضهم نشر النعى كما أرادته منولارا.

اعترفت بالخوف كما لو كانت منولارا قد تحولت إلى روح شريرة تحلق فوق عائلتها، ولن تهدأ حتى ينفذوا كل أوامرها، كانت مقتنعة أنهم يراقبونها فى البلدة، وكانت تخشى على حياتها وحياة ابنتها. أمرها الزوج أن تعود للبيت فى اليوم التالي.

التأكد من العودة إلى روما، هدأت من روعها وجعلتها تتحمل بصبر عبء زيارات التعزية. وفى تلك الليلة بعد أن أصبحت وحدها، بدأت فى إعداد الحقيبة واستطاعت أن تتأمل بهدوء. لم تكن هناك أية إشارات أو تحذيرات أخرى، وكادت تشعر بالخجل من تصرفها الهيستيرى فى الصباح والذى عزته إلى كرهها لروكاوكولمبا ولعائلتها.

كانت ليللا تعود إلى البلدة بسعادة لزيارات قصيرة، أثناء حياة أبيها، قرار الأم أن تنتقل للعيش بمنزل الخادمة جعلت زياراتها غير محتملة، وكان هذا أيضا بسبب منو، التى ساءت علاقتها بها بعد وفاة والدها.

بدأ الامر عندما مرض أبوها. صمم والديها ومنو على عدم استدعاء ممرضة، وأن تقوم منو بتمريضه. وافق الدكتور منيدكو على هذا الحل ومنو التى كانت قد مرضت أمها من قبل ثم جدتها تحملت هذا العبء وأظهرت أنها ممرضة ممتازة.

كانت ليللا قد عادت إلى روكاكولمبا قبل موت أبيها بأيام قليلة وسرعان ما شعرت بالتغير فى سلوك منولارا، على الرغم من عدم إهمالها لواجباتها، كانت فى الغالب

غائبة عن حجرة اوراتسيو خلال النهار، عند وجود أقاربه بجواره وكانت تظل بجواره فى الليل، كانت تقول إنها ينبغى أن تراعى الأرض والأعمال الأخرى ولكن حدث أنه عند موت أوراتسيو، كانت منو خارج المنزل، غابت فى أشد اللحظات حاجة إليها، وعند عودتها عبرت عن ألمها بشكل متحفظ ثم غرقت فى أعمال المنزل والتحضير للجنازة.

وذات ليلة، بعد وفاة أبيها بأيام قليلة، كانت العائلة مجتمعة لتناول طعام العشاء، ماعدا ماسيمو الذى كان خارج البلدة.

لم توافق منو على زواج كارميلا وعندما كان ماسيمو يزور حمويه، كانت منو تحبس نفسها فى حجرة الخدم، وكانت ترفض تقديم الطعام فى المرات النادرة التى تناول فيها ماسيمو طعام العشاء ببيتهم، تاركة هذه المهمة لسانتا، الخادمة الأخرى.

وعلى الرغم من أن ليللا أيضا لم تكن راضية عن هذا الزواج إلا أنها كانت تعتبر تصرف فرض الرأى من جانب منو غير مقبول وأيضا خضوع والديها لها، مسامحتهما لها على التصرف بهذا الشكل.

وفى تلك الليلة قامت منو بالخدمة وتقديم الطعام، كما فى الأيام الخوالى وفى نهاية العشاء وضعت طبق الفاكهة فى منتصف المائدة، ثم أحضرت أحد المقاعد المستندة إلى الحائط وجلست معهم. كانت هذه عادتها منذ أن بدأت فى إدارة أموالهم فكل حين كانت تجلس معهم لمناقشة أحد الأمور الهامة.

«أنا من خدم عائلة الفاليبي، وعندما دخلت إلى بيتكم، وعدت السيدة ليللا رحمة الله عليها أن أخدم ابنها اوراتسيو طوال العمر وقد حافظت على الوعد وأديت واجبي. الآن أنا متعبة وعظامى تؤلمني، وحان الوقت لأستريح. أخبركم أننى لا أريد الاستمرار فى العمل.» رفعت يديها من فوق المائدة ووضعتهما فوق مريلتها البيضاء، يداها صغيرتان مشربتان بحمرة الشمس والغريب أنهما رقيقتان خاليتان من أية نتوءات جلدية غليظة.

نظرت بعينيها السوداوين إلى كل منهم، توقفت برهة عند كل واحد، دون أن تشى بأى إحساس، بل بقيت ثابتة فى انتظار إشارة منهم.

ولم يحدث، فأردفت منو قائلة: «لقد اشتريت بيتا بالقرب من هنا من حجرتى نوم وقد أثثته بالكامل وبه تدفئة مركزية وتكييف هواء. سأظل بخدمتكم لمدة شهر آخر لأساعدكم فى تقسيم ميراث والدكم وإن أردتم يمكننى إدارته لكم دون مقابل ثم سأترك قصر الفاليبى وأذهب إلى بيتي.»

«ماذا تقولين يامنو، أتتركين الآن؟» الآن بعد أن رحل أوراتسيو؟« كان صوت أدرياناخافتاً، ضعيفاً، والدموع تتساقط فوق قشر الفاكهة فى طبقها.

قال جانى بنبرة سلطوية فى محاولة مزرية لتأكيد دوره الجديد كرب للعائلة:

«لا يبدو لى أن الوقت مناسب للحديث عن تغيرات مفاجئة وكبيرة.»

«بل على العكس، بعد مرور أسبوعين من زيارات التعزية سيعود كل منكم إلى بيته وحياته وسيبقى كل شيء كما كان. ولكن ينبغى أن تدركوا أن الأوضاع تغيرت بالنسبة لأمكم. هذا البيت واسع جدًا، ولا يوجد به تدفئة مركزية ويجب إنفاق أموال طائلة لجعله مريحًا أنا وأمكم نشيخ يوما، بعد يوم، سيأتى اليوم الذى لن أستطيع خدمتها كما تعودت وكما تستحق.»

صمت الجميع. فقد كانت إجابة منو لا تسمح بالمناقشة.

وعند هذه اللحظة، رفعت الأم عينين مستعطفتين وسألت: «منو، من سيعيش معك؟»

أجابت منو وقد خفّضت صوتها: «لا أحد، فليست لى عائلة فى روكاكوملبا.»

ردت أدريانا:

«هل أستطيع العيش معك فى بيتك؟ لن أزعجك، أنا لا أستطيع أن أعيش وحدى وأنت تعلمين ذلك.» التفت الأبناء ونظروا إليها دهشين، بينما كانت دموعها تتساقط بغزارة.

بقيت منو جامدة ولكنها لم تتأخر فى الرد: «إن وافقتم جميعا، لا مانع عندي، ولكن الشروط ينبغى أن تكون واضحة، سأخدمها كما كنت أفعل دائما فى بيتى ولكن جلسات لعب الورق والزيارات ستكون فى بيت الفاليبي، سأقوم بتنظيف الصالون وغرف النوم لكم عندما تأتون إلى روكاكولمبا ولكن للنوم والطعام ستظل فى بيتى ضيفة مكرمة.»

كانت كارميلا أول من تحدث:« حقيقة لا أفهم ماذا أصابك، يامنو. تقولين ذلك الآن... قد توفى والدى منذ وقت قصير ألا تستطيعين الانتظار لأيام قليلة؟ لم أتحدث مع ماسيمو فى ذلك الأمر، أعلم أنك لا تريدين رؤيته ولكنه زوجي، ولا أستطيع اتخاذ قرارات بدونه. يمكن أن تنتقل أمى لتعيش معى فى بيتي، أو ربما يمكن إيجاد حل آخر».

وانخرطت فى البكاء، مخبئة وجهها بفوطة المائدة.

بقى جانى وليللا صامتين، كان يقطع الصمت فقط أنين الأم، ونحيب كارميلا الخافت المكتوم بفوطة المائدة.

ارتفع صوت منو بازدراء: «غبية! وقد خاطبتها بأنت، كما لو كانت لا تزال طفلة» «غبية وكنت غبية عندما وافقت على الزواج من صياد الدوطة.

ألا تفهمين أن حلًا مثل هذا، يحفظ ماء وجهه أمام البلدة كلها لأن أمك تستطيع استقباله عندما تريد بقصر الفاليبي؟ يمكنه أيضا النوم فى هذا المنزل».

تحتم على ليللا التدخل:«هل يمكن أن نؤجل هذا النقاش على الأقل إلى مساء الغد؟» أتخيل أن أبي كان يتمنى ألا نصل إلى الشجار، ثم إن أمى تبكي.»

أجابت منولارا:

«أنتم على حق! للغد إذن، ولكن ليكن واضحًا أننى سأعمل لمدة شهر واحد فقط وأنتظر إجابة سريعة.» نهضت منو عند قول ذلك، وبدأت فى رفع الأطباق من المائدة فى صمت.

وفى تلك الليلة، تشاجر الأبناء للمرة الأولى مشاجرة عنيفة مع أمهم، وقد عرضت كارميلا أن تستضيفها فى بيتها، بينما اقترح الآخران بقاءها بقصر الفاليبى والعثور على خادمة أخرى فقد حان الوقت للتخلص من منو التى ستصبح طاغية حقيقة الآن، بعد وفاة الأب الذى كان يمكنه السيطرة عليها. أكدت ليللا لأمها أن زوجها الذى يبغض تدخل منو فى شئون العائلة، وطريقتها الفجة فى الحديث باللهجة، والألفة الزائدة إزاء العائلة، لن يسمح بأن تعلم ابنته أن جدتها تعيش فى بيت الخادمة وغالبًا سيمنعها من اصطحاب الطفلة معها إلى روكاكولمبا. أما أدريانا الفاليبي، فقد بدت سعيدة بالذهاب للعيش فى بيت منو أيًا كان وفى أى وضع ولم تعتبر ذلك التصرف مخزيًا أو شاذًا.

استمر الجدل بين الأم والأبناء فى الأيام التالية دون الوصول إلى اتفاق، استمرت منو فى العمل فى صمت ولم تعد للحديث فى ذلك الأمر.

وأثناء ذلك أخبرها الأخوة الثلاثة أنهم سيديرون ميراثهم بأنفسهم دون الحاجة إلى مساعدتها. أجابت بأنهم مخطئون وباستعدادها لمساعدتهم إن احتاجوا إليها.

وهكذا انتقلت فى نهاية الشهر السيدة أدريانا للعيش فى شقة منو المتواضعة رغم اعتراض جانى وليللا اللذين باعدا بين زياراتهما، ولم تعد ليللا بعد ذلك إلى روكا كلومبا. وأصبحت الجدة ترى حفيدتها فقط فى روما عندما تذهب إليها أثناء الصيف. كارميلا على العكس منهما كفت عن الاعتراض على إقامة أمها مع منولارا لأن ذلك كان مريحًا لماسيو الذى خشى من تحمل عبء إقامة حماته معه.

قابل الإخوة الثلاثة، نظرًا لعدم خبرتهم، العديد من المشكلات فى إدارة أملاكهم. واضطروا كارهين لطلب المساعدة من منولارا وعندما ساعدتهم فى حل مشكلاتهم، كررت عرضها بالإدارة وأمام رفضهم أبلغتهم أنها لن تساعدهم مرة أخرى مما أثار حفيظتهم واشعرهم بالإهانة. طلبوا من أمهم أن تعفى منو من إدارة أملاكها، إلا إنها رفضت مما وتر العلاقات بينهم.

بعد قداس الذكرى الأولى لموت أبيهم، والتى أقيمت فى روكاكولمبا، طلبت منو مقابلتهم على انفراد. وقدمت اقتراحًا أدهشهم:»

إن السيدة ليللا وأباكم رحمة الله عليهما، ليحزنان كثيراً، لو علما بندرة زيارتكم واتصالاتكم التليفونية لأمكم: يجب أن تحترموا أمكم أكثر من ذلك.

يؤلمنى أن أرى تباعدكم وانصرافكم عن والدتكم وأفهم أن ذلك بسببي، بسبب حربكم معي. لا أطلب منكم المصالحة لأننى مقتنعة بحسن تصرفى وأنتم أيضًا، وقد تحدثنا فى ذلك كثيراً. ولكن السيدة أدريانا تعيسة، لأنها لا ترى أبناءها كثيراً ولا يعجبنى ذلك. وأود أن تتحدث ليلاً وجانى معها فى التليفون أسبوعياً ويزرنها مرة فى الشهر بينما تزورها كارميلا أربع مرات شهريًا.

«لقد استثمرت أموالى جيدًا ولدىّ دخل جيد. لذا أعرض عليكم الآن: سأعطى لكل منكم نصف مليون ليرة كل شهر، ولكن يجب أن تحضروا إلى منزلى لتأخذوها، ستكون النقود جاهزة فى يوم ٢٥ من كل شهر وإن لم تزوروا أمكم كما اتفقنا، ستفقدون المبالغ.»

قبل الإخوة الثلاثة الاتفاق. وعاشت أدريانا سعيدة بمنزل منو وكان أهل البلدة يمتدحون ليللا، الابنة المحبة التى تزور أمها كل شهر، ولاتتغيب أبدًا عن زيارتها.

أقرت ليللا، رغم إهانات منو إلا أنها بشكل عام كانت محقة فى القول بعدم خبرتهم فى إدارة ميراثهم من أبيهم وفى رفضها لزواج كارميلا. الآن بعد وفاة منولارا، تشعر ليللا بخسارة المبلغ الذى كانت تأخذه شهريا، بل تشعر بالوحدة، الأخ والأخت مختلفان عنها وقد اختارا أسلوباً للحياة يختلف تماماً عن أسلوبها.

الأم كانت حاضرة معها بجسدها أثناء فترة الطفولة والمراهقة، إلا أنها كانت بعيدة عنها بمشاعرها، أم فى غاية الأنانية. عانت فى طفولتها من تفضيل أمها الواضح والصارخ لجانى ولكن الآن فهمت أن ذلك كان عبئا إضافيًا لشقيقها ضحية حب أمه

الخانق. وكارميلا كانت أنانية، تافهة مثل أمها وبعد الزواج انحدر وضعها الاجتماعي.

بث أبوها فيها حب الفن ولكنه لم يكن موجوداً عند الحاجة إليه. وقد أهمل كثيراً أيضا جانى وكارميلا. عاش والداها تحت سقف واحد حياتين مختلفتين، فكان كل منهما يعطى الأولوية لاحتياجاته قبل الطرف الآخر والأبناء. وعلى الرغم من خيانات الأب المتكررة إلا أنه يمكن القول أن زواج والديها كان زواجاً ناجحاً: لا تتذكر ليللا لحظة عاطفة بين الأبوين أو نحو الأبناء، كما لا تتذكر كذلك حدوث شجار أو نزاع.

لقد عملت منو كثيراً لحفظ التوازن والاستقرار المادى للعائلة. ربمّا يجب أن يشعروا بالامتنان لها على ذلك وبينما كانت تفكر فى رحلة العودة إلى روما، نامت هادئة.

-٣٤- الجمعة ٢٧ سبتمبر ١٩٦٣

البريد يحمل أخباراً جديدة تبث الأمل فى نفوس أفراد عائلة الفاليبى

كانت الساعة الثامنة صباحًا، السيدة الفاليبى وليللا، كانتا تتناولان القهوة فى غرفة نوم السيدة قبل أن تستعد ليللا للعودة إلى روما. يمثل وداع الوالدين دائما لحظة صعبة، ولكن فى تلك المرة بدا الأمر سهلاً وخالياً من الانفعال، بل لم يخل من شعور بالراحة، فقد أنهكت أحداث الأسبوع الأم والابنة تماما. دخلت سانتا إلى الحجرة قلقة: فهناك ساعى بريد يطلب التوقيع لتسليم خطاب مسجل. نزلت ليللا وعادت إلى الأم ومعها خطاب. كان العنوان مكتوبًا على الآلة الكاتبة وكان قد أرسل من عاصمة الإقليم. فتحته ليللا بنفاد صبر، كان مؤرخًا بتاريخ اليوم السابق ٢٦ سبتمبر. الخطاب كان مكتوبًا بخط منو، الأحرف الكبيرة ولم يكن مذيلًا بإمضاء.

قرأته ليللا بصوت عال:

لم تفعلوا كما قلت لكم، ولكن الآن وقد نشرتم الإعلان بجريدة «جورنال دى سيشيليا» كما أريد، فأنا أسامحكم، بشرط أن تفعلوا ما أقوله لكم.

«اذهبوا إلى مكتب والدكم، بالمكتبة. خلف موسوعة«تريكانى» هناك رف سرى. ارفعوا مجلدات الموسوعة، سترون نافذة كبيرة افتحوها، فى الخلف هناك ثلاثة أرفف، ستجدون ثلاث علب مغلقة، لا تفتحوها، تحتوى على مزهريات قديمة أريد أن تحملوها بالسيارة اليوم أو غدا إلى متحف الإقليم الأثري، واحذروا أن تكسروها. قودوا السيارة ببطء. إن كسرت تلك الآنية، ستكون كارثة.

وفى المتحف، اطلبوا مقابلة الدكتور باليري، الذى ينتظركم. وسيكون فى انتظاركم. أخبروه أنكم من طرف منولارا وعرفوه بأنفسكم واطلبوا منه شهادة أثرية للمزهريات، وأخبروه بأنكم الثلاثة المالكون لها. لا تبحثوا ولا تلمسوا أشياءًا أخرى بالبيت.

بعد الحصول على الشهادة، انتظروا خطابًا آخر مني، وتذكروا تنفيذ ما أقوله لكم.

وضعت ليللا الخطاب فوق المنضدة وقالت:

«لنذهب إلى المكتب». نهضت المرأتان. لم تكن هناك حاجة لكلمة أخرى، سارتا بعد أن عبرتا غرف الصالون، صالة البلياردو، والردهات والغرف الفاصلة وصلتا إلى المكتب من الباب الداخلى متدثرتين بروبين مذيلين، كانتا تتحركان بخفة ورشاقة فوق الأرضية الموزاييك التى يعلوها الغبار، تفتحان الغرف المظلمة ذات النوافذ المغلقة بالمتاريس والتى غدت مهجورة ثم تغلقان الحجرات خلفهما بحرص، تضيئان وتطفئان المصابيح الكهربية لكل مقصورة، الواحدة تلو الأخرى أثناء سيرهما إلى حجرة المكتب، كانت إحداهما تضيء حجرة والأخرى تطفئ مصابيح الحجرة السابقة، بإيقاع ووقفات زمنية وكأنه رقصة باليه دون موسيقى.

أخيرًا بلغتا المكتب وهناك توقفتا.

سألت السيدة الفاليبى وهى فى حالة تأهب:

«الآن ماذا سنفعل؟»

تفحصتها الابنة باستهانة فأمها التى كانت تشكو دائمًا من التعب، والألم لأى تغيير فى نظامها اليومى الصارم والخامل تبدو مستعدة للعمل والمشاركة.

أجابت الابنة: «لا أريد أن أفتح الشيش، فالناس قد ترانا، سنرفع الكتب ولنرى إن كان الأمر كما قالت.»

كانت ليللا قد ألقت بمجلدات من الكتب فوق الأرض، عندما دخلت لاختيار كتب لإهدائها إلى الأب أرينا، بينما ظلت حجرة المكتب الفخمة كما هى مليئة بالغبار ولكن منظمة، كانت تنبعث منها تلك الرائحة الخاصة التى تفوح بالمكان المغلق، ذلك المزيج من تراكم الأتربة، مع الرطوبة، رائحة العفونة الخفيفة للأوراق التى التهمتها حشرة العتة، رائحة الحجرات غير المسكونة لمدة طويلة كما لو كانت تريد معاقبة أصحابها الذين اعتنوا بها ذات يوم ثم هجروها.

كانت ليللا قد صعدت فوق السلم الأنيق ذى العجلات، كانت ترفع المجلدات الثقيلة المجلدة بالجلد وتناولها للأم التى كانت تأخذها الواحد تلو الآخر وتكومها على الأرض فوق بعضها، مكونة أعمدة من نفس الارتفاع.

بعد أن رفعت المجلد الأخير، نزلت ليللا إلى الأرض، مسحت يديها المملوءة بالغبار فى جانبيها، ووقفت أمام الأرفف.

اقتربت منها الأم، وظلتا واقفتين الواحدة بجوار الأخرى وقد تبعثر الروبين من الحركة غير المعتادة، فانسابت فوق الجسدين المتماثلين فى تناغم، وتموج فاتن بينما كانتا تنظران إلى المكتبة.

ثم قالت ليللا:«لنفتح»! وأدارات مقبض الباب السري الذى انفتح محدثًا صريرًا.

كانت هناك ثمانية صناديق متماثلة، مرصوصة بالترتيب فى مخبئها، ملفوفة بالورق، مربوطة جيداً بلفات عديدة من خيط الدوبارة الغليظ، كانت جاهزة للنقل إلى المتحف.

أصاب المرأتين إحساس بالرفاهية والراحة وهما ينظران إلى الصناديق، مبهوتتين.

قالت السيدة الفاليبى:

« سترين، سيمضى كل شىء على ما يرام»

أجابت الابنة:

«أتمنى ذلك» وأضافت:

« يجب الاتصال بجانى، يمكننى حملهم إلى المتحف ولكن يجب أن يصحبنى أحد رجلى العائلة، الصناديق هشة. لنترك كل شىء فى مكانه الآن ونغلق الباب بالمفتاح.»

عادتا أدراجهما بنفس الطريق عبر البيت، بقلوب فرحة. عندما اقتربتا من غرفة النوم، سمعتا صرخات سانتا الفجة، التى ذهبت لأخذ صينية القهوة ولم تجدهما

فبحثت عنهما فى كل مكان دون جدوى، ولم تتخيل أنهما ذهبتا إلى حجرة مكتب المحامى. كانت سانتا قد خشيت أن تكون السيدة قد فقدت الوعى أو حدثت مصائب أخرى، بحثت عنهما فى كل الحجرات التى تسكنها العائلة، بل نزلت أيضا إلى البوابة، وفى الفناء الداخلى، والمخازن، تناديهما بأعلى صوتها. اضطرتا لتحمل مشهد مسرحى للمرأة التى فقدت أعصابها وأصيبت بالتوتر وارتمت فوق مقعد السيدة طالبة رشفة مياه. بعد ان بللت ريقها، لامتهما كما لو كانتا زميلتين لها من نفس طبقتها لأنها أصيبت بالفزع بسببهما. أحجمت ليللا عن تعنيفها، وتذكيرها بأن ذلك ليس الأسلوب المناسب لمعاملة سادتها، وقد قررت أن تفعل ذلك فى الوقت المناسب: ينبغى رفت سانتا، تعتقد أن من حقها التصرف مثل منو. ولكنها على العكس تركتها تنفس عن غضبها وشرحت لها أنهما ذهبتا إلى أحد الصالونات فى آخر المنزل لأخذ بعض الأشياء التى تحتاجها فى روما.

عندما بقيتا وحيدتين، اتصلت ليللا بالزوج والأخوين. وبنفس الجدية والاقتصاد فى الحديث نظموا نقل الآنية إلى المتحف فى الصباح. كانوا سعداء وواثقين، وإن كانوا يحسون بالحيرة من عناية منو وحضورها فى حياتهم. ظلت السيدة الفاليبى سعيدة هادئه طوال اليوم. وعند وداع ليللا ونقل الآنية قالت:« منو تحمينا من السماء، ينبغى أن نفعل ما تقوله لنا..تذكروا أنها فى السماء تفكر فى مصلحتنا.»

وفى خضم ذلك الاضطراب، لم يفكر أى فرد من عائلة الفاليبى فى فتح أحد الصناديق لرؤية محتواها، أو تساءل عن مصدر تلك القطع والذى بالتأكيد غير شريف وغير قانونى. ولم تحل مشكلتهم الأساسية فى معرفة مصدر الدخل الشهرى، بل ما حدث كان تعقيدًا آخر ذا طبيعة مشكوك فيها. لم يمر بخاطر أى من الفاليبى، يكفى أن منو اتصلت بهم، لا يهم كيف ولماذا، ولم يكن لديهم شك فى عودة الأموال السائلة مرة أخرى إلى أيديهم.

تضاعفت زيارات التعزية بعد تصحيحات إعلانات الوفاة. وجد أهالى روكاكولومبا عائلة الفاليبى هادئة، تستقبلهم بترحاب، وحدث ولا حرج عن عبارات الثناء والمدح

التى كان يقولها الأبناء عن منو: إنسانة غير عادية، كرست نفسها لهم تماماً، كانت بالنسبة لهم أمّا ثانية. كانت حتى تشجعهم على الدراسة، كانت تحب التعلم واستطاعت الحصول على قدر من الثقافة- من المفهوم طبعاً أنه بالقدر الذى يمكن لخادمة أن تتعلمه- كانت تتبع الأب فى ولعه باقتناء التحف. ذهل الزائرون من ذلك التحول المفاجىء، وحرصوا على إبلاغ الأخرين أن الجنون تمكن من عائلة الفاليبى، وأن منولارا لم تعد ملعونة بل غدت ملاكهم الحارس وسيدة الثقافة.

استقبل الدكتور بالميرى ليللا وجانى بحفاوة. ووعد بفحص فحوى الصناديق بسرعة ودون إبطاء مضيفا:« بلغوا تحياتى إلى السيد منولارا، الخبير الشهير الذى ثقف نفسه ذاتيا فى مجال فن الخزف اليونانى.»

لم يعد هناك ما يدهش أولاد الفاليبى ولا فكرة أن الدكتور بالميرى الأثرى بالمتحف، يعتقد أن خادمتهم رجل والأكثر من ذلك خبير فى الفن. ليللا وجانى مطيعون لأوامر منولارا واثقون بأنهما مراقبان لم يطرف لهما رمش، ابتسما وحيّيا وانصرفا.

٣٥- ليللا الفاليبى وذكرياتها اللطيفة مع منولارا

كانت ليللا تركب الطائرة المتوجهة إلى روما. لم يكن مما يعجبها أن تتذكر أيام صباها فى روكاكولومبا. ولكن داهمتها فى ذلك اليوم بعض من صور الطفولة، كانت تظن أنها نسيتها أو ربما نحتها فقط عن الذاكرة.

كانت تلك الفترة هى فترة نزول الحلفاء أثناء الحرب عام ١٩٤٣. وكانت العائلة قد تفرقت فى بعض أملاكها النائية، فى الوديان العالية بالداخل. كانت ليللا تشاهد وهى مستندة على ساق والدها صور أحد كتب الفن، والذى كانا يقرآنه معاً، وهما جالسان تحت أكمة ياسمين وارفة وكانت هى سعيدة أن استحوذت على انتباه أبيها بالكامل. أحست بأن أحدا ما يراقبها فرفعت عينيها. كانت منو تحت الشجرة أيضاً ومعها أشغال الإبرة؛ كانت تراقبهما برقة معجبة بما ترى، ويداها مسترخيتان فى حجرها تاركة الكرة الخشبية التى كانت تضعها داخل الجورب الذى ترتقه. ابتسمت ليللا لها فانغلقت شفتا منو المكتنزتان البارزتان على ابتسامة اتفاق وتفاهم.

كانت تلك الفترة من الفترات المحببة على وجه خاص بالنسبة لليللا رغم طبيعة الأحداث التى كانت سببًا فيها. كانوا يعيشون فى بيت ريفى مختبيء بين الأشجار بالقرب من جدول ماء. كانوا قد لجأوا لهذا البيت مع الأبوين والجدة، خشية حدوث ما هو أسوأ، ولم يصحبوا معهم من الخدم سوى دون باولينو السائق ومنو. لم يكن الأبناء على وعى بحدوث غزو للجزيرة، مع أنهم كانوا يعرفون أن الحرب مستمرة، مستمتعين بإجازاتهم الريفية التى كانت تبدو لهم خالدة لا نهاية لها. كانت منو قد اقترحت على الأب أن يعوض غياب الأولاد عن المدرسة بتعليمهم ما يمكن أن يسمح به الريف لهم، وهكذا كان اوراتسيو، عندما تخلد الأم والزوجة للراحة، يصطحب أطفاله إلى الحقول بصحبة منو، ولم تكن ليللا فى وقت من الأوقات أقرب إلى أبيها من تلك الفترة.

وخطرت على بالها ذكرى أخرى جميلة: كانوا تحت شجرة خروب ضخمة، والأب يمسك بالأوراق المتدلية ويثنيها منطلقا منها إلى درس فى علم النبات. فشرح الرحلة الطويلة للحاء النبات، ومعجزة حبوب اللقاح، ويتعرف على الطفيليات التى تصيب أوراق الشجر. كانت منو تنصت إلى الدرس بكل تركيز، وكانت فى الغالب أثناء الدروس تنشغل بجمع الحصى، والتوت والحيوانات الصغيرة تحملها إلى أبيها كما لو كانت هى الأخرى تلميذة. كان هو يتلقاها واحدة واحدة منها بكل رقة بين أصابعه الجميلة، التى كانت ليللا تحبها جدًّا، ثم يقدم عنها شرحا ساحرًا فاتنا. كانت منو تنصت ثم تقدم هى الأخرى مساهمتها التى استقتها من خبرتها فى الحقول، وأحيانًا ما كانت تصحح له معلوماته. كانت تعرف الخصائص الطبية للأعشاب خير معرفة، وكانت تعرف الجرعات المضادة للدغات الحيوانات، وعاداتها أثناء فصول السنة المختلفة.

ومضت فى ذهن ليللا لمحة من ذكرى ذلك اليوم: كان أبوها ومنو يفحصان قرون الخروب الطويلة وكانا يضحكان معا، وهما يتبادلان النظرات.

وأحست ليللا بأنها تشاركهما وأنها مستثارة بشيء قوى كانت لاتفهمه على أية حال. ولكن سرعان ما أصبحت منو معلمتهم الوحيدة فى الدروس الريفية، بعد أن استولت على الأب مغامرة غرامية مع سيدة كانت هى الأخرى هاربة من الحرب فى مكان قريب منهم، ففقد اهتمامه بالدروس. كانت تصبحهم هى فى جميع الحقول ثم تتوقف فجأة وتصدر إشارة تعنى الأمر بالصمت: فقد كانت ترى طائراً غريباً على الشجر، أو أرنبا مذعورا، أو حجرا له شكل غير مألوف، أو جسيما مهجورا. كانت تلحظ كل شيء قبلهم. وكانت تشرح حياة الحيوانات، كما تفهمها، وتأثير التشذيب على الأشجار، وعجائب تلقيح النباتات التى تحول الكمثرى إلى خوخ، وكيف تتحول يرقة الدودة إلى فراشة. كانت ليللا تستمتع، كان يبدو لها أن العالم كله فى تحول رائع، وكانت تشعر بالحرية. كانت منو تعد الوجبات اللذيذة بالقليل الذى كانت تستطيع العثور عليه فى زمن الحرب مثل سندوتشات العجة بالبصل والزيتون، والسردين المملح بالزيت والليمون، وكانوا يأكلون هذه الأطعمة تحت الأشجار. وإذا

كانوا وحدهم كانت تخلع فى ساعات الحر القائظة الجوارب السميكة التى كانت ترتديها فى الصيف وفى الشتاء، وتمضى حافية القدمين وتتمدد على الأرض شاخصة بصرها إلى السماء فى سعادة. وعندما كانت تهب ريح قوية كانت تفك كعكة الشعر خلف العنق. عندئذ كان الشعر ينسدل سائبا، كانت منو تقول:«فالشعر ينتصر على الريح فى النهاية»، وكان الشعر ينتفخ كما لو أنه قد تحرر من سجن التسريحة التى كانوا يصففون بها شعرهم، ثم يتحول إلى خصلات متموجة غزيرة كأنها عرف الفرس يسقط على الأكتاف. كانت جميلة تقريبا. وعندما انقضت فترة التهجير عادوا إلى البلد. كانت الجدة فى حالة صحية سيئة، كما كانت هناك مشاكل مالية. استأنفت ليللا الحياة الرتيبة القاهرة التى اتسمت بها طفولتها. كانوا قليلا ما يرون أباهم، الذى كان طيلة الوقت مأخوذا باهتماماته خارج العائلة. وكانت الأم تقضى الظهيرة كلها تلعب الورق. كانت أوقاتاً عصيبة، وكان التغيير يمضى دائما نحو ما هو أسوأ. كان الحديث المتداول فى البيت عن ضرورة بيع بعض الممتلكات حتى ينفقوا من ثمنها حفاظاً على الحياة. وتقرر أيضا أن تهتم منو بالمطبخ لتقليص عدد العاملين بالمنزل. أراد الوالدان أيضا تشغيل فتاة تحمل مؤهلات حتى ترعى الأولاد. فالألفة مع منو، التى تتحدث بالعامية فقط، قد منعتهم من تعلم اللغة الإيطالية الفصحى، وكانت ليللا على وشك أن تصبح فى سن الزواج، وكانت الجدة، وكذلك الوالدان، يخشيان على الفتاتين أن تعتادا السوقية من كثرة مخالطتهما للمرأة، التى كانت تعتنى بكل صغيرة وكبيرة فى حياتهم، وترعاهم دراسيا على طريقتها. ومن الواضح أن منو لم تكن على علم بهذه الهواجس، فحزنت جدًا لهذا القرار الذى يعتبر تدخلا لا مبرر له فى اختصاصاتها، وصرحت بذلك، ولكن عائلة الفاليبى لم تتراجع عن قرارها. كانت ليللا تتذكر أن تلك الفتاة، والتى كانت أيضا ثقيلة الظل، قد تم الاستغناء عنها، توفيراً فى المرتبات، وهكذا لم يتبق من الخدم سوى اثنين: دون باولينو ومنو، تساعدها بين الحين والآخر خادمات بنصف يومية. عادت منو لتصبح مسئولة عن الأطفال. اختلفت عما كانت عليه: كانت تخدمهم بدقة عالية ولكن ليللا أحست أنها ابتعدت عنهم، تكاد تتحول إلى عدو لهم. بعد وفاة الجدة بقليل

كانت هى التى تولت إدارة الأراضى الزراعية. مثقلة بالعمل و التفكير أصبحت صارمة قاسية، تفرض إرادتها على البيت والأسرة، وتعطى الأولوية لطلبات الأم، ورغبات الأب ونزواته، فيما كان الأولاد هم آخر من يخطر على تفكيرها. ومنذ ذلك الوقت أصبح لديها شيء غامض لا يمكن التكهن به. شيئا فشيئاً أصبحت خادمة- سيدة، يتوجه إليها الوالدان والأبناء طلبا للمال، مع أنها كانت لا تزال تفخر بدورها كمدبرة منزل بارعة، وتقوم على خدمتهم كالمعتاد. لم تكن تريد أن تتعلم ليللا الطهى أو القيام بالأعمال التى تعجب الفتيات مثل التطريز. كانت هى التى تفعل كل شيء. لم تكن تأخذ إجازات سوى أسبوعى الصيف اللذين كانت تقضيهما مع ابنى شقيقتها، وكانت تحافظ على التواصل الطيب معهم، وكانت تملى خطاباتها لهما على ليللا. كانت لحظة راحتها تحل بعد الظهر، ما بين الساعة الثانية والساعة الرابعة. كانت تنسحب إلى غرفتها أو المكتب المجاور لمكتب المحامي، لكى تنهى حساباتها، ولم يكن أحد يجرؤ على إزعاجها، حتى هو كان يستأذن حتى يستطيع أن يدخل مكتبه خلال هاتين الساعتين، ولم تكن تعطيه الإذن دائما. لم يكن لدى ليللا ذكريات أخرى ممتعة. كانت على وعى مؤلم بمغامرات أبيها الغرامية خارج نطاق الزوجية، والتى لم يكن يبدو أنها تزعج أمها. كانت الحياة فى روكاكولومبا خانقة، وقد باعت عائلات كثيرة بيوتها الريفية وانتقلوا للحياة فى المدينة. كانت ليللا قد بادلت جراحاً من لومبارديا الحب بكل حماس، وتزوجت صغيرة جدًا، سعيدة بترك عائلة بلا روح وبلد بلا مستقبل. ووافقت منو على هذا الاختيار؛ طالما أنها سوف تواصل دراساتها الجامعية، وحفزت والديها على إقامة حفل زفاف كبير لها.

فى المساء، وصلت ليللا أخيرا المنزل، وروت لزوجها أحداث الأسبوع غير العادية. كان حادث الآنية هو الأهم لما أظهره من نظام معقد للتفتيش والفحص حول سلوك الفاليبي، الذى خططت له منو بمساعدة مجهولين، وتم تنفيذه بواسطة أشخاص متعددين. ربما كان ذلك الإعلان فى الصحيفة عبارة عن رسالة مشفرة ليس إلا. لم تكن دوافع مثل هذه الآلية المعقدة واضحة، لا والغرض منها: كان ضروريًا معرفة المزيد عن منولارا، فقررا أن يتصلا بابن شقيقتها تليفونيا.

الأحد ٢٩ سبتمبر ١٩٦٣

٣٦- التقت ليللا الفاليبى وزوجها جيرلاندو مع مانكوزو ابن اخت منولارا

قالت ليللا موجهة كلامها لزوجها «إنه يشبهنا» كانت تتجه نحو مجموعة الكراسى فى غرفة الفندق حيث كانت تنتظر السيد مانكوزو. قامته متوسطة وبشرته داكنة، يختار ملابسه بدقة: سترة بمربعات صغيرة من الصوف، حذاء رياضى جميل، ساعة معصم أنيقة. انشغل فى قراءة الصحيفة ريثما يصلان. بعد المجاملات الأولية قدمت له ليللا التعازى الواجبة؛ شعرت بالتحرر، فلم تعد بعد قادرة على تلقى التعازي.

أجاب:«ينبغى أن أعزيك أنا يا سيدة ليللا. فقد كانت الخالة روزاليا تحبكم أنتم كأولادها، بينما كانت تحبنا نحن كأبناء اخوة، ومن المؤكد أن هذا الحب كان يقابل بالمثل. هى على أى حال عاشت دائماً فى بيتكم وكانت لا تقضى معنا سوى أسبوعى إجازة كل عام».. لم تكن ليللا تتوقع مثل هذه المقدمة، وأدرك مانكوزو هذا فخجل عندما أحس أنه تحدث بشكل غير لائق. «شكرا، ولكن الآن أود أن تحكى لى عن خالتك.. فقد كانت شخصية غير عادية ومتحفظة، وخاصة فيما يتعلق بحياتها الخاصة، أود أن أفهمها بشكل أفضل.» وكانت ليللا غير قادرة على إضافة المزيد. «معك حق، وليس من السهل تعريفها، لا شك أنها كانت موهوبة ثقافة وذكاء على نحو متشابك ومعقد. كنا فى البيت نضحك من غموضها: والدي، الذى كان يعمل فى سلاح قوات الأمن، كان يرى أنها لو كانت ولدت ذكرا لأصبحت زعيمة مافيا، وكان يسميها بالمرأة الصامتة.»

كان جيرلاندو مانكوزو يتكلم بلغة إيطالية جميلة يتميز بها سكان البر الإيطالي، بلدغة فى الراء، لكنه قال الكلمات الأخيرة بلهجة صقلية قح. ألمح جان ماريا إلى ذلك ببراعة. «لسوء الحظ نحن ولدنا ونعيش دائماً فى الشمال، أنا لا أعرف صقلية، ومع ذلك كان علينا الاحتفاظ باللهجة للتواصل مع خالتنا روزاليا، التى كانت ترفض بعناد أن نتكلم الإيطالية الفصحى. أعتقد أنها ربما كانت تخجل من أنها لم تتعلم ومن

معرفتها المحدودة بلغة الحديث الراقية». ومرة أخرى يدرك مانكوزو أنه يتحدث بشكل غير لائق، بإعطاء الانطباع بأن لهجة صقلية غير راقية، فأضاف، متوجها إلى ليللا: «اسمحى لى أن أقول لك يا سيدتى أن لكنتك الصقلية تبدو لطيفة محببة فى ثنايا لغتك الإيطالية السليمة». كانت ليللا تكره أى شيء له صلة بالجنوب، ولهذا ابتسمت ودخلت فورا فى هذا الموضوع الذى كان قريبا إلى قلبها: «لابد أنك تعرف بالتأكيد أن خالتك كانت تدير أملاك العائلة حتى وفاة الوالد، ثم واصلت إدارة تركة الأم. وقد تركنا رحيلها المفاجئ فى حالة اضطراب حول مختلف جوانب الإدارة، توفيت قبل الأوان فلم يكن لديها الوقت الكافى لترتيب أعمالنا وأعمالها... وربما تركت لك بعض التدابير أو السجلات أو الوصية؟». «كانت خالتى تناقش أعمالها معي، حيث إننى أكبر أولاد اختها، ولكنها لم تترك معى شيئاً لكم، ولا هى أرادت أن تترك وصية على حد علمي. ولم أكن أتوقع منها ذلك، فقد خصصت لنا فى الماضى هبات كبيرة وكانت فى غاية السخاء معنا. ولم نكن ننتظر منها ميراثا. سوف يذهب كل ما كانت تملكه إلى عائلة الفاليبي، أنا واثق من هذا. لقد ناقشنا ذلك فى أغسطس، خلال زيارتها الأخيرة. أعربت عن سرورها لتنظيمها كل شيء مع البنك. وكانت كلماتها الأخيرة: 'سأموت مطمئنة لأننى فعلت واجبى تجاه الأحياء والأموات'. كان بعيدة النظر ولابد أنها نظمت كل شيء حتى تتجنب ضرائب التركات. ولذلك فإن تركتها يا سيدتى سوف تؤول كلها إليكم يا آل الفاليبي. » عجزت ليللا عن الكلام. وتدخل زوجها: «إن آل الفاليبى يجهلون ذلك، كانوا يتلقون من خالتك مبالغ مالية كل شهر، كانوا يتسلمونها عن طريق البريد، وربما تكون قد ضاعت أو سرقت. ألا يبدو لك ذلك معقولا؟». «نعم، هذا هو السلوك النموذجى لخالتي. كانت تفعل ذلك معنا نحن أيضا، حتى بدأنا نعمل ولم نعد بعد بحاجة للمساعدة. وكان عيبها الوحيد أنها تريد أن تفعل كل شيء بنفسها، وأن تحافظ بعناد على أسرار حياتها ومدخراتها. كان اللغز بالنسبة لنا كيف أنها استطاعت أن تعول أمى وجدتى منذ أن كانت تجمع اللوز من الحقول. وأعرف أنها عندما كبرت تعلمت كيف تدير الأملاك بطريقة رشيدة، وكانت مقتصدة ويقف الحظ إلى جوارها فى استثماراتها

على نحو فريد. كانت أمى تحكى أنها عندما كانت لم تزل طفلة كانت تنجح فى مضاعفة النقود كأنها أسماك الإنجيل. هل تصدقى أنها فى فترة ما بعد الحرب مباشرة ساعدتنا على شراء بيتنا الأول، عندما أهدتنا قدرًا كبيراً من المال؟» «من أين جاءت هذه الأموال؟»ألم تسألوا يوما من أين جاءت؟ «سألت ليللا همسا. قامت بعمليات حسابية عقلية: فى ذلك الوقت كانت منو مجرد خادمة راتبها تافه. جدتها كانت لا تزال على قيد الحياة وكانت هى شخصيا التى ترعى إدارة الممتلكات؛ فهل كانت منو تخدعها وتسرق الأسرة؟ «معك كل الحق، ووالدى كان أحد رجال الأمن، وكان رجلا مستقيمًا جدًا. كان مترددا فى قبول هديتها وعبر صراحة عن هواجسه، وقد ناقشنا هذا الأمر طويلا فى بيتنا. بل إنه وصل إلى نتيجة مؤداها أنها سرقت هذه الأموال من أسرتكم. أذكر أنه قرر أن يكتب إليها لكى يستوثق من مصدرها؛ كانت المراسلات بيننا وبين خالتى كثيفة، على الرغم من أنها تحتاج إلى من يكتب لها. تعرفين هذا جيدا يا سيدة بوللا، فلا زلت أحتفظ بالخطابات المكتوبة بخطك الجميل المتناسق والتى أملتها عليك الخالة.» ابتسم مانكوزو، ثم أضاف «كان ردها فوريا. هى أموالها وحسب. قبل الحرب، قدمت السيدة الفاليبى لها هدية وأتيحت لها فرصة استثمارها فى الخارج. كانت تفهم هواجس زوج شقيقتها، فلم تشعر بالإهانة تجاهها، هذه المرة، ولكن لم تسمح بمزيد من الشكوك حول أمانتها. كانت تفضل أن تتوقف عن مساعدة أختها على أن تتعرض لمثل تلك الإهانة بعد ذلك. ومنذ ذلك الحين لم نوجه إليها أية أسئلة أخرى. مرة واحدة، خلال إحدى زياراتها، كانت تريد أن تذهب للحديث إلى مدير بنكها فى فاريزي، ثم فى سويسرا. صحبها أخي، وافترض أنها كانت تحتفظ بأموالها هناك بمشورة من أسرتها، ولا يوجد أى تفسير آخر. كانت خالتى فلاحة مسكينة ومن المؤكد أنكم باعتباركم مديرين لأملاك أمراء برولى لديكم دراية أوثق بمثل هذا النوع من الاستثمار. استعلموا من البنك، فقد كنت أعتقد دائما أن مدخراتها يتم استثمارها جنبا إلى جنب مع أموالكم.» غمغمت ليللا: «لا أعرف، لقد تزوجت صغيرة جدًا، ولهذا ليس لدى علم كاف باستثمارات العائلة فى تلك الأوقات». لم تكن تريد أن تكشف جهل وغفلة عائلة

الفاليبى لابن أخت الخادمة. «اسمحى لى أن أقاطعك» أضاف جيرولاندو مانكوزو، «أذكر أيضا أن خالتى حققت بعض المكاسب من بيع أحد أملاككم، نسبة مئوية من السعر. كانت سعيدة جدًا بهذا، ولكننى أكثر ثقة فى أنها فى إدارتها للأصول الخاصة بكم كانت تتحرى الدقة الشديدة والأمانة، فقد كانت هذه هى طبيعتها. لا أستطيع أن أقول لك شيئا آخر» أضاف، وقد غلب عليه الخجل من أنه تحدث على نحو طيب أكثر من اللازم عن خالته. «فى نظرنا لم يكن بها عيب، فيما إعادة الاقتصاد.» تدخل جان ماريا بوللا، فقد لاحظ نفاد صبر مانكوزو. كان يخشى أنه سيضع حدا للقاء بسرعة: «ولكن هل تعتقد أنها كانت شديدة الحساسية، أنا لم ألحظ ذلك فقد كانت مع زوجتى محبة وودودة دائما.» «كانت حساسة جدًا! على الرغم من كونها فخورة بدورها كخادمة فى بيت كبير من بيوت صقلية مثل بيت زوجتك، فعلينا الاعتراف بأنها كانت واعية بأنها تفتقر إلى اللياقة ولم تحظ بتعليم مدرسي. كانت تخاف أن يهزأ بها الناس، وكانت تفضل البقاء فى المنزل للقيام بعمليات تنظيف كبيرة وبالطهي؛ بدلاً من المشاركة فى حياتنا الاجتماعية. لم تكن تذهب سوى إلى البقال عند ناصية الشارع لشراء بعض الاحتياجات. وذات يوم ظنت أن البقال كان يسخر منها لطريقتها فى الكلام، فأجبرتنا على عدم التعامل معه. كانت لا تتزحزح عن قراراتها. كنا صغارا، ولكن كلماتها حفرت فى ذهني: 'لخيركم يجب عليكم القيام بما آمركم به. حتى التحية لا ينبغى إلقاءها عليه عندما تمرون أمامه، ولا تشتروا منه بعد ذلك أبدا. إنها مسألة تخص شرف العائلة: لقد أساء لخالتكم '.» كانت ليللا تستمع إليه بانتباه، فقد كانت هذه هى منو التى تعرفها. وأضاف جيرلاندو مانكوزو: «لا أريد أن أعطيك الانطباع بأنها كانت ضيقة الأفق وتسيطر عليها الرغبة فى الانتقام. فقد كانت تتسم بالسخاء والإيثار. وكانت أيضا مثقفة ثقافة عالية، فى المواضيع التى تهمها. فى السنوات الأخيرة، أظن أنه كان لديها مزيد من الوقت، فكانت تقرأ كثيراً، وكانت تهتم على نحو خاص بالأدب الحديث. وأنتم تعرفون بلا شك عشقها للخزف اليوناني، وربما وجهها إلى ذلك المحامى الفاليبى.» «لماذا لم تحضروا جنازتها؟» سألت ليللا، التى كانت تريد أن تخبره بأمر المزهريات اليونانية.

«لم تكن خالتنا تسمح لنا بزيارتها فى صقلية. قلنا لها وداعا فى أمان تام فى أغسطس. طلبت منا أن نقسم على عدم الذهاب إلى روكاكولومبا ولا حتى لحضور الجنازة، كانت واثقة من أنكم سوف تقومون بالواجب، وهو ما حدث بالفعل، وتدين لكم أسرة مانكوزو بالامتنان لهذا. أبلغنا عن وفاتها القس الذى كان يكتب لها رسائلها.

«أود أن أقول لك شيئا أخيرا، ولى رجاء عندك أن تعيديه على مسامع إخوتك، إذا ارتأيت ذلك مناسباً. كانت الخالة تتحدث وتكتب كثيراً عنكم: ألعاب، شقاوة، ولكن أيضا نقاط القوة ونقاط الضعف. كانت تحلم بنجاحكم وتشكو فى بعض الأحيان، عندما لا تستذكرون دروسكم بالحماس الواجب، ولكنها كانت تذكر ذلك دائماً بالمودة والاعتزاز. كانت تفعل الشيء نفسه معنا، كانت تحثنا على الاستذكار وعلى تحسين مستوانا: كانت مستبدة فى الخير. ثم كتبت أقل عنكم. كنا نظن أنكم ذهبتم إلى مدرسة داخلية وأخذنا نسأل عنكم باستمرار، بالنسبة لنا كنتم جزءا من عائلتنا الصقلية. كانت خالتنا تتحايل على أسئلتنا. ذات يوم سألتها لماذا. وردَّت بأن امرأة أخرى هى التى تعتنى بكم وأنها عادت لتكون مجرد خادمة، وكان الحديث عنك يؤلمها، ولكنها ظلت دائما تحبكم. أفهم أنها كانت امرأة غير متعلمة، ولكن المشورة والدعم اللذين قدمتهما لنا عن بعد ساعدانا كثيراً فى مرحلة الصبا والشباب، ولذا لم أستطع أن أستوعب أبدا سر هذا التغير فى عملها: فهل تفسرين لى السبب؟»

أوضحت له ليللا أن والديها قاما بتشغيل آنسة متعلمة تتحدث الإيطالية الفصحى جيدا، وهى العادة مع البنات عندما يبلغن سنا معينة. وقال جيرلاندو مانكوزو «أفهم، لقد سبب لها هذا ألمًا كبيراً، ولكنها بطبيعة الحال تجاوزته، لأنها تابعت خدمتكم بتفان».

الاثنين ٣٠ سبتمبر ١٩٦٣
٣٧ المزهريات تعود إلى روكاكولومبا

فى ظهر يوم الاثنين ٣٠ سبتمبر كان ليللا وجانى فى طريق عودتهما إلى روكاكولومبا. كانا قد وضعا فى حقيبة السيارة بعناية الصناديق الثمانية التى تحتوى على المزهريات اليونانية، بعد أن سحباها من المتحف. كانا قد اتفقا على أن يفتحا المظروف الذى يحتوى على شهادة المنشأ فى بيت الفاليبى فى حضور كارميلا وماسيمو، والأم كذلك. كانت ليللا قد هرولت من روما حالما سمعت أنها أصبحت جاهزة، وكانت فى حالة مزاجية جيدة. وروت لجاني، الذى ذهب لاصطحابها من المحطة، عن لقائها مع جيرلاندو مانكوزو: «أتعرف، ربما أسأنا تقدير منو. لقد كانت تحبنا، وكانت بعيدة النظر، وقد ربت أبناء أختها تربية جيدة. أما فيما يتعلق بالمزهريات، فالحقيقة أنه لأمر مدهش أنها تعلمت الكثير عن الفن اليوناني، لابد أن أبي قد علّمها الكثير، ولكن حتى هذا يدهشني، بصراحة لم أكن أتصور أنها عليمة بهذه الأمور لهذه الدرجة». وافقها جانى على هذا. وأضافت ليللا: «أنا لا أستطيع أن أتخيل أبي ومنو معا فى حجرة المكتب يقرءان، ويبحثان، ويصنفان التحف... كانا مختلفين جدًا. أبي، مع كل عيوبه، كان لا يزال رجلاً متميزا ومثقفا، بل ومغرورا قليلاً، بينما، كانت منو الفقيرة خشنة الحديث والملبس عديمة الأناقة فى كل شيء». ورد عليها جانى «لا أدرى ما إذا كان بوسعى أن أوافقك الرأي، بعد انتهاء أول لقاء قالت لى أنا شيئا عنها أدهشني، فقد قالت: ' هى جميلة القوام مثيرة الوجه. كان بوسعها أن تكون امرأة جميلة لو اهتمت بنفسها قليلا، ولكنها لم تكن تعرف من أين تبدأ'.» ابتسمت ليللا وامتنعت عن الرد. وكان كل شيء تقوله أنا هو ذهب مصفى عند جانى الذى كان يعشق زوجته ويخضع لها عكس أبيها. «ماذا سنفعل بالمزهريات؟» فقالت «هى ثمانية. هل نقتسمها بواقع اثنتين لكل واحد، بما فى ذلك أمي؟» بشيء من الحرج قال جاني: «أعتقد حقاً أنه سيكون من الخطأ تقسيمها، خاصة إذا كانت تشكل معا مجموعة تحف. إذا كنت لا تمانعين فى ذلك، أود أن احتفظ بها كلها، فأنا، آخر سلالة الفاليبى ونستطيع أن نضعها

فى المنزل الجديد، تخليدا لذكرى الأب، فى لوحة محمية تحت الزجاج، فما رأيك؟» امتعضت ليللا، فها هى تحس مرة أخرى بمخلب زوجة شقيقها. كان من الأفضل تأجيل اتخاذ القرارات؛ حتى بعد أن قال لها إنه سيكون مستعدا لشراء حصة عدلائه أيضا، بسعر يتفق عليه. مجموعة من المزهريات اليونانية كان من شأنها، بالتأكيد، أن تعطى لمسة أناقة راقية لصالوناتهم. ابتسمت مرة أخرى، جال بخاطرها أن ماسيمو ربما أجرى الحديث نفسه مع كارميلا. «سوف نناقش هذا معا فى المنزل مع أمي؛ فقد تكون المزهريات مريعة، أو مقلدة، من يدري؟ وقال جانى متعجبا: «كفى هراء، ليس لدى أى شك فى أنها سوف تكون رائعة، ما يقلقنى هو مصدرها، أى أن تكون من أملاك منو، لعلها اشترتها من لص الآثار ذلك، وربما كانت مسروقة. ينبغى أن نستشير محاميا.» اعترضت ليللا بشدة: «استبعد أن تشترى منو شيئا من اللصوص، فقد كانت تتحلى بالأمانة». «لم تكونى تتحدثين عنها بمثل هذه الطيبة فى الأسبوع الماضي، فقد كنت تتهمينها بسلب إرث أبيك.» «اخرس، أنت دائم الهراء. لقد كنا جميعا الأسبوع الماضى فى حالة اضطراب، وهى بالقطع لم تترك الأمور كما كان ينبغى لها أن تكون.» قالت ليللا، ولكى تتجنب الشجار مع شقيقها لم تتبادل معه إلا القليل من الكلمات خلال الفترة المتبقية من الرحلة. قبل أن يجتازا التقاطع للوصول إلى روكاكولومبا قالت: «أنا متأكدة من أن منو سوف ترسل رسالة أخرى تحتوى على التوجيهات التى توصلنا إلى المال. من يدرى مقدار الجهد المبذول لترتيب هذه الرسائل، وكان يكفيها أن تترك وصية أو تكتب كل شيء فى وثيقة واحدة». «أنا أعتقد أنها فعلت ذلك لتضعنا على المحك، فلم تكن تثق بنا.» «ماذا تقصد؟» لم تكن ليللا تتحمل نبرة زوجة شقيقها المدعية.

«أقول إننا ارتكبنا الكثير من الأخطاء فى إدارة ميراث أبي، وكان من الأجدر بنا أن نتبع نصائح منو. الأموال سوف تدار من قبل البنك، وهذه المرة سيكون من الأنسب تركها وأخذ الفوائد كما كنا نفعل كل شهر فى السنوات الأخيرة.» وقالت ليللا بحنق «أنت تفكر فقط فى أبحاثك الجامعية وإرضاء زوجتك، أما أنا فأريد أن أهتم بشئونى وحدي.» أزعجتها فكرة الميراث الخفى الموقوف. وفى تلك الأثناء كانت السيارة تدلف إلى روكاكولومبا.

٣٨ وفى الأثناء كان يتم تنفيذ رغبات منولارا الأخيرة فى كاتانيا، وفى زيوريخ، وفى باليرمو.

فى الوقت نفسه كان الدكتور بالميرى قد بعث ببرقية إلى بنك فى زيوريخ، حسب طلب «مينولارا». غريب هذا الطلب، ولكن ينبغى الوفاء به: ففى النهاية كان «السيد منولارا» قد أهدى المتحف بعض العملات السيراكوزية التى كانت فى حكم القطع المفقودة من مجموعة المتحف، بل وتنازل عن بعض قطع الآثار القديمة إلى المدير وإلى الدكتور بالميرى نفسه. «تم تسليم الشهادة. وتم سحب المزهريات يوم الثلاثاء، الساعة ١٠,٣٠» كان هذا ما كتبه فى البرقية.

تلقى الدكتور ستوتز، الموظف بمصرف زيوريخ، البرقية فى صباح اليوم نفسه وعلى الفور نزع من درج بطاقات «الاستثمارات الخارجية المتميزة» الملف الذى كتبت عليه عبارة «تركة منولارا». كانت تحتوى على وصية ماريا روزاليا إينسريللو وخمسة مغلفات كبيرة، أربعة منها ما تزال مغلقة، ومكتوب عليها على التوالي:

(أ) النص الكامل للنعى الذى نشر فى اليوم التالى للوفاة.

(ب) النص المعدل للنعى المنشور فى غضون يومين بعد الوفاة.

(ج) النص الكامل للنعى المنشور فى غضون أربعة أيام من الموت، بعد الجنازة.

(د) النص الكامل أو المعدل للنعى المنشور بعد أربعة أيام من الوفاة.

(هـ) لم ينشر أى نعي.

تناول المغلف (ج) وهو الوحيد الذى كان مفتوحاً. كان المغلف يتضمن صفحة الوفيات فى عدد الخميس ٢٦ سبتمبر ١٩٦٣ من صحيفة «جيورنال دى سيشليا»، الذى نشر نعى ماريا روزاليا إينزريللو. وقد تم إبراز والتخطيط تحت الأحرف الأولى من عبارة «تعلن أسرة ألفاليبى عن مصابها الأليم وخسارتها الفادحة» وأعيدت كتابتها على الهامش مكونة عبارة: « إلى الفاليبى» باللغة الايطالية.

أخذ الدكتور ستوتز الصفحة واحتفظ بها في يده، ووجّه تفكيره نحو العميلة التى كان يتواصل معها طيلة عقود من السنين من خلال إعلانات الوفيات الزائفة، وهو نظام بسيط وآمن. وكانت هذه هى المرة الأولى التى يستخدمها لمتابعة سلوك ورثتها المحتملين لكى يقرر ما إذا كانوا جديرين بالميراث، باستخدام نظام عبقرى اخترعه الدكتور ستوتز بكل دقة مع العميلة خلال اجتماعهما السنوى المعتاد في أغسطس في كاتانيا. لو كان هؤلاء السادة من عائلة الفاليبي، المجهولين له، قد نشروا النعى فورا، وعلى النحو المنصوص عليه في المغلف، لكانوا قد وفروا كثيراً من الجهد ولحصلوا فورا على تركة المتوفاة.

ولكن على الدكتور ستوتز ومعاونيه الآن أن ينفذوا بدقة، وبالتفصيل، التدابير المتفق عليها مع العميلة. تحقق من الوثائق مرة أخرى ثم اتصل هاتفيا بمراسله في باليرمو، وكان محامياً من الثقاة. وكان لدى ذلك المحامى نسخة طبق الأصل من المغلف (ج). فتحه وأخرج منه مظروفاً أصغر، أصفر اللون، كتب عليه: «رسالة يتم تسليمها باليد إلى ورثة الفاليبى عندما يصدر المتحف الشهادة». فتحها بحذر تجنباً لإتلاف محتواها. كانت بداخلها ورقة بيضاء. كانت رسالة مكتوبة بخط اليد بحروف كبيرة على طريقة أولئك الذين لا يعرفون الكتابة بطريقة أخرى. أضاف المحامى التاريخ عليها ووضعها في مظروف موجه مسبقا إلى عائلة الفاليبي. أعطى الرسالة بعد ذلك إلى معاون له موثوق به، وكلفه بالذهاب إلى روكاكولومبا وتسليمها شخصيا إلى منزل الفاليبى في صباح اليوم التالي.

٣٩. دون باولينو انونتسياتا يحضر وصول المزهريات إلى بيت الفاليبى دون أن يفهم.

عند ظهر اليوم هاتفت ليللا أختها. توقفا فى استراحة عند منتصف الطريق، كان من المفروض أن يصلا عند الساعة الواحدة، ليجدا ماسيمو أمام الجراج لتفريغ المزهريات من السيارة بعيدًا عن عيون المتطفلين. أوصوه بأن يعمل بطريقة لا يحس بها أحد.

كان دون باولينو انونسياتا، كما سبق القول، يعيش فى غرفتين متاخمتين للجراج فى قصر الفاليبى كانتا ذات يوم مقرا لإقامة الحوذي. كان يوما باردا من أواخر شهر سبتمبر وقد اشتدت حدة الآلام الروماتيزمية فى ركبتى دون باولينو. كان يجلس على الأريكة القديمة وقد غطى ساقيه ببطانية. كان إناء الحساء يغلى وتتقافز منه الفقاعات بمرح ملأ الغرفة بالبخار الساخن اللذيذ الذى يفوح برائحة الكرنب الطازج والبطاطس والطماطم. حفزت هذه الروائح شهية دون باولينو فراح يقدر مع نفسه أن دونا ميما سوف تعد المائدة للغداء فى غضون نصف ساعة.

أزعجته جلبة شديدة بجوار باب القصر. نادى زوجته وراحا ينصتان، وكان صوت ماسيمو ليوني: ربما كان يحاول فتح باب الجراج والذى كان عسير الفتح طوال عمر دون باولينو منذ أن تكونت لديه ذاكرة. دفعه الإحساس القديم بالواجب إلى أن ينزع عن نفسه البطانية وينهض عن الكرسى بسرعة، وهو يلعن فى سره الشيخوخة التى هدت قواه إلى هذه الدرجة، ثم خرج إلى الشارع ليرى ما يحدث ويقدم يد العون.

كان ماسيمو يبذل كل ما بوسعه حتى يفتح الباب المستعصي، فيشد المقبض، ويركل الأبواب، ويلكم الأقفال، ويدير المفتاح الحديدى يمينا ويسارا ويدخله بقوة كأنه مفك، ويعالج الألواح الخشبية التى وضعت لتقوية الجزء السفلي، باختصار بدا كأنه محكوم عليه بالأشغال الشاقة. تظاهر بأنه لا يعرف دون باولينو، ورفض عرضه

بالمساعدة. لقنه دون باولينو الذى لم يتراجع طريقة معالجة الأقفال، ولكن نصائحه لم تكن موضع ترحيب. بل إنه طلب إليه أن يعود أدراجه إلى بيته ليتناول الحساء ويهتم بشئونه ولا يتدخل فى شئون غيره.

فيما بعد حكى دون باولينو إلى صهره دون فيتو مليتيللو، فى بوابة قصر تشفاليا: «أحسست بواجب مراقبة ما يحدث فى جراج عائلة الفاليبى بدافع واجب احترام ذكرى المحامى اوراتسيو بعد أن انفتح الباب إثر عدة ضربات أخرى وخصوصا بعد أن عاملنى ذلك الرجل معاملة فظة.» وهكذا تخفى الفضول المتطفل لدون باولينو انونسياتا فى زى الإخلاص لموظف قديم، لتبرير سلوكه، فى ظهيرة ذلك اليوم المشؤوم.

وكان الاتفاق يسود بيت انونتسياتا لأن الزوج والزوجة أصبحا يفكران بنفس الطريقة بعد سنوات عديدة من الزواج لم يكونا بحاجة للكلام، فهما متفاهمان حتى دون النظر فى الوجه. فما أن أخبر دون باولينو السيدة ميما بسلوك ماسيمو ليونى العدوانى حتى شرع الزوجان فى العمل دون اتفاق صريح. تناولت السيدة ميما سلة الرفا وأطفأت النار تحت الإناء وأخبرت زوجها أنها سوف تظل جالسة عند باب البيت تخيط حتى آخر الليل لو لزم الأمر، وسوف تراقب كل سيارة تمر من أمام البيت. كان على باولينو أن يقطع الأمل فى التهام صحن من الحساء الساخن فى تلك الظهيرة، فهذه المرأة لن تتحرك من مكانها أبدا.

شرع دون باولينو من فوره إلى الحركة فى جميع الاتجاهات. نقل المقاعد من أماكنها بعيدًا عن الجدار الملاصق للجراج، ونزع لوحة «عذراء سيراكوزا» الشهيرة بـ «عذراء الدموع» والتى ينزف قلبها الكبير بقطرة دم ضخمة، ثم مرر يده بلطف على ملاط الجدار حيث كانت اللوحة معلقة لتوها.

وكان هناك، فى الجدّار، ثقب صغير، به عدسة: عين سحرية بدائية صغيرة يتجسس من خلالها على ما يدور داخل الجراج. وكان هذا النظام قد اخترعه الحوذى السابق عليه لكى يراقب العربات والجياد والصبى الذى ينام فى الاسطبل ، قبل أن تتحول

إلى جراج لسيارة السيد. أبقى عليه دون باولينو مفتوحاً وشغالاً باعتباره نظام أمان ضد السرقة، رغم أن السرقات في روكوكولمبا لم تكن كثيرة، ولكن من يدرى متى يصل اللصوص، وكان عند سماعه لأى صوت في الجراج يتأهب فورا لمراقبة ما يحدث. وبالطبع لم ير أحدًا من اللصوص طوال هذه المدة، ولكنه، قبل سنوات كان يحضر من خلالها مع زوجته بعض اللقاءات التى كانت تقشعر لها الأبدان بين المحامى جانى والطباخة بينا فاساللو: كان كلاهما قد جاوز الأربعين ولكنهما كانا في منتهى القوة، حتى أنهما أفسدا له غطاء السيارة الذى كانا يتدافعان فوقه.

والآن يتساءل دون باولينو ماذا عساه يشاهد غير هذا في الجراج، فيما كان يعد كل ما يلزم للاستقرار في مكانه ومشاهدة كل ما يجرى مهما طال الوقت. أعد لنفسه مقعداً مريحاً رافعاً قاعدته بالوسائد والأغطية، ووضع إلى جواره صندوقا خشبيا كمسند القدمين، وملأ كوبا من الماء البارد العذب، ووضعه إلى جوار المقعد ومعه رغيف من الخبز وبعض الجبن، حتى إذا جاع أكل وشرب، ثم اتخذ موضعه، والعين اليمنى ملتصقة بثقب الباب، وأنفه يكاد ينسحق في جص الجدار المتصدع، والعصا ملك يمينه.

ظل ماسيمو حبيس الجراج واقفاً بالقرب من كوة الباب. كان كلما سمع صوت سيارة تمر بالشارع، الأمر الذى كان نادر الحدوث في ذلك الزقاق، يطل من الكوة برأسه، يتلفت ذات اليمين مرة وأخرى ذات اليسار، تحت بصر دونا ميما المتيقظة والتى كانت ترفو كمية كبيرة من الملابس في السلة دون أدنى تنويه إلى أنها تعتزم دخول البيت: ولهذا قرر ماسيمو أن يكون أكثر حرصا ولا يخرج برأسه من الجراج وظل مستندا إلى الباب مرهفا السمع. من داخل البيت حيث كان في وضع المراقبة هنأ دون باولينو نفسه على ذكاء زوجته. «أحسنت يا ميما. لقد أخفت ماسيمو ليونى بأربع خرق قديمة ترفيها.»

اقترب هدير سيارة جانى معلنة وصولها. فتح ماسيمو الباب سريعا، فدخلت السيارة ببطء. تسللت السيدة ميما إلى داخل البيت وهى تمسك الجورب والإبرة

بيدها لكى تعطى الإشارة المتفق عليها إلى زوجها، رغم أنه لم يكن بحاجة إليها، لأنه كان متمترساً فى موضع المراقبة وعينه ملتصقة بفتحة التجسس.

أما الأحداث التى تلت ذلك فقد رواها دون باولينو فى المساء على مائدة العشاء مع أصهاره دون فيتو والسيدة انزا ميليتللو: «ما أن دخلت السيارة حتى التصق ماسيمو ليونى بصندوق أمتعتها يحاول فتحه، فشد المقبض، وأداره كأنما يحاول تحطيمه وهو يصرخ فيه «افتح افتح» بينما كان البروفيسور جانى والسيدة ليللا ينزلان من السيارة هادئين تماما، كأنهما فعلا ذلك عن قصد لإثارة أعصابه. رمقه البروفيسور بنظرة مثل تلك التى كانت السيدة ليللا الكبيرة تطلقها، وقال له: «ليست هناك عجلة، لن نفر بالكنز، فإذا واصلت بهذه الطريقة سوف تضربها وتحطمها تحطيما». أما هو فقد بدأ يلعن وانتحى جانبا تاركا لهما فسحة لكى يفتحا صندوق الأمتعة والأبواب الخلفية.

وفى الوقت نفسه، نزلت السيدة أدريانا، والسيدة كارميلا من الدرج الداخلي، الذى يؤدى إلى مدخل المبنى بالقرب من مدخل المطبخ وهما تسألان آلاف الأسئلة: ' ماذا قالوا لكم؟ كل شيء سليم؟ هل كنتما حذرين أثناء السفر؟ '. وقال البروفيسور: ' المظروف فى جيبي، سوف نقرأه فى وقت لاحق'. فصمتوا جميعا. «انهمكوا جميعا فى العمل، وأحدثوا ربكة كبيرة. وكانت هناك أربعة صناديق كبيرة مكتظة فى صندوق الأمتعة، وأربعة فى المقعد الخلفي، مختفية تحت بعض الأغطية. حملها بعض الرجال، واحداً تلو الآخر، ونقلوها إلى المنزل. كانوا يتعاملون معها بمنتهى الحرص. كانت تبدو لى ثقيلة، من خلال تعبيرات التجهم على وجوه من كان يهم بحملها. وباختصار، يبدو أن كنوزا كانت فى داخل تلك الصناديق.

قالت السيدة ليللا إنها سوف تصعد لتفتحها بحرص، وبقيت السيدتان الأخريتان فى الجراج تشاهدان. «وفى لحظة معينة صاحت السيدة أدريانابسعادة:' منو تفكر فينا دائما، والآن سوف تكافأون!'. عندها ردت ابنتها ' اسكتى يا أمي، فلم نقرأ التقييم بعد، لنصعد إلى المكتب، ولكن أحدا لم يتحرك. «كان لا يزال هناك

صندوقان لم يتم نقلهما. وبينما كان البروفيسور يقترب من صندوق أمتعة السيارة اعترضته أخته كارميلا وزوجها دون إشارة اتفاق فيما بينهما، واضعين أمامه مانعا حقيقيا. قال له ماسيمو ليوني: 'افتح المظروف، الآن، قلت لك'. كان يعرق بغزارة ويهدد، وكان مخيفا. وكانت زوجته تقف مستقيمة إلى جواره كأنها جندى حراسة. وبدأت السيدة أدريانا تصرخ: ' لا تتشاجروا، لا تتشاجروا، فسوف تتحطم، سوف تتحطم'، قالت وغطت وجهها بيديها. «كان البروفيسور غاضبا حقاً، فلم يعر صهره نظرة، وأمر أخته أن تقول لزوجها إلا يعترض طريقه، فهذه شئون تخص عائلة الفاليبي، وهذا الموقف لا يعجبه. وراح يبعده عن طريقه. دفعه ماسيمو ليونى وهو يصرخ فيه: «اقرأه أيها البائس!» ربما يخيفنى ذلك الوحش! صمت البروفيسور وانتفض وتناول من جيب بنطاله مظروفاً وفتحه وأخرج منه ورقة، قرأها وحده. ثم قال: 'إنها مقلدة'.

كان شاحباً فازداد شحوباً، ثم حانت نهاية العالم. بدأت السيدة كارميلا تكيل السباب والشتائم ضد منولارا، لكن ما ذنبها هذه الفقيرة المسكينة؟، لصة، غشاشة، جاهلة... لقد اتهمتها بكل الموبقات وقد جن جنونها، بينما ظل الباقون ينظرون إليها صامتين صمت التماثيل. وباختصار، كان المشهد كأنه سينما». «ولكن ألم تحس بالتعب وأنت واقف هناك تنظر من ذلك الثقب؟» سألت السيدة انزا زوج أختها. ردت أختها: «كان يريد أن يرى كل شيء، لم يكن هناك أى أمل فى إبعاده عن الجدار.. أنا أيضا كنت أريد أن أتفرج على الجراج، ولكنه لم يترك لى هذه الفرصة، فاستمتع بكل شيء وحده، حتى ألم العظام لم يكن يحس به». وقال دون باولينو: «انتظر، فالحلو لم يأت بعد». «أخذ ماسيمو ليونى الورقة من يده وقرأها، ثم رفع عينيه واستدار ناحية الجراج، وكأنما تلبسته روح شريرة. اتسعت عيناه حتى بدت مثل عيون الأخطبوط، وجحظت كأنها تريد أن تخرج من مقلتيه. ودون أن ينبس بكلمة راح يكيل اللكمات لرأسه، بقوة جعلتنى أسمع صوتها، وواصل على هذا الحال فى صمت. كان الآخرون يطلبون منه أن يتوقف، ولكن لا أحد منهم كانت لديه الشجاعة للاقتراب من ذلك الشيطان، الذى راح الآن يسب منولارا، مواصلا

لَكْم نفسه، فى البداية فى الرأس ثم فى العنق وإلى أسفل الصدر. «عند نقطة معينة صاحت السيدة أدريانا:' توقف، أنت تؤذى نفسك!'. نظر إليها وأجابها: 'لا أسمح لنفسى بأن أنهال على زوجتى بالعصا، فهى سبب كل ويلاتي، ولكننى أستطيع أن أفعل بنفسى ما أشاء'. وتابع لكم نفسه كمجنون: وبدأت النساء يصحن ضد منولارا، واقترب البروفيسور من أمه، صامتا، وأستطيع أن أقول إنه كان خائفا أن يشتبك مع صهره فى شجار، فالتزم الصمت. فى تلك الأثناء كانت السيدة ليللا قد هبطت بعد أن سمعت هذه الجلبة وشاركتهم هى الأخرى فى توجيه اللعنات للمسكينة منولارا، وكأنها نهاية العالم. ثم أخذت هى وأخوها الصناديق المتبقية وانصرف باقى أعضاء عائلة الفاليبي، وظل ماسيمو ليونى وحيدا فى الجراج يضرب نفسه، وقد انتفخ كله متورما. فى النهاية أعطى ركلة إلى سيارة صهره وصعد إلى المنزل بخطوات واسعة، من يدرى ماذا سيحدث فوق...»

سألت السيدة انزا: «وبعد ذلك؟»

ردت الأخت: «وكيف لنا أن نعرف؟» حسب الأصوات كانوا يتقاتلون فيما بينهم، وسمعنا أصوات أشياء تتحطم ولكن لم نفهم جيدا. لقد بقينا فى بيتنا وكانت الأصوات تأتينا من الجانب الأخر للقصر، كان الخروج يبدو لنا صعبًا. إذا كنت تريدين أن تعرفى ماذا حدث فاسمعيه من الآخرين؛ فهذه القصة لن تموت قبل أن تعرف بها البلد كلها».

ثم تابعا تناول الخضراوات المسلوقة باستمتاع، فقد كانت أول وجبة ساخنة اليوم. « أتساءل ماذا يمكن أن يكون داخل هذه الصناديق... ترى ما رأيك أنت يا باولينو؟» كانت السيدة إنزا تريد أن تعرف المزيد. «الله وحده يعلم، ولماذا هذا الموقف الصعب مع منولارا المسكينة.. لقد كانوا حتى الأمس يتحدثون عنها بالخير. لابد أن أفكر فى هذا الأمر.» غمس باولينو قطعة كبيرة من الخبز فى مرق الخضار، ثم قذف بها إلى فمه وبدأ يمضغها ببطء مستطعما إياها فى صمت.

٤٠. عائلة ماسكولو تتناول المكرونة متعجنة

لم يتذمر أحد من عائلة ماسكولو لتناوله المكرونة متعجنة، والصنف الثانى بارداً فى ذلك اليوم الثلاثين من شهر سبتمبر.

كان المهندس الزراعى انجيلو ماسكولو، ابنًا غير شرعى للمرحوم المحامى تشيشو الفاليبى، الذى ساعده فى شراء منزل بجوار قصره، أمام بلكونة حجرة المكتب. وكانت كل عائلة ماسكولو تشعر بالعرفان والامتنان لعائلة الفاليبى. لم تشارك فى أحاديث النميمة الأخيرة، وكانوا لايهتمون إلا بشئونهم، آباءًا وأبناءا وأحفادًا صغارًا.

ولكن فى ذلك اليوم لم يستطيعوا تفادى فضول معرفة شئون الآخرين.

ظلوا جميعا واقفين على أقدامهم خلف الستائر الخفيفة لنوافذ حجرة الطعام يشاهدون ويسمعون المعارك الضارية التى نشبت ببيت الفاليبى.

كانت ليللا قد ذهبت مباشرة إلى حجرة المكتب وفتحت شيش النوافذ ليدخل الهواء، ولترى جيدا.

عندما رفعوا التحف من فوق البيانو ووضعوا فوقه المزهريات، كان المكان المناسب لرؤيتها وتأمل منظرها.

كانت تتعجل متعة فتح الصناديق، واحدًا تلو الآخر، كانت واثقة من قدرتها على إقناع الآخرين بتركهم لها: يجب أن تصبر ولا تتعجل.

فتحت صندوقين. كانا يحويان جرتين بديعتين، ذاتى لون أسود لامع، الأشكال الحمراء كانت مرسومة بالتفصيل وفى غاية الأناقة، وأوراق الشجر التى كانت تزين حواشيها رقيقة وتامة. فتحت صندوقين آخرين، وتعجبت أكثر، وجدت زلعتين مطابقتين لزلعتى الصندوق الأول، بالتأكيد الأمر يتعلق بمجموعة هامة جدًا. شدت الستارة الدانتيل.

عندما سمعت جلبة غير واضحة صادرة من السلم الداخلى، فكرت فورا فى أن الأم قد وقعت والأسوأ أن يكون أحد الصناديق قد أفلت من يد جانى، أو ماسيمو وانكسر ما به من فخار. نزلت مسرعة. وصلت إلى الجراج، فهمت، وشعرت بالحنق الشديد من تصرف ماسيمو الذى أراد الانصراف. أخذت صندوقًا وحملته إلى الطابق العلوى، قلدها جانى وحمل الصندوق الآخر.

من العجيب أنهما كانا يحملان الصندوقين بنفس الحرص الذى كانا يحملان به الصناديق السابقة، على الرغم من معرفتهم بأن القطع مقلدة، بيد أنهما وضعاها فوق المنضدة بالصالة وليس فى حجرة المكتب. لحقت بهما الأم وكارميلا. ارتمت كارميلا فوق الأريكة الكبيرة أمام المدفأة، تنتحب وتطلب العون، فماسيمو سيقتلها لمزحة منولارا الأخيرة.

كانت الأم جالسة عند قدميها، تمسد جسدها بشرود، مرددة أنها لا تفهم ماذا حدث، ربما فى المتحف قد أخطأوا أو أن أحدهم خدع منولارا.

ظل جانى وليللا واقفين يقرآن الخطاب باشمئزاز؛ فالخطاب لا يؤكد فقط أنها قطع مقلدة ولكن يصرح أيضا ببيعها والسماح بخروجها من البلاد على هذا الأساس.

قال البروفيسور:« يا للسخرية، يصرحون لنا بتصدير القطع المقلدة.»

لم ترد ليللا، كانت متكدرة الوجه. سألها الأخ: «أين وجدتيهم ؟»أشارت بحركة واهنة إلى الرف.

أردف: «من يدرى إن كان هناك المزيد منها، فلنرى.» اقترب من الحائط الطويل المغطى بالكتب.

نهضت كارميلا، ولحقت به.

«تلك المجنونة، كانت تبدد أموالنا بعد وفاة أبى على شراء قطع مقلدة.... لم تكن تفهم شيئا، انظرى، من يدرى كم منها هنا، كانت تظن أنها تستثمر الأموال جيداً إلا أن كلها مقلدة.« كان جانى يتحدث، واثناء ذلك يفتح الأدراج السفلية بالمكتبة دون

ان يغلقها، ويخرج صناديق حاوية لقطع أخرى من الخزف، أشياء من كل الأنواع، قطع من رخام من كالترجرونى، وأشياء أخرى كثيرة.

كارميلا وقد مسها الجنون، كانت تفتح كل الأدراج ، أيضاً أدراج الخزانة متعددة الأدراج، ادراج المناضد، كانت تقلب الاوراق، الأشياء، ملفوفة، مكومة فوق الرفوف، والأرضية، والمقاعد.

كانت ليللا واقفة، تراقبها ثم انضمت إلى حركات الأخت العبثية، كما لو كانت بحاجة إلى تنفيس الطاقة المنبعثة.

هكذا وجدهما ماسيمو، أشبه باثنتين من الأريينوئس*، بعد تفريغ الأرفف السفلية، تركا درف المكتبة مفتوحة على مصراعيها، فقد شنت الشقيقتان هجوما على المكتبة: أفرغتا محتويات الارفف بإلقاء الكتب فوق الأرضية، لاكتشاف أرفف أخرى سرية تحوى الكثير من المزهريات الأخرى، بعضها شبيه بالمقلدة، والأخرى مختلفة عنها، أنية أخرى، قنينات، مصابيح زيتية، صور، وبطاقات، أطباق، تحف، كلها مرتبة بدقة ومفهرسة.

كان جانى قد تنحى جانباً، واقف بجوار أمه. كان ينظر اليهما ذاهلا.

بقى ماسيمو أيضاً واقفاً يراقبهما. تعرف على المزهريات المقلدة، كانت فوق البيانو، فى غاية الجمال. تعجب قائلا:

«تلك النفايات هى المزهريات التى كانت العاهرة تعتبرها ثروة لها ولعائلة الفاليبى، يالكم من حمقى ويالها من فاجرة قحبة. خدعتها مجموعة كبيرة من المزيفين، وضيعت أموالنا. تستغفلوننى منذ عشر سنوات، كنت أعتقد أنكم أفضل من الآخرين، وأنتم لستم إلا مجموعة من المخبولين. ما الذى دفعنى لمصاهرة تلك العائلة البلهاء؟ تستحقون أن تعرف صقلية كلها مدى حماقتكم....نشرتم النعى بالجريدة، وأنا أحمق مثلكم لأننى أطعتكم.» التقط أحد التماثيل البرونزية الصغيرة من فوق المنضدة الصغيرة بجانبه، وألقى بها فوق الأرض، ثم أسقط منفضتى سجائر، ومزهرية صغيرة، وظل واقفاً منهكاً، ودهشاً من جرأته.

* الأرينوئس إله الانتقام عند اليونانيين

كان رد الفعل على تصرفه غير محدود، وما برح يثير دهشة أهالى البلدة الذين أمدتهم عائلة ماسكولو، بعد أن تخلت عن تحفظها، برواية مفصلة عما حدث.

ليللا والتى انهمكت بالبحث فى أحد الأدراج. عند سماع الضجة التى أثارها سقوط التمثال، نهضت بسرعة كبيرة، انقضت على البيانو، أمسكت بإحدى المزهريات وأسقطتها أمامها بعيدًا عن قدميها. تحطمت المزهرية. أمسكت بأخرى وألقت بها فوق الأولى. قلدتها كارميلا، وانضم أيضاً جانى إلى هوس التخريب لتطهير الذات.

كان صخب تكسير القطع الفخارية يختلط بالشتائم التى انهال بها ماسيمو عليهم جميعاً، وخاصة على منولارا. أخذوا جميعاً فى الصراخ والسباب ضدها فى جحيم مستعر من الجلبة. وكإحدى الارينس(الهة الانتقام) ، ارتقت ليللا سلم المكتبة، وجعلت تنزع كتب الأب القديمة، ترميها بعنف فكانت الكتب تقع متهالكة الأوراق، وقد دمرت أغلفتها بالكامل. فتحت أيضا أرففاً أخرى سرية من المكتبة مليئة بالمزهريات التى تحطمت إلى قطع صغيرة.

اقترب منها جانى. ناولته مزهرية شبيهة بتلك المزهريات فوق البيانو وقالت:

« هاهى الخبيرة والمحبة للفنون.. انظر إلى هذه ليست إلا نسخة أخرى مقلدة، نسخة من المزهريات التى حملناها إلى المتحف.»

أمسك بها جانى وغمغم:« منو كانت تكرهنا جدًا، جدًا. هذا يشرح كل شىء...» كانت عيناه تفيضان بالدموع، كتم نحيبه الذى كان يبلل حلقه، وترك المزهرية تقع على الأرض. بعد ذلك أخذ يبكى دون تحفظ، واقفا بجانب السلم، كان يأخذ كل ما تناوله ليللا ويكسره، وقد أحاطت به مقتنيات أبيه التى تحولت إلى شظايا.

جعلهم صراخ كارميلا يلتفتون اليها.كان ماسيمو يطبق بيده حول عنقها ويهزها كما لو كانت دمية، صارخا فيها بكل أنواع السباب. أسرع جانى لإنقاذ أخته، وتشابك الاثنان بالأيدى. أصيب ماسيمو بالاصابة الأكبر، عضه فى ذراعه، بينما امتلأت ساقا وذراعا جانى بالبقع الزرقاء. وفى خضم ذلك الهرج، دق الأب ارينا جرس الباب.

٤١- الأب أرينا فى ظهيرة مليئة بالزيارات

كان الأب أرينا قد اتفق مع السيدة الفاليبى أن يمر ببيتها ويتناول معها القهوة بعد الغداء عندما يخلو البيت من الزيارات، وبذا يمكنهما الثرثرة وحدهما. وقد دق جرس قصر الفاليبى فى تمام الساعة الثانية وبعد انتظار طويل، فتحت ليللا الباب الصغير الكائن داخل إحدى ضلفتىْ الباب الكبير، كانت تبدو دهشة من الزيارة.

فتحت له مهملة الهندام، متربة الثوب، شعرها منتفش، كانت تبدو متعبة ومحبطة، لم تدعه إلى الدخول من البوابة، بل دفعته إلى الانصراف قائلة إن أمها ترقد بالفراش لأنها ليست على ما يرام. كان واضحا أنها لم تكن ترحب بزيارته. وكانت تتعجل خروجه وإغلاق الباب فى وجهه، لدرجة أن أحد الخطابات التى كانت تمسك بها فى يدها وقع منها وانتهى فوق الرصيف.

تناول الأب ارينا الخطاب ودسه فى جيبه، آخذًا على نفسه عهدا بأن يعيده فى صباح اليوم التالي. واصل سيره وقد نزل بزقاق جوتسي، الممتد بمحاذاة قصر الفاليبي، كان يفكر أن لديه ساعتين من الوقت عليه أن يشغلهما بأى شكل قبل الذهاب إلى بيت فاتا الذى ينتظره فى الساعة الرابعة.

«الأب أرينا، ماذا تفعل سيادتك فى الطريق بهذه الساعة؟ تفضل، تفضل لتناول القهوة معنا!» قبل القسيس بشعور من العرفان دعوة المهندس الزراعى انجيلو ماسكولو، كان واثقا أنه سيمضى وقتاً طيباً مع أولئك الأشخاص الطيبين الجادين فى عملهم والبسطاء ولكن الأمور لم تمضِ كما تمنى.

وأثناء تناول القهوة، كان القسيس يستمع، فى بادئ الأمر غير مصدق، ثم حانق، يائس، فرواية عائلة ماسكولو لما شاهدته، وسمعته جعلته يفقد الرغبة فى تذوق بسكويت اللوز الذى قدمته له السيدة. كان كل فرد من عائلة ماسكولو يحكى للأب أرينا ما رآه وسمعه، وشيئاً فشيئاً، رسمت حكاياتهم لوحة مأساوية، قبيحة

وغامضة. السيدة أدريانا كما أقر الأربعة، كانت شاهداً صامتاً على تدمير مريب لحجرة مكتب الزوج أثناء المشاجرة العائلية.

أطلوا معا من النافذة التى شاهدت من خلالها عائلة ماسكولو ما حدث لتحقق من وصف المشهد داخل حجرة المكتب، ولكن شيش النافذة كان مغلقا، ولم تكن هناك علامة للحياة داخل الحجرة، كما لو أن شيئا لم يحدث. أراد الأب أرينا أن ينصرف ويتمشى وحده ليفكر ولكن ذلك لم يتسن له: فالسيدة ماسكولو كانت بحاجة للحديث عما بداخلها والنصح حول كيفية التصرف.

لاحظ الأب أرينا قلق المهندس الزراعى وزوجته، كانا لا يعرفان إن كان الأمر يستلزم إبلاغ صديق أو قريب لعائلة الفاليبي، شخص ثقة ولبق أو حتى الذهاب بأنفسهم للاطمئنان بأن السيدة الفاليبى ليست بحاجة إلى مساعدة أو الاتصال بالطبيب ميندكو، وفى الغالب ابن المهندس، وزوجته، على الرغم من حسن أخلاقهما، إلا أنهما لن يستطيعا مقاومة التحدث عن الأحداث الغريبة التى شاهدها من النافذة.

كان يخشى جدًا من انتشار أخبار ما حدث ببيت الفاليبى فى البلدة كلها، قبل حلول الظلام، وفى محاولة يائسة لإنقاذ القليل المتبقى من الثقة والاحترام لهذه العائلة بروكاكولمبا، أكد الأب أرينا لعائلة ماسكولو أنه سيخبر فورا الرئيس فاتا بما حدث وأوصاهم بحفظ السر.

اصطحب انجيلو ماسكولو القسيس إلى باب الخروج كان يريد التحدث معه وحدهما: «أبتاه، أود أن أخبر حضرتك ببعض الأشياء التى أعرفها أنا فقط والتى شغلت تفكيرى كثيراً. فى السنوات الأخيرة من حياة المحامى أوراتسيو، كان يقضى وقتا طويلا بالمنزل وكان يقضى النهار بحجرة المكتب. وكان يصل بعض الاشخاص ليلا بعربة تجرها الخيول كانت وجوها غير معروفة. كانوا يقفون أسفل القصر، وينتظرون، ثم تفتح منولارا النافذة وتدلى حبلا مربوطاً به سلة.

كما لو كانت تشترى متطلبات المنزل. وكانت سلال ثقيلة تصعد مليئة بأشياء تغطيها أجولة الآن أتساءل عن محتوى تلك السلال.. أعتقد الآن أنها لا بد أن تكون أشياء مسروقة من المقابر أو من الحفائر الأثرية، تلك الأشياء التى حطموها فى هذه الظهيرة.

ربما كان يجب أن أتحدث فى ذلك مع المحامى لأقنعه بألا يقوم بشراء تلك الأشياء ربما تعرض الأبناء الآن للتهديد أو الابتزاز وحطموا كل شئ خوفا.« طمأنه القسيس بأن المحامى اوراتسيو كان عنيدا ولم يكن ليتبع نصائح المهندس الزراعى ماسكولو، لذا فقد أحسن صنعا بعدم الحديث معه عن أى شيء».

أضاف ماسكولو: «حدث شيء آخر آنذاك، من المحرج الحديث عنه، أسالك الغفران. لا يعلم أحد من أبنائى شيئا عما سأحكيه، هم شباب طيبون ولكن قد تفلت منهم كلمة، وأنا لا أريد أن ألحق أذى بعائلة الفاليبي، أقول ذلك لحضرتك فقط يا أبت. أنا أعانى من الأرق وكنت آتى إلى حجرة الطعام أثناء الليل لقراءة الجريدة، كى لا أوقظ زوجتي. وفى ليالى الصيف، كان المحامى يترك شيش النوافذ مفتوحاً، وكنت أطل من الشرفة لأستمع إلى الموسيقى الجميلة التى كانت تصدر دائما من حجرة مكتبه، كان لديه جراموفون رائع. أقسم لك أننى من خلال الستارة البيضاء لمحت جسد امرأة معه فوق الأريكة أمام المدفأة ترتدى ملابس قليلة، هل تفهم؟ لم أفهم كيف تسنى لها الدخول إلى المنزل مع وجود السيدة أدريانا ومع ذلك فقد رأيتها، كانت دائما نفس المرأة، ذات الشعر الغامق الطويل، كانت جميلة وكانت تأتى إليه حتى السنوات الأخيرة من حياته. لم أكن أتصور أنه قادر على تصرف مثل ذلك، ربما حتى أباه رحمة الله عليه، لم يكن ليفعل ذلك. .. حقيقة أنه كان أيضاً فى شيخوخته يذهب إلى بيت الدعارة دائما، بيد أنه على الأقل لم يحضرهن إلى المنزل.« جاءت إجابة الأب أرينا فورية وحاسمة:« عزيزى انجيلو لا يمكنك الجزم. فقط قسيس. يمكنه أن يعرف كل ضعف النفس وخطايا الجسد، دون أن أخون سر الاعتراف، أقول هذا لك أنت فقط لا يدهشنى ما تحكيه لى عن المحامى أوراتسيو.

.. كما يقول المثل شجرة الكمثرى لا تثمر إلا كمثرى ودخول هذا النوع من النساء داخل البيوت الخاصة خفية أثناء الليل والنهار من الأمور التى حدثت كثيراً. ..و لحسن الحظ لم ينفضح أمرهم فى البلدة وما رأيته ليس مدهشا أو غير عادى فى بيت الفاليبي، هذا وغيره يعلمه القساوسة أثناء الاعتراف فليرحم الله المحامى جانى وابنه أوراتسيو. حسناً فعلت بأن صمت، لو علمت بذلك السيدة ادريانا، لتألمت كثيراً. فضلا عن منولارا، لو كانت حية، لاهتز كيانها، فقد كانت تحرص جدًا على سمعة عائلة الفاليبي. سأتحدث مع الرئيس فاتا عن ذلك دون ذكر أسماء وحضرتك ينبغى أن تنسى أن الأرق قد أصابك يوما ما.

انسل الأب أرينا من بينهم وانصرف تاركاً انجيلو ماسكولو راضياً لأنه تحدث إلى القسيس وحكى له عن وساوسه دون أن يشير إلى بعض شكوكه حول هوية المرأة التى لمحها فى مكتب المحامي، فكان الأمر سيجعله مثاراً للسخرية. كان يشعر بالخجل من أفكاره الشريرة، مسكينة منولارا، طلب منها المغفرة لأنه اتهمها بالخطيئة وارتكاب الآثام. كان القسيس محقاً فعائلة الفاليبى الأب والابن كانا يحبان العاهرات، ومن يدرى ربما وصل الأمر بالمحامى أوراتسيو بجعل منولارا تصطحب واحدة منهن إلى مكتبه.

عندما عاد إلى بيته قال لزوجته:

«ماريا، أخبرك بشيئين، تذكريهما: عائلة الفاليبى لن تقدر أبدا التضحيات التى قامت بها تلك الخادمة المخلصة منولارا ولا المر الذى تجرعته من أجلهم، والأب أرينا يزداد حكمه مع السنين !».

وأثناء ذلك كان الأب أرينا يسير على غير هدى فى طرقات البلدة، التى خلت تقريبا من الناس فى تلك الساعة، كان متكدراً، محبطاً، لم يكن على ما يرام

كان ضوء الشمس الذى يغشى البصر يتبدل مع ظل العمارات و يصيبه بالدوخة. التقى فجأة الطبيب ميندكو، عائدا من زيارة طبية طارئة والذى دعاه إلى بيته، قبل

الأب أرينا الدعوى وتبعه مثل حمَلَ صغير سار وراءه بين سلالم البلدة فى صمت، وحزن وقنوط شديد.

جلسا فى صالون منزل ميندكو، ارتشفا سوياً بعضاً من الخمر الخفيف، وشيئاً، فشيئا، استفاق القسيس وتحدث الرجلان طويلا.

كان من السهل بالنسبة للقسيس التحدث معه عن مخاوفه وهواجسه عن عائلة الفاليبي. كانا بشكل أو آخر زميلين، أحدهما يعالج النفوس والآخر الأجساد وتقابلا مرات عديدة، كل منهما كان مشغولاً بأداء واجبه، عند رأس سرير أحد المحتضرين. كانا يعرفان كل أسرار البلدة وإن لم يبح أى منهما بها للآخر. الآن وقد شعرا بالتشوق والقلق لمعرفة الحقيقة عن عائلة الفاليبى ومنولار، كانا يتحدثان بسرعة وحرية، يتأملان القصة التى تطورت أمام أعينهم فى العتمة الآمنة بصالون بيت منيدكو. كان الطبيب قد أعطى تفسيراً لما رواه ماسكولو. كانت منولارا تستلم التحف المسروقة من حفارى المقابر تنفيذا لأوامر أوراتسيو، جامع التحف النهم.

«كان أوراتسيو ذا أهواء جامحة، لا يقف عند حد عندما يرغب فى شيء. ربما كان يستغل منولارا كوسيط فى عملية شراء قطع أثرية، كثيرون يفعلون ذلك، خاصة منذ أن بدأت هيئة الآثار بالحفر فى منطقة كاسل. لا أعتقد أنه كان يملك الكثير منها أو أنها كانت ذات قيمة كبيرة، والا لتباهى بها أمام الجميع، ولكنى لا أفهم لماذا حطمها الأبناء... كان هناك العديد من الأشياء فى مكتبه وكان بعضها جميلاً. أما بالنسبة للنساء، فكان على عكس والده، لم يكن يعجبه هذا النوع من النساء، كان يعجبه أكثر المتزوجات، لذا لا أفهم من تستطيع الذهاب إلى بيته فى الليل. سيادتك ماذا تظن؟»أمام هذه الكلمات، كاد الأب أرينا أن يصاب بالأعياء مرة أخرى. ولاذ بالصمت.

الطبيب ميندكو، وقد نسى وجود القسيس، اتجه بناظريه ناحية الشرفة، تابع تطريز الستارة الكتان التى كانت تطيرها الرياح، ثم غمغم بصوت منخفض: «ألا أن كانت هذه المرأة هي. ...

أكمل الأب أرينا العبارة: «منولارا» كان هو أيضاً يهمس كما لو كان يتلو صلاة استغفار. «فعلا»، قالها الطبيب ميندكو وقد ركز عينيه فوق زهور السرخس المزروعة أمام ستارة البلكون ثم أضاف وهو يتحدث بينه وبين نفسه.«منولارا، بعد سنوات كثيرة قد تدهشني».

غمغم القسيس: «أما أنا فلا تدهشني.»

انتفض الطبيب ميندكو أمام هذه الكلمات، أقام ظهره فوق المقعد، وأسند يديه على ذراعى المقعد، وحدق إلى وجه الأب اريانا، كما لم يكن يتوقع أن يجده أمامه قابعا فى المقعد بجواره. كرر مسح جبهته التى تعرقت بالمنديل عدة مرات. فقد هزت كلمات القسيس كيانه، الآن يشعر أنه على وشك أن يفقد الوعي، يجتاحه إعصار من الأفكار المتشابكة التى تعصف بعقله.

سأله الأب أرينا وكان أيضاً منزعجاً:

«أيها الطبيب، هناك ما يسوؤك؟»

قال الطبيب:

«لا، شكرا، كل ما فى الأمر أنى أصبحت عجوزا وبعض الأشياء أفهمها ببطء، فعقلى لم يعد يعمل كما فى الماضي، ثم أضاف بنبرة جادة، مشدداً على مقاطع الكلمات « منولارا لا تكف عن إثارة دهشتي»

رجع إلى النظر خارج الشرفة، كانت الستارة قد ارتفعت واستطاع الطبيب أن يرى ما وراء نباتات البلكونة والسور الحديدى المعشق، مرتفعات البلدة والجبال. حدق ببصره فى السماء التى كادت أن يطغى عليها اللون الأبيض من شدة وهج شمس الخريف.

تجرأ الأب أرينا وقال متلعثماً:

«أخبرنى أيها الطبيب، فلتفعل وكأنك فى جلسة اعتراف.» كان أرينا يشعر أن أمامه نفساً تتعذب مثله.

كان الطبيب يكرر:

« لا فالأمر شديد الصعوبة، ثم عاد ونظر إلى القسيس ووجّه إليها سؤالا:

«فلننس أمر المقدسات ونتذكر أننا بشر، رجلان، إذا تحدثت مع سيادتك عن افتراض ارتكاب جريمة، أو ربما جريمتين، هل تحفظ السر؟:

كانت الإجابة جاهزة:« إن كان الأمر يتعلق بمينولارا، فبكل تأكيد نعم!.»

وبصعوبة فى البداية، عاد الطبيب ميندكو للحديث، كف عن التعرق وبدا هادئاً:

«حسنا، سيادتك تعلم أن أوراتسيو الفاليبى مثل منولارا، كان مريضاً بالسرطان. ولم يكن ليطول به العمر على أية حال. كان يخشى أن يتعذب. لم أنجح فى تخفيف عنه آلام المرض عنه، فالمورفين يؤخذ فى حدود معينة، كان سيتعذب طويلا وسيعانى من احتضار مؤلم لو لم يمت كما مات فى اعتقادى مقتولا.

ليس لديَّ أدلة، فقط تشريح الجثة يمكن أن يثبت ذلك وهو من الأمور التى استبعدها.« نظر مباشرة فى عين القسيس ثم عاود الحديث، يوم وفاة أوراتسيو، كانت منولارا فى الريف، دليل إثبات تام. كانت تقوم بتمريضه، وقد تركت لها حقن مورفين ومواد أخرى يمكنها أن تكون مميتة قاتلة إذا أخطأت الجرعة. كانت تعلم ذلك تماماً، الأمر يتعلق بجريمة ما يسمى اليوم أيضا بالقتل الرحيم. « تناول رشفة مياه ثم أردف:« لم أفكر وقتها فى ذلك، صدقني، كانت السيدة الفاليبى مصابة بنوبة هيسترية وكان ينبغى أن أعتنى بها، ثم إنى لم أتخيل أبدا أن إخلاص منولارا لأوراتسيو يصل بها إلى قتله.»

خادمة مطيعة، مخلصة لن تفعل ذلك. ولكن امرأة محبة ويبادلها حبيبها حباً بحب، يمكنها أيضاً أن تقتل الرجل الذى تحبه.» أسند ظهره إلى المقعد وسأل:

أب أرينا، هل تعتقد أن منولار قد أحبت أوراتسيو الفاليبي؟»

«لا أدري. إن كنت تشير حضرتك إلى حب أم إلى علاقة جنسية فى الشباب، دكتور، لا أدرى حقاً.

فى السنوات الأخيرة من حياة المحامي، كانت تمكث دائما بالبيت كنا نتقابل لمرات قليلة جدًا وبالمصادفة». صمت الأب أرينا لفترة قليلة، حيث كان يمعن التفكير. ثم استطرد متلعثما: «ولكن لو أحبته، هل كانت تستطيع قتله دون إحساس بالذنب أو الندم.»

أضاف الطبيب ميندكو:

لدى سؤال آخر، أود أن اوجه لك يا أبتى.»

وإذا قلت لك إنها ماتت مسمومة بالحلوى التى أعدتها بنفسها من اللوز المر.»

«لا يدهشنى ذلك، لم تكن تريد أن تصبح حملاً ثقيلاً على السيدة الفاليبى وكانت تخشى من تدهور حالتها الصحية فجأة. كانت قد قالت لى إنها كانت مستعدة للموت فقد أدت واجبها نحو الموتى والأحياء. لم تكن مؤمنة كنت أعلم ذلك.» غض الطبيب منديكو جفنيه موافقاً، أمسك بزجاجة الخمر وملأ الكأسين مرة أخرى. بقيا صامتين، وكل منهما غارق فى أفكاره، شرب خمر الأمارنت. كانت الرياح قد هدأت. كأنا يتأمل حزمة الضوء من خلال فتحات الستارة المطرزة التى كانت تغزو الحجرة فتشق عتمتها، وتنتهى بالسقوط فوق أرضية الحجرة. وقد حبست حزمة الضوء فى حيز أسطوانى الشكل، فكانت ذرات الغبار تنبض وتتراقص فى حركة دائبة.

تسرب ببطء إلى الطبيب ميندكو والأب أرينا إحساسا بالراحة والاسترخاء والرغبة فى النوم.

ووجدتهما على هذه الحالة، السيدة دى بريما، شقيقة الطبيب التى كانت قد دخلت لتحية القسيس والثرثرة معه.

كانت الشائعات قد انتشرت بالبلدة عن المشاجرة العنيفة التى حدثت بين الإخوة الفاليبى حول مسائل تتعلق بأموال وميراث:

كان اللغز حول مينولارا يزداد غموضاً. أصيبت السيدة دى بريما بدهشة حقيقية من رد فعل الرجلين. قالا فى وقت واحد، وبشىء من المرح فى نبرة صوتهما انه لا يوجد ألغاز حول منولارا رحمها الله. قالت السيدة دى بريما بجفاء: «لا توجد ألغاز؟ وهل تنتظران مصرع أحدهم؟» أجاب الطبيب: «مقتول لا» ! وغمز بعينيه للقسيس وعندما شعر الأب اريانا أنهما على وشك الشجار، نهض منصرفا، حيث كان قد تأخر على موعده مع بيترو فاتا. أصطحبه الطبيب إلى الباب، اتفقا على أن يتقابلا ليتحدثا مرة أخرى. قال له الطبيب بغمزة من عينه: «تذكر يأبت، لا يوجد اثنان دون ثالث». كان بيترو فاتا قد نسى موعد الزيارة المحددة مع الأب أريانا، من تلاحق الأحداث والساعات الأخيرة العاصفة.

استقبلت السيدة فاتا القسيس فى حجرة الصالون الصغير واعتذرت عن تأخر الزوج حيث إنه استقبل أحدهم فى زيارة غير متوقعة.

كانت مارجريتا فاتا قلقة، متوترة، كانت قد تحدثت لتوها مع ابنة خالتها ادريانا، الحزينة للكارثة الأخيرة التى لحقت بأبنائها بعد سلسلة من المصائب التى لا تنتهي، وقد سقطت فوقهم المكتبة بحجرة المكتب. استمع إليها الأب اريانا بتفهم وطمأن كل منهما الأخر بالتحدث عن آخر الأخبار فى هذا الموضوع.

كان بيترو فاتا قد لحق بهما وشرح أن تأخيره كان بسبب مسألة تتعلق بعائلة الفاليبي. وطلب من القسيس أن ينتظره لمدة نصف ساعة. رفض الأب أرينا الانتظار، و قال متعجباً من جرأته «أريد أن أتحدث معك ياسيادة الرئيس لدقائق قليلة وحدنا».

خرجت مارجريتا من الغرفة بحجة تركهما وحدهما.

كان بيترو فاتا يتحدث بسرعة تشى بضيقه من طلب القسيس: «يعمل بمكتب البريد، شخص يدعى ريسيكو، شيوعى وهو متزوج من البائعة التى تعمل بمكتبه بيكوريلا والتى قد تعرفها أنت أيضاً. وقد تأكد هذا الشخص من أن منولارا كانت

تتلقى أموالاً كل يوم ٢٥ من كل شهر من بنك سويسرى يضم بين عملائه بعضاً من رجال المافيا المعروفين وقد وصل إلى نظرية: أن هناك تحالفاً سرياً بين ماسيمو ليونى ومنولارا تحت حماية المافيا. اليوم وجد موتور عربته الفيات ٦٠٠ محطماً بكتلة من الأسمنت. سواء هو، أو ذلك الجبأن مدير البريد لا يدريان من يمكنه حمايتهما». أمام تلك الكلمات لم يتمكن الأب أرينا نفسه من كتم ابتسامة ساخرة: ربما يحمل ذلك حقيقة عميقة.» قال لى المدير أن ريسيكو يريد إبلاغ الشرطة ضد كارميلا لارتكابها سلسلة من الانتهاكات القانونية بمكتب البريد، بل يتحدث عن أذناب للمافيا، تجارة مخدرات، سلاح، باختصار ضربا من الهذيان، وقد أرسله مدير البريد إلى بيتى كى أتحدث معه وأقنع بتغيير رأيه. هو الآن بحجرة مكتبى بصحبة زوجته. لا أدرى كيف يمكن تهدئته وإقناعه بالصمت، ستكون كارثة لأبناء اوراتسيو، و أيضاً بالنسبة له.» اضاف الرئيس بقلق.

تحدث الأب أرينا باختصار عما رآه ماسكولو وعن الشكوك حول إحتمال قيام المحامى الفاليبى بشراء قطع أثرية مسروقة من المقابر أثناء الحفريات. وأن تكون منولارا متورطة أيضاً بشكل ما فى تجارة الآثار، وهل هذا يفسر العلاقة مع البنك السويسري؟

«أستبعد ذلك، كنت سأدرك شيئاً مثل هذا فقد كنت قريباً جدًا اوراتسيو ولم يكن ليخفى عنى مثل هذا الأمر.

أعلم أنه كان يشترى من بعض الفلاحين بعض القطع الأثرية التى كانوا يعثرون عليها فى الحقول، عندما يصطدم الفأس بغطاء مقبرة، ربما أيضاً من بعض سارقى القبور ولكن لم يكن ذلك على هذا النطاق الواسع.

أعرف أيضا أن منولارا كانت تساعده فى فهرست القطع، وكانت تطلب منى كتابة خطابات إلى المتحف الإقليمى للتعرف على هذه القطع، وقد يكون هذا تفسيراً مقنعاً وربما بمقبولاً لريسيكو».

تذكر الأب أرينا الخطاب الذى سقط من ليللا، وأعطاه لبيترو. هاهو يرتكب أثماً آخر، من الأحرى أن يشعره بالخزي، وربما أيضا ينبغى أن يتطهر بالاعتراف وقد ارتكب الإثمين لحماية منولارا، قد يغفر له الرب فقد فعل ذلك بسبب العاطفة التى يشعر بها نحوها، وهو متأكد من ذلك الغفران.

قرأ بيترو الخطابات وأعاده إليه. «هذا يفسر الكثير، و لكن ليس كل شيء».

اشترت منولارا بعض القطع الأثرية المزيفة على إنها أصلية. كان أوراتسيو يستغلها كاسم مستعار فى الاتصال المباشر مع أشخاص من الخارجين عن القانون أو من سارقى المقابر، يؤسفنى قول ذلك. كان أبناء أوراتسيو فى حاجة لبعض الأموال، ففكروا فى بيع بعض من هذه القطع، وبالطبع وبحكمة أرادوا تثمينها. عندما أصيبوا بخيبة الأمل، حطموا كل القطع وتشاجروا أيضاً، ألا تظن حضرتك ذلك؟ انهى قوله، وعاد بيترو فاتا إلى الزوجين ريسيكو.

لحقت مارجريتا على الفور بالأب أريانا، فقد حدثتها البارون تشيفاليا تليفونياً لتحكى لها تفاصيل الشجار الحاد بين شباب الفاليبي. وليست حكاية سقوط المكتبة. كان الأرب أرينا مرهقاً، لم يكن فى حالة تسمح له بتهدئة السيدة أو الاستماع إليها. فلجأ إلى حيلة تفلح دائما، اقترح عليها أن يصلى معها صلاة التسبيح.

أدت مارجريتا الصلاة بعناية وأريحية، كان الأب أرينا يقف عند مقاطع كلمات الصلاة ببطء غير معتاد، وقفات طويلة، أيضا همهمات متعمدة، لإطالة الصلاة أطول فترة ممكنة. وهكذا وجدهما بيترو فاتا، عندما لحق بهما، بعد أن ودع ريسيكو وزوجته. كانت مارجريتا راكعة على ركبتيها فوق وسادة وقد ثبتت عينيها فوق صورة العذراء على البوفيه، والأب أرينا جالس فوق مقعد ونظرته قلقة أحياناً، وأحياناً أخرى تائهة فى الفراغ. كانوا جميعاً مرهقين وقرروا إنهاء الزيارة. وهذه المرة قبل الأب أريأنا بصدر رحب دعوة بيترو فاتا على الغداء فى اليوم التالي.

-٤٢- الاثنين يوم شاق لريسيبكو

كانت السيدة بيكوريلا والبائعة أليفيرا ريسيكو مشغولتين فى المكتبة التى ازدحمت بالطلبة والآباء بحثاً عن الكتب الدراسية. كانوا يتهامسون جميعا، الصبية وقد أصابهم الملل كانوا يمسكون بالكتب بشكل عشوائى ينظرون إلى الأغلفة ثم يعيدونها دون أى ترتيب، يجيبون دون أدنى حماس على أسئلة الوالدين، يتوقفون للثرثرة مع زملائهم وهم يمضغون العلكة والتى أصبحت آخر الصيحات بين الصبية.

كان الآباء يستعرضون قائمة الكتب المدرسية ولا يكفون عن الصراخ والشكوى من ارتفاع ثمنها ويتصفحون الكتب المستعملة ويلفتون النظر إلى الشخبطة والعلامات التى تركها المالكون السابقون للكتاب ويطلبون التنزيل من ثمنه، ويتشاجرون للحصول على النسخ قبل العملاء الآخرين.

كان جرس جهاز التليفون بجوار الخزينة يرن وقد غطى عواء الزبائن على رنينه. كان جاسبرى ريسيكو. اعتذرت الفيرا:« أنا مشغولة جاسبرو.« أردت فقط أن أخبرك أن الرد يؤكد التوقعات، أراك على الغداء.»

واصلت الفيرا خدمة الزبائن، وقد ندت شفتاها عن ابتسامة كبيرة أمام النظرة اللائمة من السيدة بيكوريلا.

تأخرت الفيرا على موعد الغداء، كان ينبغى تجهيز المكتبة لغزو بعد الظهيرة. كان جاسبرى قد وصل إلى المنزل بالفعل وكان يتجول بعصبية فى الصالة. قبلها قبلة شاردة وقال:« لدينا مشكلة كبيرة جدًا.»

لم أتخيل أبداً ولم أتوقع أن تكون رسالتى إلى زميلى بميلانو بمكتب البريد مراقبة ولكن من الواضح أنها كذلك. لقد تسلمت الرسالة فى مظروف مغلق، أثق تماماً أن المظروف كان مغلقاً، ثم إننى مزقتها إلى أجزاء صغيرة وألقيت بها فى سلة الأوراق.

وكانت الرسالة تقول فقط « الإجابة على تساؤلك بنعم، احترس» إذن من قرأ الرسالة، كان يعلم بحديثى مع الزميل. ثم فى ساعة متأخرة من الصباح، ذهبت لأستقل السيارة كى أذهب إلى مكتب روكاكولمبا الجديدة ولم يشتعل المحرك فتحت غطاء السيارة، كان المحرك مغطى تماماً بالأسمنت الذى جف بالفعل كان يبدو وكأنه عمل نحت معاصر.»

كانت الفيرا تستمع إليه بفم فاغر، مذعورة. أدرك جاسبرى ذلك، ولكنه واصل حديثه: «ينبغى التصرف والرد، والتمرد على هذه الأفعال المتعمدة لإخراس الألسنة لذا ذهبت إلى مدير مكتب البريد. وهذا المدير سيطر الخوف عليه، ورجانى أن لا أتحدث مع أحد فى هذا الموضوع أو أقدم أية بلاغات، بل إنه طلب منى كصنيع شخصى مناقشة الأمر مع الرئيس فاتا.»

قاطعته الفيرا: «وما دخله فى ذلك؟»

«كيف وما دخله؟ أنه واحد من هؤلاء الرأسماليين الذين لم يعملوا يوما واحدا فى حياتهم، كان صديقاً للمحامى الفاليبى ويعرفهم جميعا، رجل يحظى بالاحترام وذلك الأحمق مدير البريد كان قد حكى له عن ليونى والخطابات، لذا يريد أن أذهب وأتحدث معه، قبل أن أقوم بواجبى بالإبلاغ عن ليوني، وأولئك المجرمين الذين خربوا سيارتى الجديدة! هذا أمر غير مقبول، اعتداء يمس حقوقى كموظف وكمواطن.»

كانت عينا جاسبرى تلمعان ويدفع بقبضتى يديه داخل جيبى السترة كان على وشك تمزيق البطانة، لو لم تمسك الفيرا بيديه برقة بين يديها ناظرة إلى عينيه مباشرة، وتقول له بنبرة حاسمة هادئة:« يجب أن ترضيه، كان دائماً لطيفاً معك، ويقدرك وأعتقد أيضاً أنه يحبك. سآتى أنا أيضا معك إلى الرئيس، يجب أن أسلمه بعض الكتب»

قرأت الفيرا إشارة موافقة فوق شفتى جاسبري، واتجهت نحو المطبخ ومن هناك واصلت الحديث:

«يمكننا أن نتغاضى عن الأمر، ولا نقدم بلاغاً ضد ليونى ونكتفى بإخبار الشرطة عن الضرر الذى لحق بالسيارة. أطلت من باب المطبخ وقد أسندت ساعدها إلى حلقة الباب وقالت: «جاسبرو، اتصل بمدير مكتب البريد، لنحدد الموعد فوراً مع الرئيس فاتا ثم نتناول طعامنا.»

همهم جاسبري: «ينتظرنا فى الساعة الرابعة والنصف».

«مثل هذه الأشياء تحدث، لقد أذهلتهم، وستدهش أيضاً الرئيس فاتا.» واستطردت: «الآن لنحضر طعام الغداء معنا ثم سأتصل بالسيدة بيكوريلا.» كانت هذه إحدى المرات النادرة التى ساعد فيه جاسبرى ريسيكو زوجته فى إعداد المائدة بل إنه تَبل السلطة الخضراء بدلاً من النظر إلى زوجته أثناء تحضير طعام الغداء. خرجا من المنزل فى أول بعد الظهيرة مارين بالمكتبة لأخذ الكتب التى ينبغى تسليمها إلى الرئيس فاتا. طوال الطريق تأبطت الفيرا ذراع زوجها ولم تتركه إلى أن وصلت إلى البوابة الخارجية لقصر فاتا. طوال درج السلم المرتفع لروكاكولمبا، الطرق المتعرجة للأزقة الضيقة، لم تكف عن الثرثرة للتسريه عنه وتشجيعه وعندما شعرت بجاسبرى يضغط جانبها بيده، فهمت أنها نجحت.

استقبل الرئيس فاتا بنفسه ريسيكو واقتاده إلى حجرة المكتب، شكر الفيرا على مجلدات دانونسيو التى أحضرتها. وقد شجعتها كلماته الرقيقة على الحديث والذى اسهبت فيه دون حرج، عن مطبوعات جديدة من الكتب النادرة وبذا أعطت الفرصة لبيترو فاتا لتأمل الزوج الصامت والذى بدا عليه القلق بشكل واضح. قاطعتهم لوتشيا قائلة: السيدة تود الحديث مع الرئيس لأمر عاجل. استأذن منهما بيترو بعد اعتذارات شتى. وعند عودته وجدهما ينظران من النافذة وقد التصق كل منهما بالآخر، كان منظرهما يثير الحنان. أراد أن يتحدث وحده مع جاسبرى ريسيكو، واقترح على الفيرا بأدب ولطف حيرها، أن تجلس فى الصالون الصغير لتتصفح بعض الكتب القديمة التى كانا قد تحدثا عنها من قبل.

استهل بيترو فاتا حديثه قائلا:

«اخبرني، سيد ريسيكو، دون إغفال أية تفاصيل عن التحريات التى قمت بها حضرتك بمكتب البريد عن انسيريللو.»

أجاب جاسبري: «أية تحريات؟» وكانت تساوره الشكوك حول الاحترام الزائد والمدروس من قبل فاتا لزوجته وربما كان يشعر أيضاً بالغيرة.

«لنتحدث بصراحة، نتقابل اليوم، لأن مديرك حكى لى عن سيادتك، وعن الضرر الذى لحق بسيارتك. أصبحت نبرة صوت بيترو فاتا أكثر جدية وحده: «ليس لدى أى منا وقت لنضيعه. سأتحدث أولا لأظهر لسيادتك حسن نيتي. أنا قلق جدًا على أولاد الفاليبى الثلاثة. كان والدهما صديقى الحميم وأمهم ابنة عم زوجتي: أريد أن أفهم لماذا يتصرفون بهذا الشكل الكريه بعد موت خادمتهم وأيضا لماذا بعض الناس مثل سيادتك تفعل الآن ما يقلق المافيا، بل أيضا مما قد يثير غضبها.»

تجهم وجه بيتروفاتا، واستمر فى الحديث:« فى هذه الحالة، قد تختفى ياسيد ريسيكو أو ينتهى بك الحال جثة ملقاة فى أحد الحقول. إذا أردت أن نحاول فهم شيء معاً، ونصل إلى حل، أنا تحت أمرك. هدفى أن أحمى أبناء أعز أصدقائى من تصرفاتهم غير اللائقة وغير العقلانية التى قد تهدد حياتهم وتعكر صفو حياة أمهم، فما هو هدفك؟» استحسن جاسبرى صراحة الرئيس وحدّثه عن نظريته عن ماسيمو ليونى وعن أن هناك خطة من المافيا، تضطلع فيها اينسريللو وليونى بدور محدد تهدف إلى إدخال تجارة المخدرات فى روكاكولمبا كما حدث فى المدن الأخرى ثم السيطرة وتنمية النشاط العقارى حول البلدة وهو يريد التعاون مع الحكومة لإجهاض هذه الخطة.

«فسر لى لماذا تهتم المافيا كثيراً بالتوسع العقاري، هنا فى روكاكولمبا...

« سيدى الرئيس سيادتك تعلم أن المافيا تحت السيطرة والمراقبة فى المدن الكبيرة، النيابة تستطيع القضاء عليها بضربة واحدة، لذا اتقاء للهجمات، تنسحب إلى المراكز الصغيرة لتعود بعد ذلك للهجوم. « كان واضحاً أن جاسبرى يكرر ما قاله من قبل ولكن هذه المرة بعاطفة قوية «ما الذى يجعل سيادتك تعتقد أنها تحت ضغط وأنها تفقد سطوتها؟»

«يكفى قراءة الجرائد، قراءتها وفهمها بالطبع. هناك من يتمرد، من لا يريد أن ينكس رأسه، لذا ينبغى مساعدة أولئك الأشخاص. أقصد الناس، أثناء محاكمة توماسو ناتالى عرضت أرملة بيترو مسينا أن تدلى بشهادتها ضد القتلة. ثم أجبرت على تغيير أقوالها، فقد هددوها وهددوا أبناءها ولكن آخرين ينجحون فى تحدى المافيا، نوابنا الشيوعيون يحاصرون الحكومة بالاستجوابات، نحن فى صقلية، نريد فرص عمل، تنمية، مستقبلا، رئيسا».

كان ذلك الشاب المثالى يعجب بيترو فاتا، فكر فى سؤاله عما إن كان لديه أولاد، ثم لم يفعل.

أفهم.« سيادتك تريد تغيير العالم» قال واختتم حديثه: «حسناً تفعل»

«صقلية، يا سيادة الرئيس، أريد تغيير صقلية. عمل، مياه، تنمية، عدالة، أنا أومن بالعدالة.» قالها جاسبرى بمبالغة ولكنه كان حريصاً على ألا يجعل من الرئيس فاتا خصماً له. « أعتقد فى محاربة الظلم، محاربة الفساد، أحارب من أجل حقوق العمال، من أجل المساواة بين المواطنين.

ومن أجل هذه المبادئ أنا مستعد للتضحية وأيضاً للمخاطرة.» فكر بيتروفاتا فى ولده جاكيمو، شاب مهذب، يحظى بثقة الجميع، كان ولداً حى الضمير، إدارياً بارعاً، ابناً وأباً وزوجاً عطوفاً. مختلفاً عن ذلك الشاب، الذى يلقى على مسامعه بحمية معتقداته. كان يود معرفته أكثر ولكنه كان يعلم أن ذلك أمر غير محتمل. قال الرئيس بنبرة هادئة وحادة. كتم فيها انفعالاته الجديدة غير المتوقعة: أتسمح لى أن احلل مع سيادتك بعض أفكارك عن انسيريللو وليوني:»

سأبدأ من مقدمة أن انسيريللو تتمتع بحماية المافيا. على افتراض قد يشرح هذا الموقف المعقد، أولاً كانت تضع أموالها فى البنك السويسرى كما تأكدت حضرتك. إذن كانت تحظى بمعاملة خاصة، ثم كانت تتلقى مبالغ مالية كبيرة عن طريق البريد، هذا يتطلب وجود صديق أو زميل لها، رجل من المافيا، يراقب عدم سرقة هذه الأموال وفى حالة اينسريللو وصول الخطابات بشكل منتظم ودقيق. الثالث: كانت اينسريللو تعطى جزءًا من أموالها لأبناء الفاليبى الثلاثة. رابعاً: فى جنازة انسيريللو تحضر شخصية معروفة من المافيا. خامساً: موظف بمكتب البريد، حضرتك، سيد ريسيكو تقوم ببعض التحريات عن الموضوع، فيخربون موتور سيارتك.»

أغلق الرئيس فاتا راحة يده التى كان يعد على أصابعها الخمس النقاط الرئيسية وظل قابضاً على أنامله بينما كان ينظر إلى جاسبري.« سأثبت لك الآن ثقتى الكبيرة فى سيادتك، وأكشف عن معلومات يعرفها القليلون، أسألك فقط أن تحتفظ بها لنفسك وألا تتحدث بها مع زوجتك.»

رفع إبهام كفه المقبوض، وبدأ العد من جديد. «سادساً: يتلقى مدير مكتب البريد تحذيرا بألا يفكر بأمر مراسلات انسيريللو، لذا لجأ إلىّ فى الأسبوع الماضي. سابعاً: علمت ظهر اليوم أن حديقة أحد أثرياء المنطقة خربت ربما لأنه تحدث بشكل مهين عن المرحومة انيسريللو وذكر أنها كانت عشيقة لأحد رجال المافيا. ثامناً: أبناء الفاليبي، أثناء بحثهم عن أموال، يظنون امتلاكهم لقطع أثرية اشترتها انسيرللو، فيقومون بما ينبغى عمله فى تلك الحالة، ويرسلونها إلى خبير لتقرير إن كانت حقيقية أم لا. وعندما يعلمون أنها مقلدة، يحطمون كل مجموعة صديقى أوراتسيو التى ربما ليس لها أى قيمة، بل ويصل بهم الأمر إلى التشابك بالأيدي.

هذه أحداث وقعت اليوم. هذا الخبر الأخير أبرز أمام عينى افتراضاً آخر للموضوع بكامله. إن أردت سيادتك يمكنك استدعاء السيدة زوجتك وسأشرح لكليكما الافتراض الذى وصلت إليه.»

اختارت الفيرا مقعداً بجوار زوجها، وظل بيترو فاتا واقفاً، وبدأ يتحدث:« سيدتى أعتذر عن سوء الأدب معك، ولكنه كان ضرورياً. أود أن أحكى لك عن انسريللو، التى تعرفونها باسم منولارا. « استعدت الفيرا لسماع الحكاية، مأخوذة:

«تيتمت وهى طفلة، واستطاعت إعالة أختها الكبرى المريضة بمرتبها كخادمة، التحقت بالخدمة فى بيت الفاليبى وهى لاتزال صبية، وكانت السيدة ليللا يرحمها الله قد أحبتها وتولت رعايتها، وقد وفرت لها دروساً وخاصة. هكذا تعلمت القراءة ولكنها لم تتعلم الكتابة. كانت ذكية، قوية الارادة، وكانت تساعد كثيراً السيدة أيضاً فى إدارة الأملاك.

وبعد موتها أصبحت عملياً المسئولة عن إدارة أموال وممتلكات العائلة، وهو عمل أنجزته بنجاح، كانت تساعد أيضا أوراتسيو، صديقى الحميم فى نشاطه فى جمع القطع الفنية.

كان أوراتسيو واسع الثقافة، متعدد الاهتمامات ومن بين اهتماماته، كان مولعًا لفترة بجمع القطع الأثرية، التى كان يقتنيها من سارقى المقابر. لم أكن أوافق على هذا التصرف ولكنى لست هنا لإصدار أحكام. حسناً، قال، وهو يلتقط أنفاسه، «ساعدت منولارا صديقى فى شراء القطع المسروقة على حد علمى من تجار كانوا يزعمون أنهم بائعو خضراوات. ربما عن طريق ذلك، تعرفت على رجال المافيا الذين يسيطرون على هذه التجارة.

أظن أنه فى مقابل قطع أثرية، (أو أشياء مقلدة كما اتضح فى الحقيقة)، قبلت أن يستغل رجال المافيا اسمها فى عملياتهم. كانت منولارا تتلقى رسائل، وأموالاً، ومستندات موجهة لآخرين وتحتفظ بجزء من المال مقابل اسمها المستعار.

وفى هذه الحالة، كترس صغير فى آليات المافيا، تحظى بالحماية، ولا يستطيع أحد المساس بها مثل الآخرين، وهذا تفسير وجود زعيم للمافيا بجنازتها، ليس فقط دليلاً

على الاحترام ولكن أيضاً السلطة. وهذا أيضاً تفسير الأموال التى بحوزتها المشكوك فى مصدرها، وأيضاً كرمها مع أبناء الفاليبى التى كانت تعتبرهم مثل أبنائها.

«بينما آل الفاليبي، يؤسفنى قول ذلك، فهم. . جشعون متغطرسون وسفهاء. مثال سئ لعائلة كان يمكنها أن تساهم بإيجابية فى حياة المدينة. يريدون فقط الاستمرار فى استغلال كرم منولارا معهم، فأرسلوا كارميلا أكثرهم حماقة إلى مكتب البريد، لحسن الحظ الموظفة بالمكتب وحضرتك سيد ريسيكو رفضتما تنفيذ طلبها.»

أمسكت الفيرا بيد جاسبرى وضغطت عليها، وأسندتها إلى حجرها دون أن تخفض عينيها عن الرئيس.

«لن أتحدث عن ماسيمو ليوني. صدقوني، لايوجد صاحب عمل جاد، أو أحد من المافيا يمكنه أن يسند اليه أدنى عمل مهما صغر، فهو لا يجيد شيئاً، إلا الثرثرة.

لن يقتل كارميلا ضرباً، أنا واثق من ذلك فهو رعديد.

«أتعجب وعند ذلك نظر مباشرة إلى وجه الشاب جاسبري«أتعجب من أن شخصاً ذكياً ومثقفاً مثل سيادتك يرتكب مثل هذا الخطأ الذى إن سمحت لى يعتبر خطأ كبير» إعطاء أهمية لليونى.» اكتفى جاسبرى بخفض رأسه قليلا، كما لو كان قد قام بعمل الحسابات ووصل إلى النتيجة.

«ليس له أى صلة بمنولارا، التى كنت أعرفها جيدا وأقدرها. كانت امرأة جادة وأحيانا عنيفة ربما لتفرض احترام الناس لها، ولكن مع الأطفال والضعفاء كانت صبورة ورقيقة.

أقول لك شيئاً آخر «كانت منولارا تكره العنف والإيذاء الجسدى لم ترد أبدا التعرف إلى ليونى لأنه كما كانت تقول مارس العنف ذات مرة مع امرأة.»

انتظر الرئيس أن تؤتى كلماته بأثرها.

«إن لم تفكر فى سحب البلاغ ضد كارميلا الفاليبي؟ فكر على الأقل فى نتائجه، قد تقتلك المافيا التى تحمى انسريللو، قطعة الشطرنج الصغيرة فى لعبة أكبر منها. عند هذه النقطة ذهب بيترو إلى فتح أبواب الشرفات التى تطل على التراس ودعى الزوجين ليتبعانه.

استطرد:« بالنسبة لما لحق بالسيارة، من الصواب إبلاغ الشرطة.»

إذا تلقت الشرطة بلاغات كثيرة ضد مجهولين، فإن ذلك سيكون جزءًا من الإحصائيات التى تستغلها كل الأحزاب السياسية بما فيها حزبكم لزيادة الأموال والمساعدات الموجهة لمحاربة المافيا، والتى عن طريق قنوات معروفة ومحمية من النظام تنتهى فى جيوب أناس تضع الأسمنت فى سيارة زوج من شباب الموظفين، وهم أكثر دناءة ممن أمرهم بفعل ذلك.

«سيد ريسيكو، حضرتك إنسان لطيف، وأتمنى أن تعيش طويلا فلتنس عائلة الفاليبي، ليونى وأنيسريللو ولتستمر فى عملك: لست أعنى فقط وظيفتك فى مكتب البريد ولكن أيضا نشاطك المعروف فى مجال السياسة.»

«تجنب الرئيس أن ينظر إلى جاسبرى فى عينيه كان متأكدا من شخصيته، خاف أن تفلت منه نظرة حانية.

استند إلى سور الشرفة وبقى الثلاثة فى تأمل أشجار الياسمين المتسلقة التى التفت حول أغصان نباتات الغليسين النامية فوق أحجار القصر.

استطرد الرئيس:

«تعجبنى شجاعتك، فى الحقيقة ليست لدىَّ نفس الشجاعة. لم أتمرد على جمود التقاليد الاجتماعية التى ولدت فيها، لم أنجح بإقناع والدى بتركى أختار الدراسة التى أحبها. بقيت هنا فى بيت العائلة، أرعى الأملاك كما فعل أجدادى، وأسلافى، دائماً ملتزم بالتقاليد.أنتمى إلى عالم آخر، كما يمكن أن تسميه، أنتمى إلى اليمين، وبقدر مايؤسفنى إلا أننى لا أقدر أن أكون انسانًا آخر.»

كانت الشمس تعلن المغيب الوشيك. وفاح فى الهواء أريج زهور الياسمين.

كان ضوء محمر حسى يضيء كل روكاكولومبا، ويربت فوق المقاعد والمناضد الحديدية الصغيرة بالتراس فيرسم ظلالًا لرسومات أربيسك فوق الأرضية الرخام الأبيض والأسود.

قال فاتا ناظرا إلى المنظر الذى يتجلى أمامه:

« انظر يا سيد ريسيكو، أنا أعتقد أن التغيير أمر ضرورى، وسيحدث. لا أدرى متى، ولكنه سيحدث. لا أدرى إن كان سيحدث التغيير الذى تتمناه. معرفة من هم الاعداء ليس أمراً بسيطاً. انظر إلى بلدتنا هذه. قصر الأمراء أصبح أطلالاً منذ عشرات السنين، غلاف أجوف. نحن فقط من يدرك حقيقته من هذا التراس، وليس أحد آخر. يبدو فخما متين البنيان. هناك من يريد الحصول عليه وترميمه. ومن يريد تحويله إلى مركز ثقافى للبلدة. الواقع أنه لم يعد له وجود.أصبح ما يمثله من سلطة سراباً، وهماً. أتسلى فى بعض الاحيان بفكرة اختفائه، انهياره، مثل جزيرة فرديناندبا.«ابتسم.ابتسامة تكاد تلحظ، وكأنها حركة بشفتيه.

« ليونى، واينسريللو لايستحقان وقتك وإهدار طاقتك. فكر بأشياء أخرى، اتبع معتقداتك ومبادئك ولا تنشغل بهؤلاء الناس»

قالت الفيرا بسرعة:« وسيادتك أيضاً تستطيع أن تفعل الكثير».

« أشكرك يا سيدتى، ولكن الأمر ليس كذلك.»

عند ذلك التفت بيترو فاتا إلى جاسبرى ريسيكو:«تعلمت ممارسة فن الممكن. الممكن، أتفهم؟ الهدف تحقيق سعادة بسيطة، لكنها مستمرة. حفيدتاى، اجتماعات اتحاد الزراعيين، وحجرة مكتبى. أرضى عقلى وحواسى بالكتب.

وهنا من خشبة مسرحى، اتمتع بذلك الجمال الأخير.»

فى المساء، كانت الفيرا تعلق قائلة:«ولكن أنت أيضاً شعرت بالخوف. أدركت ذلك فورا عند عودتى للبيت، لم تكن حبيبى جاسبرى الذى أعرفه، إنها تجربة رهيبة...لقد كنت شجاعا، ولم تجعل الخوف يسيطر عليك، لم أكن لأستطيع مثل ذلك.»

كانت تشعر بانقباض معدتها، وبإحساس غامض بالرغبة فى القىء، سنتخطى هذه التجربة المؤلمة معا.»

« الخوف؟ على نفسى، لم أشعر به اطلاقاً، عليك، نعم، كثيراً، على أبنائنا فى المستقبل» كثيراً. شعرت بالخوف عليك انت يا سكر حياتى، شعرت بالقلق.«كان جاسبرى يستعيد هدوءه أخيرا، ومسح على خديها فى أول لمسة لها فى هذا اليوم، قرصة صغيرة عفيفة بخدها، ابتسمت الفيرا، نهضت من على المنضدة، وقبّلته قبلة طويلة بطعم الطماطم.»

الثلاثاء ١ أكتوبر ١٩٦٣

-٤٣- خطاب آخر يصل من منولارا

كانت السيدة الفاليبى وابنتاها جالستين بالصالة. كن قد استيقظن عند الفجر، منهكات بعد ليلة صاخبة، ينتظرن قدوم سانتا بقهوة الصباح. كن خائرات القوى، بعد هوس التدمير بالليلة السابقة، ثم العمل المضنى لاعادة حجرة المكتب على ما كانت عليه، والتخلص من قطع الفخار المكسورة وإزالة آثار الشجار وحفظ المظاهر ثم المناقشات المؤلمة بعد ذلك.

وفى الليلة السابقة، أقنع الأبناء الأم باتخاذ بعض القرارات.

ينبغى تجهيز مكان إقامة لها وحماية كارميلا.

وقد قرروا أن تعيش الأم بمنزل الابنة، أو قصر العائلة مع كارميلا فى حالة انفصالها عن ماسيمو لتنقذ نفسها وإرثها منه. قرروا أيضاً بيع منزل منولارا وإصلاح قصر العائلة بثمنه، ليللا ستعود إلى روما ومعها جرّتا الفخار المقلدتين، أما جانى فسيرجع إلى كاتنيا. وسيظلون على اتصال تليفوني، كان واضحاً أن ليللا وجانى لا يريدان الاستمرار فى النظام الصارم لزيارة أمهم، والذى فرضته منولارا. لم يكن هناك ما يمكن عمله سوى نسيان ما حدث، ونسيان منولارا وشرورها.

لن يتحدثوا بسوء عنها لأسباب واضحة وعلى أية حال فإن مصدر ثرائها.. وسبب حماية المافيا لها لم يتم الكشف عنهما.

قالت كارميلا وهى تنظر بقسوة إلى أمها:

«ينبغى توخى الحذر، يجب الاحتياط فى الحديث مع خادمتي، وتذكرى أن ما حدث لنا عقاب عادل جراء الثقة المفرطة بالخدم».

دخلت سانتا حاملة القهوة والبريد. فتحت ليللا الخطابات، وكان أغلبها خطابات تعزية، أعطتها لكارميلا والأم.

كان هناك مظروف وقد كتب العنوان فوقه بالآلة الكاتبة. فتحته بشرود معتقدة أنه مطالبة مالية بدفع أو فاتورة، ولكنه كان خطابا آخر من منولارا.

«لقد أحسنتم صنعاً بتنفيذ ما قلته لكم. الآن لديكم شهادة تسمح بخروج الآنية الخزفية الأثرية الثمانية إلى الخارج. عودوا بها إلى البيت إن لم تكونوا قد فعلتم ذلك بالفعل، اذهبوا إلى حجرة مكتب والدكم. افتحوا الرف المقابل للرف الذى أخذتم منه الصناديق الثمانية خلف الباب الوهمي، هناك ثمانية مزهريات فخارية مطابقة لتلك المقلدة. مزهريات حقيقية. فقد قمت بعمل نسخ منها للحصول على شهادة تمكنكم من بيعها أو إخراجها من إيطاليا.

بدلوا المقلدة بالحقيقية، وسافروا بها إلى زيورخ خلال خمسة عشر يوماً من اليوم، اتصلوا فورا بالمتحف الأثرى بزيورخ وقولوا أنكم تريدون تحديد ميعاد وأنكم من طرف السيد مينولارا. إنهم ينتظرونكم يمكنكم الاحتفاظ بها أو بيعها.

مدير المتحف يعرف مدير البنك الذى أضع به أموالي، يمكنكم الحديث معه عن الأموال بالبنك التى تستحقونها الآن لأنكم اطعتموني. افعلوا ما ينصحكم به.

قالت ليللا وهى تمد الخطاب إلى كارميلا « خذيه، اقرأيه» ثم أجهشت بالبكاء.

-٤٤- الأب أرينا يزور السيدة الفاليبى ويرى أثر الدمار الذى لحق بمقتنيات أوراتسيو الفاليبي

كان الأب أرينا متوترًا عند زيارة منزل الفاليبى فى هذه الساعة المتأخرة من صباح الثلاثاء. وجد السيدة الفاليبى وحدها متكدرة واجمة. أخبرته برحيل ليللا، وجانى وبأنها استسلمت لفكرة الحياة مع كارميلا التى يتعرض زواجها لهزة عنيفة. كانت محبطة من الأبناء وتفتقد منولارا.

لم يدر كيف يخفف عنها، فكر الأب أرينا فى أن يطمئنها على استلام فاتا أخيرا لكتب دانونسيبو.

أشرق وجه السيدة، وأرادت اصطحابه فوراً إلى حجرة المكتب لاختيار كتب أخرى.

دخل القسيس إلى حجرة مكتب المحامى الفاليبى بخطوات وئيدة. كانت آثار التخريب لا تزال ظاهرة، على الرغم من أن الحجرة قد أعيد ترتيبها. الأرفف العلوية للمكتبة التى كانت تحوى الكتب القديمة لأوراتسيو فى صفوف متراصة خلت من الكتب، بينما تكومت فى الأرفف السفلية المجلدات التى نجت من الاعتداء وقد وُضعت دون ترتيب، تلك المجلدات التى عشقتها منولارا وكانت فخورة بترتيبها طبقاً للحروف الأبجدية لأقسام الآداب والفنون.

اختفت قطع الخزف الجميلة من فوق الأرفف الصغيرة وأيضاً قطع التحف من فوق المناضد والفضيات فوق البيانو، كان جليا أن الغرفة تعرضت للعنف. تراكمت خلف البيانو عشرات الأكياس الصغيرة، الواحد فوق الآخر وكانت أكياساً من الجوت، تلك التى تستخدم لحفظ اللوز.

شعر الأب أرينا أنه شاهد ذلك من قبل عندما زار أثناء الحرب، مكتبة خربة خربها المتشردون فكر القسيس كانت حجرة المكتب هى كنيسة منولارا التى خصصتها لضم معتقداتها: المعرفة، الجمال، ومن يدرى ربما أيضاً الحب والآن قد

دنست. شعر الأب أرينا بالخجل من التشبيه المهين للمقدسات، وركز تفكيره فى اختيار الكتب التى يجب أن يحملها إلى البيت.

كانت السيدة أدريانا تنتظره وقد استندت إلى الأريكة أمام المدفأة، الكائنة أمام البلكونة المطلة على حجرة طعام عائلة ماسكولو. كانت المرآة الكبيرة المعلقة فوق المدفأة والمائلة قليلا تعكس صورتها. تبادر إلى ذهن الأب أرينا وصف المرأة العارية التى لمحت فى حجرة المكتب، وشعر بالضيق والإثارة فى نفس الوقت فأراد الخروج من تلك الحجرة المليئة بالظلال والايحاءات، أخذ الكتب دون تفكير وعاد إلى الصالون. وأثناء ذلك وصل الطبيب ميندكو فى زيارة. بقى لمدة قليلة كانت السيدة الفاليبى تجد الراحة فى الحديث عن فضائل جديدة لمنو. «عرفت الآن ماذا كانت تفعل كل يوم بعد الظهر، كانت تغلق عليها باب مكتب أوراتسيو بعد وفاته، لتدرس الفن اليوناني، كانت تكمل عمل زوجي. اتساءل كيف لم أدرك تشابه الاهتمامات الفنية بينهما، ربما لم يدرك هو نفسه ذلك.»

كانت منو متحفظة جدًا، إنسانة مخلصة مثلها، لا يمكن العثور عليها اليوم فى روكاكولمبا. كنت أقول ذلك لأبنائى ثقوا بمنو. .. «ولكن الشباب لا يستمع إلى الآباء كما كان يحدث من قبل» حضر آخرون للزيارة وانصرف الاثنان.

-٤٥- الأب أرينا يتمشى طويلا مع الطبيب ميندكو

رسخ حديث اليوم السابق بين الأب أرينا والطبيب ميندكو تلك العلاقة الحميمة التى يخلقها اقتسام الأسرار بين البشر. كانا يريدان قضاء بعض الوقت معا وقررا القيام بتمشية قبل الغداء.

لم يهدأ بال الطبيب ميندكو منذ اليوم السابق لأنه لم يحلل جيدًا ظروف موت أوراتسيو، كان يريد معرفة معلومات أكثر عن منولارا، وشرح ذلك للقسيس: «كنت أعرف أنها ارتبطت معه بعلاقة حميمية، و ظننت أنها انتهت بعد عملية الإجهاض قبل الحرب».

دهش الأب أرينا: «يؤسفنى ذلك، يا لها من امرأة مسكينة، لم أكن أعلم أنها تعرضت أيضا لعملية إجهاض».

«كانت المأساة الكبيرة فى حياتها. كانت تبلغ الخامسة والعشرين من عمرها مفعمة بالحيوية، تبذل نفسها بكل حماس لرعاية الأبناء الثلاثة بعد مولد كارميلا بفترة قصيرة. لم يرد ذكر اسم اوراتسيو، كما يحدث دائما فى هذه الحالات، ولكن كان من الواضح أنه الأب. أتخيل أنه بعد أن مل زوجته، اتجه بانجذاب مبالغ إلى منولارا التى كانت فى ريعان الشباب، ويجب أن أقر أنها كانت شابة غضة. أرادت إجراء عملية تعقيم، ولم تحاول السيدة ليللا التى كانت بصحبتها إثناءها عن ذلك.» كان الطبيب يحاول الحديث عن تلك الأحداث بشكل مختصر مراعاة لأسرار المرضى.

شعر الأب أرينا بضرورة إيضاح سبب امتناع منولارا عن الحديث معه عن الاجهاض:« بعد خلاف كبير بيننا، الوحيد الذى حدث بعد سنوات طويلة من الصداقة، والتفاهم منذ ذلك اليوم، لم نتحدث أبدا عن اوراتسيو الفاليبى فى ذلك الشأن.»

« أية مشاجرة؟»

«اسمع يادكتور، تعرفت بمنولارا عندما كانت تعمل بمنزل الفاليبي. كنت أدرس لها اللغة الإيطالية وقواعد الحساب كانت تتعلم بسرعة كل ما تحتاج إليه، وكنا نقضى بقية الوقت فى الحديث عما يهمها. كان ذكاؤها غير عادي، كانت تشعر بالأسر داخل منزل الفاليبى ويتأجج الغضب فى صدرها.»

الغضب ممن؟»

«من الله قبل الجميع. كنت أشجعها على القراءة فى كتب الصلاة ولكنها كانت ترفض. وذات يوم قالت لى: 'كانت أمى تعلمنى أننا جميعا متساوون، أنا وأنت والملكة، الفرق أنك قسيس والملكة ملكة وأنا خادمة فى منزل الفاليبي. وإذا أدى كل منا عمله كما ينبغي، سنحظى باحترام الآخرين. يجب أن يفكر الله أيضا فينا يساعد الطيبين ويعاقب الأشرار. الرب لا يعجبنى، فكان واجبه ألا يحرم والدى، الراحلين، من الخبز والدواء، وكذلك أختى ادولوراتينا المريضة. لم يكن عادلا معى، والظالم يدفع ثمن ظلمه، آجلاً أو عاجلاً لو لم يقم بواجبه فلن يستحق صلاتي». كان يظهر، من حديثها عداؤها للنظام الاجتماعي، طبقة الأغنياء التى ورثت سلطة وأموالا دون أن تكسبها بعمل، والفقراء الذين حرموا فرصة الدراسة والعمل.

باختصار كانت ثائرة حقيقية فى شبابها. كانت ضد الطبقية ولكنها كانت راضية بقدرها، بالحياة التى رتبتها أمها لها: الخدمة ببيت السيدة ليللا وعائلة الفاليبي، الحفاظ على اسم العائلة حتى الموت فى مقابل أن تدفع السيدة ليللا علاج أختها المريضة وكانت تدخر مرتبها لتجهيز أختها، و تزويجها ثم رعاية أبناء شقيقتها.

أما بالنسبة لها فكان عليها السعى للحصول على المتع المسموحة لها داخل تلك الحدود.»

«وما دخل أوراتسيو بذلك؟»

«كانت منولارا فى شبابها تشعر بحاجة شديدة إلى العاطفة، وكانت تتوق إلى المتع الحسية ولكنها كانت متزنة. كانت العلاقة الحميمة مع اوراتسيو وخاصة فى بدايتها

تمثل لها شيئاً خاصاً: سلاح لإجبار السيدة ليللا على الاعتناء بأختها التى أجبرت على الحياة مع اليتيمات بدير الراهبات. وكانت ليللا تحرم على ادولورتينا المجيء إلى البيت خوفا من العدوى، لذا كانت اليتيمتان تلتقيان نادراً وفقط فى الدير.»

قال الطبيب: «لقد أخبرت السيدة ليللا مرات عديدة بأن ادولورتينا لم تعد حاملة للعدوى، وكنت أرى فى ذلك المنع قسوة وغباء. أذكر حديثًا مع منولارا أدمى قلبي. كانت قد أتمت لتوها الخامسة عشرة وذات يوم طلبت أن تحدثنى على انفراد. أخبرتنى بنبرة جادة أنها قد ادخرت بعض النقود وطلبت أن أعدها بإبلاغها، إن كانت صحة أختها قد تدهورت أو كان يلزمها بعض الأموال لشراء الأدوية، وأنها مستعدة لدفع ثمنها. فى الحقيقة لم يكن ذلك ضروريا لأن السيدة ليللا كانت تدفع بسخاء لعلاج أختها وقد أدهشنى ذلك نظرا لمعرفتى ببخلهم.» ثم أضاف: «أبتاه، اسمح لى أن اخبرك أننى لا أفهم كيف أمكنها ابتزاز سيدتها وهى اليتيمة الوحيدة... فى ذلك الوقت كان استغلال السيد الصغير للخادمة من الأمور العادية تقريبا.»

لفت الأب أرينا نظره: «لو لم يكن بسبب ذعر السيدة ليللا من أن يصاب أوراتسيو وفيشينسو بما أصيب به الأب، فكر سيادتك فى ذلك.»

«أمراض جنسية، تسببها العاهرات المريضات المسكينات.» فهم الطبيب وشعر بتوافق مع القسيس.

«بالضبط، فوجدت للابن الأكبر والمفضل، إذا سمحت لي، العاهرة النظيفة بالمنزل والتى كان يمكنها أيضا رفض ممارسة الجنس معه، وفى ذلك تكمن سطوة منولارا.»

قال الطبيب ميندكو معترضاً على حكم الأب أرينا القاطع:

«أستبعد أن تقبل منولارا، التى أعرفها، وضعاً مثل هذا.»

«يا دكتور، أنا أيضا كنت أحب منولارا واحترامها، اسمع هذه هى كلمات منولارا التى قالتها لى وكانت سبباً فى اختلافنا.» كانا قد خرجا من البلدة وابتعدا عن

الأذان المتطفلة وكانا يتحدثان بحرية. وكان القسيس أرينا يتحدث بطلاقة غير مبال بالتلعثم الذى ينتابه من حين لآخر فيخنق كلماته.

«حاول أن تفهم، حضرتك على دراية بالإجهاض وهو ما كنت أجهله أنا. أعرف اضطراب النفس، وتعقيداتها كما تعرف حضرتك الأجساد التى تعالجها. كانت منولارا ذات عقل يفكر ويثير التساؤلات، كانت خجولة ومتحفظة وتعمل خادمة. لم تكن تجد الراحة فى صحبة الخدم، وتشعر بالوحدة. وكانت المعرفة عن طريق القراءة هى الشىء الوحيد الذى يمكنه أن يرضى فضولها. وبالنسبة لها كان أوراتسيو هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى ذلك. كنت أتأمل مكتبته اليوم. فى تلك الحجرة وجدت منولارا أترابها، وجدت عالمها وهى الخادمة البسيطة اليتيمة، الحبيسة بسبب الفاليبي. كانت أيضا شابة ولم تكن تخشى الله. قبلت اهتمامه بها، أو أغرته أو ربما كان حبًا متبادلا بين شاب وفتاة، لا أدري. أعلم أنها كانت تمثل له أحد طرق التسلية العديدة، أما بالنسبة لها فكان فرصتها الوحيدة للتعلم، للحرية الفكرية. أعرف جيداً ضعف الإنسان. وكما قلت لسيادتك لم يكن لديها الوازع الديني.» غمغم الطبيب: «فهمت». «فضلا عن أنها كانت تقوم بدور يمكننى أن أسميه «عازل طبي»، و بالتأكيد كان مقبولا ومحببًا للسيدة ليللا التى كانت مصابة بوسواس المرض، لذا أهدتها حقيبة مليئة بالقطع الذهبية ولم تعترض على إجراء عملية تعقيم لها.»

صدَّق الأب أرينا على كلامه بمرارة: «بالضبط، كى يستطيع اوراتسيو إرضاء رغباته وشهواته معها دون اللجوء إلى عاهرات قد ينقلن له المرض.

وقد تشاجرنا لأن طاهية عجوزاً من بيت الفاليبي، رحلت الآن عن عالمنا كانت قد أحست بالذنب نحو منولارا وتحدثت معي. كانت هذه المرأة قد مرت بعلاقات كثيرة مع الرجال فقد كانت من تلك النساء اللاتى يحملن جمر النار تحت تنوراتهن، بيد أنها ملتزمة فى مظهرها، ومتدينة وكانت أيضا طاهية ممتازة أفضل من الطهاة

الفرنسيين. كانت قد تولت منولارا بالرعاية، وكانت تتحدث معها بحرية أيضاً عن بعض الممارسات التى قد تؤذى الصحة والمخالفة للطبيعة. ثم شعرت بالندم فقد خشيت أن تطبق الفتاة ذات السادسة عشرة ما قالته لها مع أوراتسيو.

تحدثت مع منولارا وكنت أشعر بقلق حقيقى عليها ولكنها ردت بشكل عنيف، رد من تلك الردود التى خلقت العداء بينها وبين أشخاص كثيرة. قالت لى أن قدرها أن تبقى ببيت الفاليبى وتخدم أصحابه. ولا تريد أن تقضى حياتها دون التمتع بما يتاح لها وهو القليل. أوراتسيو كان لطيفاً ويحترمها كعشيقة ويقبل رفضها. فذلك أيضا جزء من عملها وهى تريد أن تؤديه جيدا بل وتحسن أداءه. وفى نفس الوقت يجب أن تحافظ على صحتها. فإذا فقد أوراتسيو الرغبة فيها، سيلجأ إلى العاهرات وقد يصيبها بالمرض، فهى تحرص أيضاً على صحتها.»

تلعثم الأب أرينا، فقد كانت ذكريات مؤلمة.

كان الطبيب ميندكو يفكر بصوت عال:«استمرت العلاقة بينهما إذن أثناء زواج أوراتسيو، كما يدل على ذلك الإجهاض.

وفى ذلك الوقت، كانت لدى الشجاعة للحديث معها عن ذلك بصفتى طبيبها المعالج: كنت أريد إقناعها بالعدول عن عملية التعقيم، وأنها يمكنها الزواج وإنجاب أطفال وتكوين عائلة. بدت مستاءة كما لو كنت أقترح عليها خيانة زوجها، تصرفت مثل زوجة محبة كانت تقول أن ذلك هو الطريقة الوحيدة للمحافظة على العلاقة بينهما. ولكن على العكس بدأ أوراتسيو علاقة أخرى أكثر حميمية ثم علاقات أخرى، كما نعرف. ومنذ ذلك الحين، ذبلت منولار مثل زهرة حرمت من المياه. علق الطبيب وهو ينظر إلى القسيس:« بينما حضرتك كنت تتحدث عن علاقة حميمة بينهما فى السنوات الأخيرة من حياة اوراتسيو طبقا لما قاله انجليوماسكولو.»

«الآن أفهم التغير الذى طرأ على مينولارا فى ذلك الوقت»

قال الأب أرينا:

«كانت تقلقني. كانت وحيدة، فقدت متعة الحياة ولكنها لم تفقد الطاقة والإرادة والرغبة فى العمل. استمرت فقط فى الذهاب إلى كورال كنيسة «عذراء الآلام» والتى كانت قد بدأته عندما كانت لاتزال فتاة صغيرة. كانت تغنى جيدا كانت تقف بين الراهبات بعيدة عن أنظار الآخرين. كنت أراها هادئة لفترات قليلة، ربما كان أوراتسيو يعود اليها بين عشيقة وأخرى، وربما ما علمته لها الطاهية، كان سبب عودته المستمرة اليها، لا أدري. أو ربما كانت قد نسيته وفهمت أخيرا أنه لا يستحقها».

قال الطبيب ميندكو مؤكداً:

«دون شك لم يكن أوراتسيو على مستوى منولارا».

أضاف الأب أرينا:

«حضرتك تعلم أننى كنت أكتب لها الخطابات، كنا قريبين جدًا وكنا نتقابل كثيراً إلى أن تركت الأبرشية. كانت تشعر بالامتنان لأوراتسيو لأنه سمح لها بأن تتثقف فى الفنون والآداب والموسيقى. وكانت تعشق كل نزواته الفكرية وهوسه لا أعلم إن كنت تعرف ذلك، كانت منولارا تنظم مجموعاته، تعلمت فهرستها، وكانت تقرأ النصوص أيضاً الصعبة لتساعده.

كانت تصاب بالإحباط فى كل مرة، يهجر أوراتسيو نشاطًا بدأه فى منتصف الطريق ليجرى وراء اهتمام آخر. أعتقد أنها واصلت دراسة الخزف بالحضارة اليونانية القديمة لسنوات وحدها.

كانت، صدقني، أذكى شخص صادفته فى حياتي.« الآن وقد أصبحا فى الطريق العام، جلسا فوق سور صغير من الأحجار ليستريحا».

واصل الأب أرينا حديثه: «ناقشت معى إن كان من المناسب أن تعرض القيام بإدارة الممتلكات لتنقذهم من الانهيار الاقتصادي، كانت تشعر بذلك كواجب تجاه السيدة ليللا والعائلة. كانت تتحدث بتسامح، وحيادية وهدوء عن مغامرات أوراتسيو العاطفية وتحكى عن الهدايا الباهظة التى كان يقدمها لعشيقاته، كانت

تتحدث كزوجة منهكة وليست جريحة من خيانته. كنت أشعر بالقلق من عبء المسئولية التى كانت تريد تحملها فضلا عن عملها كخادمة بالبيت، كنت أخشى من رد فعل الناس وخاصة فى الريف أمام قيام الخادمة بالإدارة.

كانت تقول «واجبى أن أخدمهم وأنا قادرة على ذلك. لم أختر سادة أقل منى قدرة، هم سادة وقدرى خدمتهم».

اختتم الطبيب منيدكو:

«لاندرى إن كانت قد أحبته مثل زوجة تسامح زوجها على خياناته أم كعشيقة أم كخادمة ممتنة لأنه سمح لها بالدخول إلى عالم الثقافة. يبقى أن إخلاصها له كان حقيقياً وأعتقد فيما لاحظه انجيلو ماسكولو. إن كانت قد قتلته، فقد فعلت ذلك وهى تفكر فقط فى مصلحته.»

أضاف الأب أرينا:

«ليغفر لها الله» وقد تذكر أنه أيضا بشر وأنه مخطيء، ففكر أنه يجب أن يطلب المغفرة على إساءته لذكرى أرواتسيو فى اليوم السابق، عندما تحدث مع انتجيلو ماسكو، مدافعا عن سمعة منولارا.

غمغم الطبيب:

«يبقى ذلك اللغز حول أموالها، فى بعض الأحيان، أعتقد أنها قصة اختلقتها عائلة الفاليبى وأنها لا تملك إلا القليل من المدخرات»

«نظراً ونحن، الآن نميط اللثام عن كل الأسرار، أخبرك أنا يا سيادة الطبيب بسرى. كانت ثرية ومنذ زمن. ليس لدى فكرة من أين أتت بكل هذه الاموال، ولكنى كنت أكتب لها خطابات كثيرة للبنك، وكانت سخية. تخيل أنها أنفقت على دراسة ابنى لمدة سبع سنوات دون أن تخبر أحدًا وساعدت أشخاصًا كثيرين فى السر.» قادتهما أقدامهما إلى مسافة بعيدة، ثم رجعا إلى روكاكولبا صامتين وقد غرق كل منهما فى أفكاره.

-٤٦- خطاب أوارتسيو الفاليبى لبيتروفاتا

كان الرئيس فاتا يقبع حزينًا فوق مقعده بالمكتب، مباعدًا بين ساقيه، ويداه تتدليان من ذراعى المقعد، وعلى يمينه أوراق سطرت بخط دقيق جدًا ويصعب قراءتها، كان ينظر من الشرفة وقد شردت نظرته فى الفراغ. اهتز لصوت لوتشيا التى كانت تخبره بوصول الأب أرينا أمسك بخطاب اوراتسيو الذى كان ينزلق من أحد كتب دانونسيو التى حملتها له السيدة ريسيكو واستعد لمقابلة القسيس.

كانت ليللا الفاليبى قد هاتفته لتخبره على استحياء أنهم تلقوا خطابًا ثانيًا من منولارا، كانت تخبرهم فيه بمكان المزهريات الحقيقية والتى للأسف كسروها فى اليوم السابق معتقدين أنها نسخ أخرى من المقلدة وقد اشتد التوتر، وتبادل التهم بينهم لدرجة أنهم تشاجروا مرة أخرى، وهى الآن فى طريقها إلى روما وتوصيه بأمها وكارميلا.

كان بيترو فاتا شخصًا متزنًا وهادئًا. وفى تلك الحالة كان بحاجة إلى التنفيس عما بداخله، وطلب النصيحة، للحديث عن منولارا وأوراتسيو، كان يحتاج أن يفهم. تحدث طويلا مع الأب أرينا وأيضاً عن خطاب صديقه وكأنه كان يعترف. قال له القسيس ما يكفى لمواساته ولم يصف شيئاً. سأله فقط سؤالًا واحدًا: « أخبرنى أيها الرئيس هل كانت منولارا تحب المحامي؟»

« لا أدري، وكما يبدو من خطاب أوراتسيو، لم يكن هو نفسه يعرف وأيضا هذا يشغلنى.

«لا تفكر بالأمر، لن نعرف أبدا، كان ما كان يرحمها الله.» اختتم القسيس حديثه. ذهبا إلى التراس فى انتظار تقديم الغداء. وبعد انصراف الأب ارينا، عاد بيترو فاتا وأعاد قراءة الخطاب».

صديقى العزيز بيترو،

«سيصلك خطابي بعد موتى وموت المرأة التى كذبت عليك من أجلها، على أعتاب الشيخوخة، وجدت السعادة فى اللقاء الرائع مع المرأة التى ظلت دائما بجانبي، ملاكى الحارس وملهمة سنوات شيخوختى الطويلة. لم تشأ أن أحدثك عن حبنا ولكنها سمحت أن أكتب لك. وبذا أستعيد بعد موتى الصلة الروحية والتوافق النفسى الذى ميز صداقتنا وجعل بفضلها الحياة محتملة بل وسعيدة بروكاكولمبا.

لقد عشت حياة مختلفة، اكنت أهرب من أية مسئولية، حياة إقطاعى يعيش بين صالونات الإقليم مبذرًا بإهمال، وإسراف ثروة العائلة. كانت لديَّ العديد من العشيقات كما تعرف. تابعت اهتماماتى الأدبية والفنية والموسيقية بشكل متقطع وسطحي، مستمتعاً بسمعة لا أستحقها لرجل واسع الثقافة. أموت وقد عشت حياة يمكن وصفها بحياة مشبعة، ولكنى لا أفخر بها. وقد استمتعت بكل ذلك بفضل إخلاص ومثابرة المرأة التى أحبها.

لقد وصفتها لك بالفتاة المراهقة التى اكتشفت معها المتع الحسية، ثم أصبحت بعد ذلك الأنثى التى أقيم معها علاقة جنسية، فقط كلما شعرت بالرغبة وكانت علاقة مشبعة لكلينا. وصفتها لك أيضا بالماكرة والمديرة الأمينة لثروتي، مساعدتى الدءوب فى فهرسة وتنظيم مجموعاتي، شريكتى فى الكذب والاحتيال لإخفاء مغامراتى العاطفية وخيانتى لزوجتي، المخلوقة الوحيدة التى لم تطلب منى شيئا أبدا، والتى نفذت كل ما طلبته منها. تعلم أننى كنت أثق بها ثقة عمياء وكنت محقا فى ذلك. لمدة ثلاثين عاماً تقاسمنا الحياة اليومية فى أدوار السيد والخادمة. منذ خمس سنوات فقط أدركت أننى كنت أحبها وأننى أحببتها دائما وكل النساء الأخريات كن يتضاءلن أمامها. فى الماضي، كنا نتناقش فى أدق تفاصيل علاقاتي، إغراء وغواية النساء: كانت متعتنا المشتركة. لا أجرؤ أن أدنس حبى الحقيقى بذلك الشكل. لكن المودة التى تجمعنا، تحتم على أن أحدثك عن حبى فى ريعان الشباب، والحب الذى وجدته فى كهولتى وأعلم أنك ستدرك الباقي. كانت فى الثالثة عشرة وكنت فى السابعة عشرة، كان الإعجاب متبادلا وتدريجيا.أتذكر فى ضباب الذكريات، أنها شعرت بالانجذاب نحوى لحكم قدرى للظروف التى تعيش فيها وقد اقترن بفضولها

الفكرى، والحسى، جزء أساسى من طبيعتها. وفى بادئ الأمر كنت أعتبر لقاءنا لعبة حسية بسيطة، ثم أصبح حباً، ثم عشقاً حسياً قويًا.

كانت بداية الإجازة الدراسية الطويلة وكنت متحمسا حماس المبتدئين للنظارة المعظمة المنشورية. كنت أصعد إلى تراس الغسيل، أعلى تراسات المنزل وأنظر منها. كنت أراقب الطرق، التراسات، والشرفات فى كل روكاكوكلمبا كنت أجلس فى أكثر الأركان خفاءًا ، بعيدًا عن الغسالات وصفوف الملاءات المنشورة. كان يوما شديد الرياح وكان الغسيل المنشور ينتفخ بالهواء، ويتجعد أمام هبوبه، وضرباته القوية، عندما كان يغير اتجاهه، كانت الشرائط التى تربط الملاءات والأسمطة بالخيوط الحديدية تجرى من ناحية إلى أخرى وتتكور العقد الكبيرة ناصعة البياض. كنت أراقبها مأخوذا، كانت تمثل تغير الطبيعة، فالسماء كانت تبدو وكأنها البحر فى وسط العاصفة، حشود من السحب المتقلصة تعبرها بسرعة كبيرة مثل زبد ثائر للأمواج عاتية، وكانت قطع الغسيل تبدو مثل أشرعة سفن حربية تواجه الخطر، وقد اجتمعت لتحمى نفسها من قوى الطبيعة الغاضبة.

حدث أن هبت رياح قوية شقت الغسيل، رأيتها نحيلة، صغيرة، كانت تغسل فى حوض من الخشب، دون أن تشعر بوجودي، غير مبالية بضربات الرياح القوية، كانت تؤدى عملها بتركيز ونشاط.

كانت تفرك القطع المنقوعة فى المياه والصابون بقبضتى يديها، وتعصرهما قطعة، قطعة، ثم تفتحها وتدعكها بحركات منتظمة فوق قطعة الخشب المائلة، ثم تنفضها فوق حافة القطعة، غير مبالية بالرياح التى كانت تنفش، وتنفخ شعرها المجعد فتنسدل خصلاته الطويلة وتتطاير مثل قناديل البحر. جلست القرفصاء فوق الأرض كى لا ترانى.

كانت ترتدى قميصًا داخليًا فاتح اللون وقد بللته رشات المياه. وجهت النظارة نحوها مبهورا بحركة جسدها المتناغم، وثدييها الصغيرين، المدببين وذراعيها

المتناسقين الفضيين، كانت جميلة. فطنت لوجودى وابتعدت عن حوض الغسيل بعد أن خرجت ودخلت إلى غرفة الغسيل. عادت بعد دقائق قليلة ترتدى الزى الرمادى للخدم وعاودت العمل. تركت النظارة ولكنى لم أستطع أن أرفع نظرى عنها.

استمرت فى العمل غير مبالية، انتقلت إلى حوض غسيل آخر بيضاوى الشكل، كانت تغطس داخله القطع المغسولة المعصورة بلفها جيداً، ثم تجففها بقوة. أعادت ذلك العمل مرتين ملقية بالماء فوق الارض، كانت تنحنى لرفع سطول المياه النظيفة لتملأ بها الحوض، رانية إلى بنظرات طويلة من حين لآخر.

هدأت الرياح. تقدمت عندئذ بين صفوف الملاءات لتسويها. حلت العقد التى تكونت ثم فردتها بتنفيضها فى الهواء، ثم شبكتها جيدا بالخيط الحديدى، كانت تراقب السماء - البحر الذى عاد لطبيعته. اللون الازرق الغامق المضىء الذى يقطعه غيم رقيق مثل قطع القطن. عندما وصلت إلى آخر حبل، خفضت عينيها إلي، كنت لم أزل جالسا القرفصاء بالركن. نظرت إلىّ بحذر ولكن دون خوف.

قالت مشيرة إلى النظارة المعظمة:«ماهذا؟»

أعطيتها لها. أمسكتها بيدها، أدارتها من جميع الجهات، حاولت النظر من الناحية الخطأ.

قالت:«علمنى كيف ينظر فيها»

كان صوتها أجش ولكنها ثقيلة مثل الريفيين. نهضت وأطعتها. سمحت لى بتثبيت النظارة المعظمة أمام عينيها لتعديل العدسة. كانت تفوح منها رائحة كلور لاذعة تثملنى، ومع ذلك لم اجرؤ على لمسها، كنت أشعر بتوترها. كنت أبعد ذراعى عن كتفيها ولم ألمسها على الاطلاق، أثناء إرشادها إلى تحديد وضع النظارة، وضبط العدسات. استأثرت بالنظارة المعظمة، وجعلت تتجول بالتراس، كانت تحركها يميناً ويساراً، صامتة. عندما أعادتها إلي، سألتنى:

كيف تعمل؟»

شرحت لها حركات العدسات وضبط زواياها.

« فهمت ذلك، ولكن كيف تعمل، ماذا يوجد داخلها؟ وكيف تقرب الأشياء إلى العين؟»

لم يكن لدىّ إجابة جاهزة.

«اقرأ الكتب ثم أخبرنى، أنا لا أعرف القراءة، وليس لدى كتب» وعادت لشطف الغسيل.

تركت التراس قبل أن تنتهى من الشطف، توقفت عند مرورى بجانبها.لم تكن تتوقف عن الغسيل، ظلت محنية فوق حوض الغسيل، ولكنها أدارت رأسها نحوى وكانت تنتظر أن أكلمها. سألتها إن كان وجودى يضايقها. فما كان منها إلا أن أجابت قائلة:« أنت صاحب البيت، تستطيع أن تفعل ما تريد، أنا هنا خادمة بسيطة.» عاودت السير ناحية الباب، وأثناء نزولى السلم صرخت ورائى:

« اذا كنت تنوى العودة إلى هنا، تذكر أن تجد فى الكتب كيف يعمل ذلك الشيء.»

عدت بعد ذلك مرات عديدة. استمرت فى الغسيل مرتدية زى الخدم، أيضا فى الأيام الحارة، وظلت حذرة فى تصرفاتها، وإن كانت تسمح لنفسها ببعض أوقات من الراحة تشاهد خلالها البلدة بالنظارة المعظمة. كانت تراقب أشعة الضوء من خلال العدسة المنشورية. وذات يوم قمت بتجربة باستخدام المرايا، ونجحت فى إشعال النيران فى أعواد من القش. وقد درست جيداً الموضوع كى إستطيع الإجابة على أسئلتها. كنت قد بدأت الرسم، وسألتها ان كنت استطيع رسم اسكتش« لها أثناء قيامها بالغسيل. أجابت الإجابة المعتادة:« أنت السيد، وأنا الخادمة.» كانت تراقب محاولاتى بعين ناقدة. وقد نبهتنى إلى أننى أخطأت رسم الذراعين بالكتف. تجرأت واقترحت أن ترتدى فقط قميصها الداخلى كى أتمكن من رسمها أفضل.«لا، أنا هنا أعمل. اذهب إلى الصالون الأحمر، هناك لوحة بجانب المدفأة. انظر إليها، على اليسار، هناك امرأة فى هذا الوضع، اذهب، شاهدها وتعلم.»

كانت محقة، الوضع فى اللوحة كان مطابقاً. أحضرت لها اللوحة بعد تعديلها. ضحكت منها قائلة:«لست شاطرًا، انتظر.»أغلقت باب حجرة الغسيل من الداخل، خلعت زيها وبقيت بالقميص الداخلى فى الوضع المطلوب. ثم ارتدت ملابسها واستمرت فى العمل دون رفع مزلاج الباب.

أصبحت لقاءاتنا غير المخططة عديدة. لست أدرى كيف استطاعت، ولكنها كانت تنجح فى البقاء وحدها. كنت أرسمها فى أوضاع تقليدية ومحتشمة.

كنت أساعدها فى تعديل جسدها فى الأوضاع المطلوبة، وشيئاً فشيئاً، أصبحت أكثر جرأة فى لمس ذراعيها أو جيدها. لم أجد منها صدا كما لم أجد تشجيعا.

أردت تنظيم إحدى المكتبات بحجرة المكتب أثناء أجازة عيد الميلاد. وقد أعطونى خادمتين لمساعدتى. وذات يوم كانت منولارا تساعدنى وحدها. كنا نعمل سويا فى سكون، كما لو كان العمل هو الشىء الوحيد الذى يجمعنا. ارتقت سلم المكتبة الخشبى الصغير، وكنت أناولها المجلدات التى يلزم تنظيمها بالارفف العليا. وعند لحظة معينة جلست فوق آخر درج السلم فى انتظار المجلدات الأخرى.

كنت أرى ساقيها العاريتين، وقد انحسر عنهما الثوب أثناء الجلوس. ظللت أنظر إليها بثبات، مثاراً. أدركت ذلك، بادلتنى نظراتى، ولم تتحرك. واتتنى الشجاعة لأقول لها:«انزلى».

مارسنا الحب للمرة الأولى. ومنذ تلك اللحظة أصبحت غرفة المكتب مكان لقاءاتنا الحميمة. اكتشفت إشباع الشهوة دون التزام أو إحساس بالذنب، مع امرأة لاتطلب تفسيرات ولا تلومك. كانت علاقتنا مبنية على التكافؤ بين رجل وامرأة فى إشباع الشهوة، الهدف منها إرضاء الطرفين. كنت أنا من يبادر دائما، لم تكن توافق باستمرار وإن كانت نادرا ما ترفض. فى بعض الأحيان كنت لا أبحث عنها لفترات طويلة، أعوام كاملة، وأحيانا أخرى كانت لقاءاتنا تتعدد.

كان اتفاقًا سرياً هادئًا، دون عاطفة واضحة من الطرفين، كما كنت أعتقد، وكما كانت تعلم أنت أيضاً.

منذ خمس سنوات دعوت إلى تناول العشاء بالبيت، عشيقتى منذ فترة طويلة، والتى كانت تعرف بحكايتها. تعمدت منولارا إهانه زوجتى وعشيقتى بعد تقديم العشاء، وأفسدت السهرة. كانت المرة الأولى التى تتصرف فيها على هذا النحو. كنت فى غاية الغضب، وقررت أن أصعد إلى حجرتها لتعنيفها، وهو ما لم أفعله من قبل. كنت أشعر بأنها خانتنى وأهانتنى. كنت أرتقى السلم الحلزونى للطابق الأوسط للمرة الأولى فى حياتى، و كنت أستشعر أهمية اللحظة، فكرت فى رفتها من شدة حنقى عليها.

وجدت نفسى فى ردهة مظلمة. كنت أسمع موسيقى من بعيد. كان نهاية الفصل الثالث من أوبرا عايدة

كانت كالاس تشدو عقب عزف آلة الأبوا بالإيقاع البطىء: «دعنا نهرب من جحيم هذه الأرض الجرداء»

كنت مشدوهاً. ساكناً. أستمع. وجدتنى أجلس القرفصاء وأستند إلى الحائط الذى انزلق ظهرى بجانبه دون مقاومة. هناك بين الغابات البكر. كانت الموسيقى تصدح بالمكان، تغمر الردهة، تضغط فوق الاسوار التى كانت تنفرج قليلا فتغير تلك المساحة الضيقة إلى منظر طبيعى ليلى رطب، وناعم فائحاً بعطر رقيق. لحق بى العار. انتابتنى دوامة من الاحاسيس المتناقضة، شعرت بأننى أفقد الوعى. كان إحساسٌ بالدهشة ينمو بصدرى ويمحو وجودى: لم أفكر أبدا أن لى روحاً. فتح باب الغرفة فى نهاية الردهة فجأة، وانسابت الموسيقى فى الردهة.فتح باب آخر ثم أغلق. سمعت تدفق المياه، كانت تستحم. ظهرت بعد ذلك فى كامل توهجها، قبل أن تغلق الضوء، وتغلق حجرتها.كانت ترتدى فقط روبا مفتوحًا من الأمام، بدت لى رائعة الجمال، وجهها هادئ، تحيط به خصلات شعرها المنسدل. اقتربت من

غرفتها، كنت أشعر برغبة قوية فى الدخول، ولكن لم تواتنى الشجاعة، خشيت أن تطردنى، كنت أنا الظالم. راداميس. لحق بى العار. ظللت مستندا إلى السور. نهضت لتدير الاسطوانة، كانت خطواتها فوق الالواح الخشبية لأرضية الحجرة تصدر صريرا، ووُرب الباب. كان الكهنة قد اجتمعوا. خشيت ان يغلق الباب مرة أخرى، ولكن ربما قد خلدت للنوم. انتظرت قليلا ثم دفعت الباب الذى انفتح محدثا صريرًا. برر نفسك. كان شعاع القمر الأزرق يسقط فوق السرير الذى ترقد عليه وقد تدثرت بملأءة خفيفة. كنت أستمع واقفاً عند الباب وقد ثبت عيناى فوقها. برر نفسك.

كانت تغطى وجهها بذراعها المثنى، فلم أدر إن كانت مستيقظة أم نائمة.بكيت دون ان ادرى. أدركت ذلك، ادارت رأسها نحوى وقالت:«لاتبكى، واستمع» ثم عادت تخبىء وجهها، فى نفس الوضع. استمعت، استمعت إلى أن سكنت الاسطوانة فوق الجهاز.

كنت مثل المشلول

سألت:«ماذا تريد؟»

«هل يمكننى البقاء هنا؟»

«لا، غدا يجب أن أستيقظ مبكراً للعمل، اذهب للنوم، فالوقت متأخر للجميع.»

بكيت تلك الليلة طويلاً فوق أريكة لقاءاتنا بحجرة المكتب. وعند الفجر، كتبت خطاب وداع لعشيقتى.

رأيتها فى اليوم التالى، قدمت لى القهوة كأن شيئاً لم يحدث. كانت ترتدى مريلتها الرمادية المعتادة، وعقصت شعرها على شكل كعكة، كما تعودت دائماً، كانت خالية من الحسن، والرقة.وأيضاً هكذا كنت احبها.

كنت مضطرباً، خائفاً مثل صبى مراهق يحب للمرة الأولى، حائرا لايدرى كيف يخطو خطوته الأولى نحو حبيبته وينتظر تشجيعها. وفى الغالب أدركت ذلك، لأنها قالت باقتضاب:

«إن أردتم يمكنكم الذهاب إلى حجرة المكتب، بعد الغداء.» ومنذ تلك اللحظة وجدت السعادة.أعيش من أجل تلك الساعات الحميمية القليلة التى يسمح بها عملنا سويا فى حجرة المكتب. كنت مستعدًا لفعل أى شيء من أجلها، كى نعيش سوياً وحدنا. كنت مستعدًا لترك البيت والعائلة. ولكنها منعتنى. فى البداية، كنت أخشى من أفول حبها لى، وأن يكون هجرانى الطويل قد دمر كل شيء. ولكنها كانت تصمم أننا مختلفان: فالسادة ينظرون للحياة بشكل يختلف عن نظرة الخدم. تبرهن كل أيامها عن حبها لى، إلا أنها لا تستطيع أن تقول «أحبك». كانت متأكدة من عودتى إليها وإن كانت لاتدرى متى، درست وحدها وتعمقت فى الفن اليونانى من أجلى، بل إنها تفوقت عليٍ. سمحت لى باستخدام الاسم المستعار « السيد منولارا» فى المراسلات مع خبراء الآثار، بينما تمنيت أن يقترن اسمانا فى العلن. ستبقى مجموعات الخزف اليونانى، الشاهد الصامت على حبنا وعلى قصتنا. سأموت وأنا أشعر بالأسى لأن الناس لم تعرف الخصال غير العادية لتلك المرأة وحبى لها.»

نهض بيترو فاتا متثاقلاً من مقعده، ممسكاً بالأوراق فى يده.يبدو ان الانفعال أثقل جسده.

بحث عن أعواد الكبريت فى درج المكتب، ثم عبر الحجرة، وهو يقيس خطواته ودون أن يصدر أية ضجة. فى ذلك العام ببيت فاتا، أشعلت المدفأة قبل المعتاد.

-٤٧- فى بوابة دون فيتو ميلليتو
يتم تحليل الوضع

كانت لوتشيا قد انتهت بسرعة كبيرة من شراء متطلبات منزل فاتا من السوق، كى تستطيع المرور بعميها دون باولينو ودونا ميما دون إثارة فضول ماريانا الخادمة الأخرى.

كان دون باولينو بالمنزل بينما ذهبت العمة إلى الإسكافى لاستلام حذائها بعد تغيير نعله. قال دون باولينو «سترين أنها ذهبت لتستمع إلى أخبار الشائعات، فى دكان عم جاكمو بحارة جوتسي، لاتنتظريها، ستظل هناك لساعات، وأيضا اليوم لن آكل وجبة ساخنة». تبادل العم مع ابنة اخ الزوجة آخر الأخبار والمعلومات عن أحوال عائلة الفاليبى وعادت لوتشيا إلى البيت سعيدة. كانت تلك القصة بالنسبة لها أكثر إثارة وتشويقاً من المسلسل الذى سمحت لها عائلة فاتا بمشاهدته، من بعيد جالسة فوق مقعد صغير ملتصق بالحائط، بينما السيدة كانت تجلس فى الصف الأول، فى الفوتيه المريح أمام التليفزيون الجديد.

عادت دونا ميما متأخرة دون الحذاء« لم يستطع المسكين الانتهاء من العمل، أولا بسبب الصخب المجنون الذى أثارته عائلة الفاليبي، ثم كان عليه أن يحكى ويرضى كل الأشخاص الذين توافدوا إلى دكانه لمعرفة ما سمعه.

«وماذا سمع؟»

كانوا غاضبين من المسكينة منولارا وقالوا عنها.... كلمات يقشعر لها البدن. لصة، ومحتالة، بل وربما لقبوها بعاهرة وكانوا إخوة وأصهارا يتبادلون السباب والاتهامات فيما بينهم.

اسمع، لنذهب إلى بيت أختى لتناول الطعام وهناك سنعرف أكثر.»

كان الأصهار الأربعة يتحدثون بسرعة فى بوابة قصر تشيفاليا، منتهزين فرصة عدم وجود زائرين. كانت دونا أنزا فى ذلك الصباح قد صعدت إلى الدور الأول لمساعدة الخادمات فى ترتيب خزانة البارونة على أمل أن تسمع بعض الشائعات. وقد حصلت على مرادها فقد كانت لدى السيدة أخبار أخرى عن حديقة بارينو، سيارة موظف البريد جاسبرى ريسيكو، وما لحق بهما من أضرار، «تحذير» كما تقول البارونة تحذير لمن يتحدث كثيراً وبسوء عن مينولارا.

قالت دون أنزا:

«لم تكن تذهب كثيراً إلى الكنيسة، فقط فى حالات حفلات الكورال، لابد أن لها قديسا يحميها كثيراً.

أضاف دون فيتو»

«نعم، قديس يرتدى بنطلون، وقبعة، ويمسك بندقية، بينما أفراد عائلة الفاليبى لابد وأنهم ممسوسون فكل أمورهم مضطربة. فقد مرت سانتا منذ قليل وحكت أنهم حطموا بالأمس كل ما يمكن تحطيمه فى مكتب المحامى وتشاجروا، ثم وصل خطاب اليوم أخبرهم أنهم حطموا الأشياء خطأ فعادوا وتشاجروا من جديد، هم سيئو الحظ ومع ذلك يصبون جام غضبهم على منولارا.»

وعلى الرغم من غزارة تفاصيل المشاجرة بين أفراد عائلة الفاليبى إلا أنهم فى البلدة، كانوا يتحدثون قليلا عن المزهريات المكسورة، ومصدر الحصول عليها.

دون باولينو، على العكس، كان يمعن التفكير فى ذلك الأمر:

«ان كانوا قد أرسلوا تلك المزهريات إلى المتحف، فذلك يعنى أنهم كانوا يعتقدون أنها أصلية وذات قيمة. وبالتأكيد تلك القطع تخص منولارا، اذن هى من طلبت منهم أن يرسلوها إلى المتحف. أذكر أنهم كانوا يقولون أنها لعبة منها للاستهزاء بهم. ولكن لايمكن توقع ذلك منها، ليست من ذلك النوع، ليست من النوع الذى يمزح

أو يستهزئ، لم تكن لتضحك على أمر مثل هذا. ربما كانت الآنية حقيقية ولم يقرأوا جيدا خطاب المتحف أو ربما أخطأوا بالمتحف».

قالت دونا اينزا

«ولكن لماذا يغضبون منها، إن كانت قد أخطأت، فهى لم تكن أستاذة. على العكس كانت تعرف الكثير بالنسبة لخادمة».

رد دون باولينو

«لا، أنت مخطئة، يا انزا، فى وقت التنقيب فى فيلا كاسلا كان المحامى لا يزال شابا وقد استهوته القطع الأثرية اليونانية القديمة، وقد بدأ أيضا التنقيب فى كانيللي، املاك قيمة، باعوها بعد ذلك، كانوا يتحدثون عن وجود مدينة قديمة كاملة تحت تلك الأراضى. وقد وجد قطعا من الفخار المكسور وأخذها إلى البيت. كانت المسكينة منولارا تعمل بالليل، وكانت المنضدة بالغرفة المجاورة لحجرة المكتب، تبدو وكأنها موزاييك، وقد وضعت فوقها كل القطع الفخارية، كان عملا مضنيًا، ولكنها كانت حادة البصر ونجحت فى لصقها وتجميعها، فكانت تبدو قطعا كاملة. ثم أصاب المحامى هوس جديد، فهجر هذه الهواية، ولكن منولارا كانت تتسلى بإصلاح الآنية القديمة التى بقى منها الكثير، وقد رأيتها وهى تبحث فى الكتب المصورة، كانت الصور تعجبها.»

علق دون فيتو: «امرأة مسكينة كانت تتسلى بقطع الفخار المكسورة، بالمناسبة هل تعرف أن دون لويجى فيكارى قد مات هذا الصباح؟»

بادره دون باولينو:

أكان لا يزال حياً؟»

«نعم، كان قد تعدى التسعين، أخبرنى بذلك حفيده، الذى مر بالبوابة يوم الأربعاء، كنت أحكى له عن الجنازة. قال أنه ظل واعياً محتفظاً بذاكرته، وإن كان لا يغادر الفراش ثم مات أثناء النوم. . يالها من ميتة هادئة!

قالت دونا انزا:

«أية ميتة هادئة، لقد قالت لى ابنته أنه كان يهذى من يوم الخميس الماضى وكان يخشى أن يقتلوه، مات رعباً، أصابه خرف الشيخوخة، المسكين.»

علق دون باولينو:

«آه، هذا ما يحدث غالبا، ولكنه كان قد فتح دكانًا، و أثرى منه.»

«أقول لكم أنه من الآن فصاعدا، لن يتحدث أحد عن منولارا أو عن عائلة الفاليبى وما قيل سيطويه النسيان، وسيختفى اسم الفاليبى من روكاكولمبا كلها، الفناء مصير الجميع. بالنسبة لى الأمر سواء مالم يطردونا من بيتنا.»

كان دون فيتو يوافقه الرأى:«لقد سمعت فى هذه البوابة، كل ما يمكن أن يقال عن تلك المسكينة، ليس هناك ما يمكن أن يقال أكثر من ذلك. الناس تتحدث كثيراً وتفهم قليلا» وبدأ يحكى وهو يعد القصص التى سمعها عنها على أصابع اليد اليسرى ثم اليمنى. «بدأ من أبيها، فقيل إنها ابنة غير شرعية لرجل من المافيا، جعلها تتربى فى بيت الفاليبي، كى يضع داخل البيت جاسوسة للمافيا، وهناك من يحكى أنها ابنة للأمير برولى وأن المحامى الفاليبى ضمها إلى بيته كى يخرس الألسنة وأخذ مقابل ذلك أموالا أعطاها له لها الأمير .

بل يقال إنها ابنة المحامى جانى الفاليبى وأن المرحومة السيدة ليللا تحملت هذه الإهانة وربّتها فى بيتها، وكانت إذن أخت اوراتسيو الفاليبى لذا سمح لها بكل هذه السلطة فى البيت. كانت ابنة الجميع ما عدا المسكين أبوها، لويجى انسريللو، ولم يقل أحد أن أسنانها كانت بارزة مثله، وكانت لها عيناه نفسهما. كان يكفى النظر إليهما لتدرك أنهما أب وابنته. كانت صورة من أبيها!

ثم استمرت الحكايات عن منولارا نفسها، والتى كانت عانسًا، والآن جعلوا لها أيضا أبناء. فمن يحكى أنها كانت أما لابن الأب أرينا غير الشرعى وأنه أنجبه منها

وليس من خادمته، لذا تولت الإنفاق على دراسته، ومن يقول أن أبناء شقيقتها الذين يعيشون فى إيطاليا هم أبناؤها من رجال لا يمكن الحديث عنهم، لذا لا يأتون أبدا إلى روكاكوملبا....»

ختم دون باولينو الحديث:

« الحقيقة أننا نعلم القليل ولا نعلم عنها شيئاً، كانت مجتهدة فى عملها وكان يعجبها إصدار الأوامر، ومن هنا بدأت المشاكل للجميع. فالسادة يعجبهم العاملون المجتهدون ولكن ليس من يحاولون السيطرة عليهم. ولو كانوا استمعوا إليها لزاد ثراؤهم أما نحن فسنبقى فقراء، مهانين أيضاً عند وفاتنا.»

٤٨. دون فينشينسو انكونا يعامل زوجته بغلظة

كان دون فينشينسو يشرب في صمت أول أقداح قهوة ذلك النهار، الذى أعدته له زوجته، جالساً فوق مقعد من القش وضع بالعرض أمام منضدة المطبخ، متأهبًا للذهاب إلى أعماله في صباح الأربعاء ٢٣ أكتوبر. كانت اللحظة التى يستعد فيها للعمل ويستعرض فى ذهنه ترتيب اولوياته، الماضى القريب والمستقبل الفوري. على الرغم من بلوغه الحادية والثمانين وعلى الرغم من أنه ممتلئ الجسد إلا أنه كان يتمتع بصحة جيدة ولا يزال يحتفظ بذاكرة حديدية وهو أمر فى غاية الأهمية بالنسبة له حيث كان يقرأ ويكتب بصعوبة.

قطعت الزوجة حبل أفكاره قائلة: «سمعت أنك ذهبت فى الشهر الماضى لحضور جنازة امرأة تدعى انسريللو. اليوم ذكرى مرور ثلاثين يوما على وفاتها. من كانت هذه المرأة ؟»

هذه الأسئلة لايجب توجيها الىّ، اعتنى بشؤونك، وفكرى فى أولادك الفاسدين، اغربي عن وجهى!

خبط دون فينشينسو قدح القهوة فوق المائدة، فتناثر ما بقى فى الفنجان فوق مفرش المائدة البلاستيك، وخرج من المطبخ بخطوات ثقيلة. وفى الصالة كان هناك رجلان فى انتظاره. وعند إشارة منه سارعا بمساعدته على ارتداء السترة، وفتحا له باب البيت فى صمت. كانت سيارته ماركة «جوليتا ألفا روميو السوداء» جاهزة، والسائق فى انتظار تشغيل المحرك لبدء رحلة طويلة نحو العاصمة.

ظل دون فينشينسو صامتاً متكدر المزاج طوال الرحلة. بل رفض الراحة التى اعتاد القيام بها لشرب فنجان من القهوة فى استراحة الطريق. وأعطى أوامره بالسير بسرعة كانت السيارة تجرى فوق الطريق الممتلىء بالمنحنيات، هابطة من الجبال

نحو المنعطفات الجبلية تسبق سيارات أخرى فى المنعطفات ذات الاتجاه الواحد، كانت ترتقى ثم تهبط من جديد فى المنحنيات المائلة لتفتح الطريق مستخدمة آلة التنبيه، متجاوزة حدود السرعة حيث كان السائق يمضى بثقة من يعرف أن لديه الأمان الكامل فى فعل كل ما يحلو له. كان فى ذلك السير الواثق، إرث من السلطة والعنف، يربطه بالطرق والمدن والأشخاص، ما يشبه الألفة الجبرية، ثقة يعلم جيدا أنها غير مستقرة تظهر وتختفى مثل ستارة المسرح. كانوا يعبرون الجبال، حيث أراضى الإقطاعات الكبيرة للأمراء بريولى والتى كانت عائلة أنكونا تتزعم المافيا بها لسنوات طويلة. كان ذلك الطريق زاخرًا بالذكريات و بالحنين لماضى دون فينشينو.

تذكر أيام الصبا عندما كان والده دون جوفانى أنكونا يعلمه المهنة التى أورثه إياها، كما فعل جده مع أبيه، مهنة تنتقل من أب إلى ابن مثل ألقاب النبلاء يرثها دائما الابن الأكبر. فقط دون فينشينسو لم ينل ذلك الفخر، حرمته حماقة ابنه من تلك السعادة، الابن الذكر الوحيد الذى خان شرف المافيا لأنه لم يتحكم فى شهواته، خطيئة لا تغتفر لرجل من المافيا.

حقيقة، ابنه الآن قد شغل مناصب هامة، ولايزال ينتمى إلى المافيا، ولكنها مناصب خارج صقلية، فحرم أباه من الاستمتاع بالقرب منه، ورؤيته وهو يتقلد مكانه.

كان تافهاً، لم يكن سوى صبى تافه، على الرغم من أنه من دمه ولحمه! كانوا يمرون بإقطاعية كانيللى حيث اقترف الابن ذلك الفعل الشائن الذى غيَّر حياته. لعن دون فينشينسو ما حدث قائلا: اللعنة على ذلك القدر! عندئذ نظر اليه رفقاء رحلته، وأبطأ السائق السرعة قلقاً، لكنه أصدر أوامره:

«واصل السير، كنت أفكر فى بعض شئوني» رجع إلى الوراء واتكأ إلى ظهر المعقد، وأسند رأسه، وضع نظارة الشمس وحدق نظره فى الطريق. اجتاحته ذكريات الواقعة التى غيَّرت حياة ابنه وسببت له ولزوجته ألما شديدًا، حدثت منذ أكثر من أربعين عاماً، ولكنه يتذكرها كما لو كانت بالأمس. مات والده، وهو لا يزال صبيا إلا أن دون

فينشينسو كان قد تعلم جيدا. وكان يصلح تماماً ليأخذ مكان والده، الحارس الزراعى المزيف للاراضى الأمراء برولى امام السلطات، وزعيم المافيا المهاب لإقطاعياته وما يحدها، والاراضى المملوكة للعائلات البرجوازية والطبقة الأرستقراطية الصغيرة. كان الجميع يخشاه ويحترمه حتى خارج الإقليم، وكان الكل يعرفه

كرجل أمين، لا يمكن النيل منه، بعيد النظر، ومستعد للتوسع فى أعماله والبدء فى أنشطة جديدة. رجل محب لعائلته، شديد الإخلاص لزوجته، و كان ابنه جوفانى قرة عينه وخاصة أن الابن أظهر من الذكاء والفطنة ما يؤهله لخلافته. كان ذلك يشعره بفخر لا يحسه إلا الأب، كان يراه جميلاً، قوياً، ويستشف تدفقا هائلا لصفات الرجولة، وأكثر من ذلك الدهاء، والغطرسة، الإصرار والكبرياء وهى صفات إن اختلطت ببعض الدراية فى الأعمال لجعلت الابن مؤهلا تماما « لإدخال «الحداثة» فى مهنتهم. كان دون فينشينسو يعى تماما أن الزمن تغير بالنسبة للجميع، وأن المافيا يجب أن تتأقلم مع هذه المتغيرات، أن تتغلغل فى النظم الاجتماعية والسياسية، كان يعلم أن تلك الطفرة سيكون لها آثار هامة، وجذرية وأن بعض طقوس قواعد الماضى وانتقال السلطة من الأب إلى الابن والتى لا يزال متعلقا بها، سيأتى اليوم الذى تصبح فيه بالية ويطويها النسيان. كان دون فينشينسو يتألم بسبب ذلك، فقد أرست المافيا نجاحها على قواعد صارمة قاسية ومتوقعة: يشترك الجميع فى الرعب من العقاب، والانتقام لمن يجرؤ على انتهاك ميثاق الشرف لرجل المافيا، أو التمرد على تلك الأحكام المجحفة، وكان رجال المافيا و الأشخاص العاديين يعتبرون ذلك دليلاً على نزاهة المافيا بل وعدالتها.

كان دون فيشينسو يعجبه كثيراً القيام بالدور المزدوج للقاضى والجلاد على الرغم من أنه كان يعى تماما زيفه، كان المعلم الوحيد للابن، وكان مقتنعا بأنه يستطيع أن يترك له إرثا من المعرفة المناسبة.

كان تلقين الابن المبادئ الأولى للمهنة، يقتضى أن يصحبه دون فيشينسو إلى الريف فى وقت الحصاد، وبذا يعرفه الجميع، أصحاب الأراضي والفلاحون ويتعلم

كيف يعامل الناس. وفى ذلك الصباح من شهر مايو ذهب ممتطياً حصانه إلى حقل اللوز الشاسع الذى يمتلكه الأمير حول بيت المزرعة.

كان جامعو اللوز يضربون الفروع بعصا لينة، قاسية فوق الحبوب وحانية فوق النبات بينما حبات اللوز كانت تتساقط مثل حبات البرد خضراء ممتلئة، وقد صلبت قشرتها لتوِّها، كانت تتساقط فوق الأرض مثل حبات الزيتون العملاقة. وعلى مسافة منها، يتبعهم فرقة من قاطفات اللوز اللاتى كن يجمعنه جاثيات مثنيات فوق ركبتهن مثل حشود النمل وصبية وكان مراقبهم مشرفاً عليهم أما الفتيات فكانت الحارسة العجوز وكان لها الخفة وواجب تقريع وتأنيب جامعى الحبوب أن جروا على إدخال كلمات فاحشة وجريئة فى مقاطع الأهازيج القديمة. كان من النادر أن يجمعوا اللوز فى صمت. كانوا دائما يغنون فى شكل حوار غنائي، كان عملا هادئا منظما، وكان يميز دائما الانتقال من أواخر فصل الربيع إلى فصل الصيف حيث يكون الطعام وفيرا للجميع.

فى ذلك اليوم، طرأت لدون فيشينسو الفكرة المشئومة بترك الابن مع جامعى اللوز الذين كانوا يعملون حول بيت المزرعة، بينما ذهب إلى منهل المياه فى الناحية الأخرى من حقول اللوز. زعيم المافيا يجب أن يراه الناس، بل وأن يرى الناس ويسمعهم، يقظ دائما. فكانت مراقبة نقل المياه، والاستماع إلى أحاديث الفلاحين والصبية الذين يملأون سطول المياه ليحملوها إلى بيوتهم من الأشياء المحببة له، والضرورية، كان سيتناول معهم الجبن والخبز، ليعود فى الظهيرة، ثم يرجع إلى البلدة مع الابن.

وفى حوالى الساعة الثانية، لحق به فلاح من المزرعة يدعى لويجى فيكاري، جاء على ظهر بغلته، تحدثا معاً لفترة وجيزة ثم انصرفا معا، وقد سارا بالدابتين بهوادة طوال فترة سيرهما أمام المترددين على نبع المياه ثم أسرعا نحو المزرعة. أراد دون فينشينسو حث دابته على العدو ولكنه كان لايرغب فى إثارة الانتباه، حتى طمى الأرض له عيون وآذان. وصل إلى بيت المزرعة. كان يبدو مهجوراً،

هادئاً كما لو أن شيئاً لم يحدث؛ فجامعات اللوز كن يواصلن العمل بهمة، وجامعو الحبوب يغنون، والفلاحون فى حقولهم، وكان يوماً دافئاً مشمساً. دخلا فى بيت الفلاح وفقط عندئذ، قصوا عليه ما حدث بالتفصيل بصوت منخفض، رفض دون فيشينسو قدح الماء الذى قدموه له واستمع إليهم. منذ حوالى ساعة كانت زوجة لويجى فيكارى قد ذهبت لتنظيف حظيرة الدجاج الكائنة بجوار مخزن القش، وسمعت منه صرخات مدوية لامرأة.

«إنه يقتلني، النجدة.» ثم صمتت ثم عاد الصراخ مرة أخرى لم يكن لديها فكرة عمن هناك، فلم يزرهم غرباء فى ذلك اليوم. نادت الزوج وذهبا معاً إلى مخزن القش والذى كان أيضا مكان نوم لقاطفات اللوز، شاهدا سيقاناً وأذرعاً متشابكة، كان جوفانينو انكونا مستلقيا على القش، فوق الفتاة، وقد أنزل سرواله، والفتاة تقاوم، وتركل، وجوفانينو مستغرقا تماما فيما يفعله لدرجة أنه لم يشعر بوصولهما. أما تلك الشيطانه فشعرت بدخولهما، وعضت يده التى كان يكتم بها فمها وجعلت تصرخ. استطاعا الفصل بينهما، ساعد لويجى فيكارى الصبى على ارتداء ملابسه، ثم أرسله إلى اصطبل الأبقار حيث اختبأ هناك.

قال الفلاح خائفاً من غضب دون فينشينسو، الذى كان يستمع إليه متكدرا هادئًا:

« أحضرت له بعض المياه، ورفض الطعام، والجرح ليس خطيراً.»

سأل:« والفتاة أين هي؟»

- «إنها هنا ببيتى وقد بقيت زوجتى معها،» وأشار إلى الحجرة الأخرى، « لم تصرخ الفتاة بعد ذلك، ولم يعرف أحد شيئا عما حدث، ما فتئوا يعملون جميعاً فى الحقول.»

- قال دون فينشينسو بلهجة آمرة:

«نادِ زوجتكم! كانت الفلاحة مضطربة حاولت أن تتمالك أعصابها أمام شخصية بهذه الأهمية والسطوة والرهبة، وكان واضحاً أنها كفت لتوّها عن البكاء.

أمرها دون فينشينسو:

«أخبروني بما حدث، ثم أدار رأسه نحو الزوج وأردف «لويجي، أشكركما على حسن التصرف، وسأتذكر دائما صنيعكما، الآن سيد لويجي، اذهب وأخبر ابني أن يغتسل، واذهب بفرسته والفرسة الأخرى لشرب الماء لأننا سنرحل، سنعود إلى البلدة فوراً.»

وعندها بقي وحيداً مع الفلاحة سألها من جديد أن تروي له ما رأت بأدق التفاصيل. من هي الفتاة وكيف حالها دون خجل وبكل تفاصيل الواقعة. ولم يكن ذلك بالأمر اليسير بالنسبة للمرأة.

كانت تتحدث باكية، راجية مؤازرة القديسين والزوج الذي كان يمكنه التحدث بكل شيء أفضل منها، وهي السيدة الريفية التي لم تر أبداً مثل هذه الأشياء، فهم دون فينشينسو فورا أن الأمر يتعلق بعنف جسدي حقيقي.

كان دون فينشينسو يعرف منولارا وأيضاً ابنه كان يعرفها.

سألها: هل تعرفونها جيدا؟

استطاعت الفلاحة أن تهزم خجلها وأكدت له وهي تقسم بكل القديسين وبقبر أبيها وبحياة ابنها ، إن الفتاة كانت عذراء وكان تصرفها يؤكد ذلك: فمنذ استطاعا نزع ابنكم من فوقها، نجحت فقط في إدخالها إلى غرفة نومها، حيث ارتمت فوق الأرض، كانت تئن فقط، وقد لطخت الدماء ثيابها وبين فخذيها، رفضت حتى رشفة الماء، الفتاة بريئة.

«أنا أعرف منولارا أكثر من الأخريات، فهي تعمل هنا منذ سنين. هم في غاية الفقر، لا تأكل حتى نصيبها من الطعام كي تحمله إلى البيت، يتضورون جوعاً.

نحن جميعا نحبها، وكل حين نترك لها بيضتين، بعض الخضراوات، أو قطعة من الجبن، مخبئين في مخزن القش لتحملها إلى البيت، فهي تخجل من قبول هذه العطايا أمام الآخرين، وترفضها، لذا نترك لها الأشياء في تجويف حائط مخزن القش

حيث تخبئ طعامها وهى تعرف ذلك وتحفظ الأشياء به.

وبالفعل هذا الصباح أثناء جمعها للوز، أخبرها زوجى أن هناك أشياء لها فى مخزن القش كانت فى غاية السعادة.. فهى عزيزة النفس، ولاتطلب شيئاً من أحد أبدا.

«لا أدرى لماذا عادت إلى المخزن فى ساعة الغداء، ربما لتملأ الجرة بالمياه الباردة، فقد رأيت إناء المياه فى أحد الأركان، ولا أدرى كيف ظهر ابنكم. كانت المسكينة مرعوبة ولم تكن تريد اتهام ابن زعيم المافيا بتصرف جبان وغير معتاد من رجل المافيا.

سأل دون فينشينسو:

فى رأيكم كان اغتصابًا أم لا؟»

عاودت المرأة البكاء ببطء، ولم ترد:

كرر دون فينشينسو السؤال بنبرة متغطرسة دون أن يرفع صوته تحدثوا، هل كان اغتصابا أم لا؟

« سيادتكم رب عائلة، أب لأبناء، وأنا أيضاً لديَّ أبناء وأقسم لك بقبر أمى أن صرخات الصبية والحالة التى وجدناها عليها وحالتها الآن، لا تترك أى شك فى أن الأمر كما تقولون، ثم إن الحقيقة يعلمها الله وحده».

أمرها دون فينشينسو: «افتحوا الباب واجعلونى أراها» لم ترد الفلاحة إطاعة أمره وقالت له أن الفتاة مغشي عليها تقريبا، وإنها بالتأكيد ستموت من فورها إن رأته، لن تحتمل ذلك، لا يمكن سؤالها وهى على هذه الحالة.

فقد دون فينشينسو هدوءه ورفع صوته:

«استمعوا إلى ما أقوله، أعلم كيف أتصرف فى هذه الحالة أريد فقط رؤيتها ولن أتحدث معها».

نهض دون فينشينسو، وفتح الباب:

كانت الغرفة بين العتمة والضوء وكانت نافذة الغرفة الوحيدة تقع في منتصف الحائط تقريباً أسفل دعامات السقف، مواربة الدرفتين.

غزت حنجرته روائح الفقر، والرطوبة، والروث، والقش: وتراصت فوق الأرض صناديق، وسلال، وأغطية مكدسة، وأدوات. كان السرير في حقيقة الأمر يتكون من مرتبة ملقاة على أرضية الحجرة، مغطاة بخرقة رمادية وكان يحدد رأس السرير صليب صغير.

لم يرها، في أول الأمر. كانت قطعة الأثاث الوحيدة بالغرفة مقعد، وضع في أحد الأركان. وهناك استلقت منولارا. كانت تبدو كومة أخرى من الخرق البالية، ملقاة فوق الأرض مثل طفل ولد لتوه، كان ظهرها محنيا، مستديراً تقريباً، ساقاها مثنيتان، كانت رأسها المحنية فوق صدرها تلمس ركبتيها، كانت تئن مثل كلب جريح وتنتفض لم تشعر بوجوده، كانت بقع الدماء واضحة حمراء في خلفية التنورة، وقد تعرت إحدى ساقيها، وبدت فوق لحمها الفاتح آثار خيوط الدماء حتى قدميها.

أغلق دون فينشينسو الباب، شكر الفلاحة وذهب إلى الاصطبل حيث كان ابنه واقفاً في انتظاره، وقد تلطخ أيضا قميصه وسرواله ببقع دم.

قال له:

«تعال. وامتطيا الحصانين في صمت وركضا، كأن شيئاً لم يحدث»

مرا من بعيد بقاطفات اللوز، ملقيان بالتحية المعتادة، باللهجة الصقلية:«تحياتنا».

وفعلا نفس الشيء مع جامعي الحبوب. استغرقت رحلة العودة حوالي ثلاث ساعات، لم ينظر دون فينشينسو إلى ابنه، كان يمتطي الحصان أمامه، فاتحاً له الطريق بين الأشجار، حريصاً على تجنب الدروب التي يسلكها الناس عادة.

كانت الزوجة والبنات الصغيرات تنتظراهما، وكانت البنات سعيدات. كان الحزن يدمى قلب دون فينشينسو من التفكير فى المصيبة التى حلت بعائلته، شرح لهن أن جوفانينو قد سقط وجرح، ليس جرحاً خطيراً، وأرسلهن جميعا إلى الصيدلية لشراء الأدوية.

وعندما أصبح وحده مع الابن سأله: «أصبتها؟»

«نعم، لا أدرى كيف حدث ذلك.»

عندئذ، صب دون فينشينسو جام غضبه على ابنه الذى يعبده وأوسعه ضرباً ولكماً وركلاً فى بطنه و الخصيتين، وهو يبكي، يلعن نهاية أسرته ونسله. ظل جوفانى الصغير ملازما الفراش بعد ذلك لعدة أيام.

وأثناء ذلك رتب دون فينشينسو طريقة لإبعاده عن البلدة. قيل إنه سيذهب ليعيش فى الشمال عند أحد أبناء عمومته ليستكمل الدراسة، فهو على قدر كبير من الذكاء، طاقة مهدورة فى صقلية ويستحق فرصة تعليم أفضل فى إيطاليا. علم أفراد المافيا بما حدث وأيدوا قرار دون فينشينسو الحكيم.

تصرف جوفانى الصغير كرجل حقيقي: اعترف بخطئه ووعد أمه التى انهارت عند رحيله بأن يشرف العائلة وأن يجعلها تفتخر به ذات يوم.

وفى اجتماع للرجال المافيا، أقر جوفانى أنكونا الصغير بتواضع وكرامة غير عاديين بالنسبة لصبى فى السادسة عشرة، بما اقترفه من خطأ. فهو لم يرتكب فقط إثما لا يُغتفر طبقا للميثاق الأخلاقى للمافيا، ولكنه سمح لشهوته بالسيطرة عليه (سواء أرضى شهوته مع أنثى برضاها، مع رجل أو بهيمة لا يهم، فرجل المافيا لا يجب أبدا أن يفقد السيطرة على نفسه) ثم إن اغتصابه لعذراء والأدهى من ذلك طفلة، يثير الشك حول قدرته على التقدير وينتهك قاعدة أن نساء الآخرين لايمسسن، وإن أخرسوا الفتاة الصغيرة والشهود، فخطر أن يتحدث أحد عن ذلك فى المستقبل يظل

قائماً، وهذا الاحتمال البعيد حرم عليه أن يكون جديرًا بخلافة أبيه وأجداده في تلك الأراضي.

وعدهم جوفانى الصغير تائباً، بأن يستغل الفرص التى سيتيحها له العالم الحديث لخدمة مصالح المافيا مثل فرد من عائلة أنكونا وكما فعل أفراد عائلته الآخرين من قبل.

فى الواقع، وعلى الرغم من المهانة الشديدة والألم الذى شعر به لتركه العائلة، إلا أن جوفانينو أنكونا كان يعلم بقدراته وكان يرغب فى الدراسة، وكانت تجذبه فكرة الدراسة والعمل فى مجال الأعمال بالإضافة إلى أنه كان يعى نفوره من الحياة القاسية والقانون القاسى الذى يحكم حياة المافيا فى الريف.

كان جوفانى أنكونا نادرا ما يعود إلى صقلية، عاش وتزوج فى لومادريا، ابن ضائع بالنسبة لدون فينشينسو وزوجته.

اضطر دون فينشينسو لرواية الواقعة إلى المحامى تشيشيو الفاليبى المسئول على إدارة إقطاعية أمراء برولى وقد خفف الأمر كما لو كان خطأ وقع فيه صبيان مستعرا الشهوة، وأفهمه أنه يفضل أن تجد منولارا عملا آخر فى البلدة. وهكذا لم تجد السيدة ليللا الفاليبى أية معارضة من الزوج عندما أخبرته برغبتها فى إلحاق خادمة أخرى بالبيت، ابنة نوريتسا اينسيريللو.

اشترى دون فينشينسو صمت عائلة فيكارى التى تركت الريف وفتحت دكانًا لبيع الخضر والفاكهة وظلت دائما تحت حراسته وكان أيضا يستعلم عن حياة عائلة اينسريللو ومنولارا، مستعداً دائما لقتل من يشك أنه قد تحدث أو يريد أن يتحدث عن الأمر.

-٤٩- دون فينشينسو يتذكر لقاءه الوحيد مع منولارا

وبعد تلك الحادثة بحوالى عشرين عاماً، قبل اشتعال الحرب، أخبره شخص من مدينة أنا «قصر يانه» أن منولارا ترغب فى الحديث معه عندما يريد.

دهش دون فينشينسو، وتكدر من ذلك الطلب: ابتزاز أم طلب تعويض بعد مرور كل هذه السنوات؟ تفكير لا ينتج إلا عن عقل مضطرب، بينما يبدو له أنها على العكس تماماً؛ فقد كان يعلم بكل أمورها وعرف أنها معروفة بالاتزان، والحرص، وقلة الحديث، لاتعطى ثقتها لأحد. فمها مخيط مثل «امرأة تحترم كلمتها وتفى بوعودها».لذا أثار دهشته كثيراً طلبها مقابلته. قرر دون فينشينسو أن ينتظر لمدة أسبوعين قبل الرد عليها، وخاصة أنها لم تتعجل ذلك اللقاء.

إلا أن التفكير فى منولارا أصبح بالنسبة له مثل قلنسوة من الصلب تضغط فوق رأسه، كانت تقلقه أكثر من أى شىء آخر. بعد ذلك بأيام قليلة شعر دون فينشينسو وزوجته بالفخر والرضا عن ابنهما جوفاني، فقد ساعدته المافيا فى الحصول على منصب هام فى البنك الذى يدير جزءًا كبيراً من أموال العائلة: فبدأ يشق طريقه كى يصبح واحدًا من أكبر رجال البنوك للمافيا فى الخارج. جوفانى الذى بعد أن ابتعد عن صقلية تخرج بحامعة عريقة بميلانو والآن يتحدث بطلاقة الفرنسية، فلا يمكن معرفة أصوله الجنوبية أو انتماءه إلى المافيا.أصبح من المقدر له تخطى والده فى المكانة عند المافيا. كان يبدو له من سخرية القدر أن يتزامن خبر نجاح الابن مع طلب منولارا، ثم بدأ يشك أن بين الأمرين ارتباطاً مثيراً للاشمئزاز، لايعرف كنهه وبدأ يقلقه كثيراً. فكر أيضا فى إمكانية إسكاتها إلى الأبد ستكون واحدة من أولئك الذين اختفوا دون أن يتبقى منهم أى أثر ولم يعثر عليهم أبدا. فى شبابه فعل ذلك مع الكثيرين، وكرئيس للمافيا أمر أيضاً بتصفية العشرات، كان أمراً بسيطاً. ومع ذلك قرر فى النهاية أن يسمعها ربما بدافع الفضول، كان يريد أن يتحقق مما حدث بالفعل فى الماضي.

والباقى كان سيقرره بعد ذلك. ضرب لها موعداً بمكتب موثق عقود، يثق به فقد كان من الواضح أنها تنوى ابتزازه.

.

كانت الساعة حوالى الثانية من ظهيرة يوم خميس، كان يذكره تماماً، فكان هناك أشخاص قليلون بالطريق، دخلت منولارا إلى المكتب بعصبية حيث كان ينتظرها موثق العقود، ودون فينشينسو، نحيلة، ووجهها شاحب بارز العظام، وشعرها معقوص إلى الخلف على شكل كعكة، ثوبها رمادى بسيط محتشم، كانت تبدو أكبر من عمرها. نهض موثق العقود لاستقبالها بينما ظل دون فينشينسو جالساً مطأطأ الرأس وقد وضع يداً فوق إحدى ساقيه والأخرى اسندها فوق المكتب. جلست منولارا فوق المقعد المقابل، لدون فينشينسو ثم استهلت حديثها:«أشكركم على هذا الموعد.»

اضطر دون فينشينسو إلى رفع عينيه، نظر إليها مليًّا، كعادته دون أن يُشعر محدثه بنظراته.

حاول فى الماضى أن يسترجع قسماتها، ولكنه لم ينجح فى تذكر ملامحها كان يتذكر فقط أنها كانت تغنى بصوت قوى عذب والآن وقد ظهرت أمامه، طفرت إلى ذهنه صورة الفتاة الصغيرة النحيلة الشادية التى كانت تغنى بملء حنجرتها تحت الأشجار.

بادلت منولارا نظرته بلا خجل وقالت ببساطة:

«دون فينشينسو، لم أستمتع بعد ذلك بغناء، صدقني، يؤسفنى ذلك كثيراً».

تدخل موثق العقود فى ذلك الحديث غير المنطقي، وأوضح كاتفاقه السابق مع دون فينشينسو أنه حضر هذا الاجتماع إن احتاج الأمر إلى بلورة الحديث، أو كتابة اتفاق وعند ذلك أدرك أنه ليس فقط منولارا وإنما أيضا دون فينشينسو كانا ينظران إليه كما لو كان تدخله غير مناسب، وأحمق: فقد قطع لقاء حميمياً وهاماً.

قالت له مينولارا بصوت منخفض وحاسم: «سيدى موثق العقود لست فى حاجة للمال، من الأفضل أن تنصرف، يستطيع دون فينشينسو استدعاءك إن اقتضت الحاجة.» خفض دون فينشينسو رأسه موافقاً على ذلك.

بقيا وحدهما وقد جلس كلٌ منهما قبالة الآخر، أمام المكتب الفخم من الخشب الخالص وفى الناحية المقابلة كان يظهر مقعد موثق العقود فارغاً فى كامل أبهته، بالمسند الطويل والواسع يحيط به إطار من الخشب المنحوت. كان يبدو مقعداً مخصصاً للشخص الغائب، ابنه جوفانى الصغير، والذى لم يذكر اسمه بالمرة، إلا أن حضوره كان تقريباً ملموساً فى هواء المكتب الثقيل اللزج، كما لو كان شبحاً. تنهد دون فينشينسو بصعوبة، حرك يديه ووضعهما كما كانتا من قبل، رفع رأسه الحمراء، الصلعاء تماماً وباغتها بالسؤال:

« ماذا فعل معك؟»

أجابت منولارا وهى تنظر إلى عينيه مباشرة:

لم أقل لأحد؟ هل تريدون سماع القصة الآن؟»

أخفض دون فينشينسو رأسه: كان أمراً.

تحدثت بطلاقة، بصوت رتيب، خال من الانفعالات وكانت تسترجع بالضبط وبذهن حاد يقظ الصدمة التى عانت منها وهى فى الثالثة عشرة،

بنظرة فارغة كما لو كانت تحكى أشياء حدثت لشخص آخر.

«سيادتك، تعلم من أنا وأيضاً أننى كنت أعمل لأعول الراحلتين أمى وأختي، كانت تعجبنى الحياة فى الحقول والهواء الطلق وكنت أعمل بسعادة. كان الفلاحون فى إقطاعية كانيللى يشفقون علينا ويتركون لنا عطايا من الجبن والطعام مخبأ خلف حجر فى فتحة أسفل نافذة مخزن القش الصغير، كنت آخذه بعد ذلك إلى البيت وفى ذلك اليوم، أخبرنى دون لويجى فيكارى أن هناك بيضتين لي، وقد يكون سمع ذلك.

كان يوماً حاراً ومازالت الكثير من الأشجار لم يتم جمع ثمارها.، كان جامعو الحبوب يعملون ببطء وكسل، فيتركون الكثير من اللوز الناضج فوق الأشجار وكنت أتسلق الأشجار وأجمعه كله. كان يعجبنى تسلق الأشجار، كنت لا أزال طفلة.

ربما لاحظنى أثناء العمل، لا أدري، أعرف فقط أنه عندما توقفنا عن العمل لراحة الغداء، شعرت بجوع شديد وأكلت كل قطعة الجبن والزيتون الذى أعطوه لي. فى العادة كنت آكل القليل منه وأحتفظ بالبقية لأحملها إلى البيت فقد كانت أختى ذات شهية قليلة وتلك الأصناف كانت تفتح شهيتها، كان يدور حولنا ونحن نعمل، كما تفعل سيادتك. كنت أحكى لقاطفات اللوز الأخريات أنه لم يكن ينبغى لى أن أكل كل الجبن بالفلفل فكان لذيذا جدًا. سمع ما قلته واقترب مني، اخبرنى أن لديه نصف قطعة من ذلك الجبن، ويمكنه أن يعطينى قطعة كبيرة منها وأننى سأجدها فى مخزن القش إن ذهبت مبكراً لأنه لن يمكث بالمكان لمدة طويلة، و سيادتك دون فينشينسو كنت قد انصرفت بالفعل، لذا صدقت ما قاله أنا وقاطفة لوز أخرى.

حملنا القوارير الفارغة لملئها بالمياه الباردة، رفعناها فوق رأسينا وسرنا بها كما كان حريًا بالفتيات، الآن لم أعد أحملها فوق رأسى ولا حتى مستلقية.« صمتت. نظرت إلى جهتة مباشرة ثم عادت نظرتها مشوشة وغرقت حدقتها فى إحباط عميق.

عادت منولارا تتحدث بنفس النبرة: «ذهبت للمرة الأخيرة لملء القوارير بالمياه من البئر. وما أن دخلت حتى هاجمنى مثل حيوان مثار جنسيا. لم أتمكن من الدفاع عن نفسى مزق ثوبي ولحمي، كان أقوى مني، كتم فمى، عضضته فقط مرتين لطلب النجدة، لكمنى فى فمى وصدري، وسبب لى ألما أشعر به إلى الآن، اخترق جسدى حتى أحشائي، كنت أشعر بأننى سأموت.

لحسن الحظ وصل دون لويجى فيكارى وزوجته. وصلا، ولكن قبل مساعدتي، انشغلا بمساعدته، فهو ابنكم، أما أنا فيتيمة، فقيرة، لحقها العار.

مكثت على هذه الحالة ببيت الخالة ماريا فيكارى، كنت أود أن تبتلعنى الأرض من شدة الإحساس بالعار، كنت أشعر بالألم داخل جسدى وخارجه. الخالة ماريا غسلتنى قليلا وأعطتنى بيضاً وخضروات وخبزا كثيراً، عدت إلى المنزل وحيدة دون تحيه الآخرين، كانت كل خطوة بالنسبة لى ألما يعتصرنى من شدة المعاناة التى كنت أشعر بها.

«كانت أمى قد بلغها أننى تورطت مع أحدهم وأن الذنب ذنبى وكانت تنوى قتلى ضربا، إن لم تكن بهذا الوهن، ولكنها عندما رأتنى فهمت أن الأمر ليس كذلك ولم تسألنى عنه. كانت تحترمكم كثيراً دون فينشينسو، كانت تقول أنكم كنتم تستطيعون طرد أبى عندما كان يعمل أجيرا ولم يكن لديه القوة للعزق لأنه كانه يحتضر ولكنكم لم تفعلوا وربما بسبب ذلك، صدقت طيبة الابن عندما قدم لى الجبن.

كانت النيران تتأجج داخلى كلما تصورت أن سيادتك قد تسيء بى الظن مثل الآخرين، وتعتقد أننى المسئولة عما حدث لى، لأن الحقيقة ليست كذلك. حتى الآن يعلم حقيقة ما حدث نحن الاثنان فقط أنا وهو.

بقيت بالمنزل لعدة أيام لم أكن أستطيع التفكير، ولم يكن هناك مستقبل لنا. نفد الطعام وأمى وأختى كانتا مريضتين جدًا. ألحقتنى أمى بالخدمة ببيت الفاليبى وإن لم تكن تريد ذلك أبداً لأنها كانت تقول أنه لا يمكن الوثوق بالسادة الذكور وكانت محقة، فأنا الآن أسيرة فى ذلك البيت وسأموت دون أن يكون لى أبناء أو عائلة.

لقد حملت من المحامى أوراتسيو الفاليبى ولكنه لا ينبغى أن يعرف ذلك، سيادتك الوحيد الذى تعلم ذلك الآن بعد الطبيب ميندكو، والسيدة ليللا. قمت بإجراء عملية إجهاض واستأصلت معها كل شيء، كان ذلك ضروريا. وأثناء وجودى بالمستشفى، عرفت أنه يوجد طريق لاختبار الدماء وتحليل البصمات، وبذا يمكن تحديد أصحابها، وقد قمت بإجراء التحليل للمنديل الذى استخدمه لتنظيف نفسه ليس فقط من

الدماء ولكن أيضا من آثار عاره وبصمات أصابعه التى طبعت فوق المنديل. وقد احتفظت به، وهكذا يمكن معرفة صاحبها، أنا أعرف ولست بحاجة إلى أدلة. ولكن إن لم تصدقنى سأعطيه لك مع نتائج التحاليل التى قمت بإجرائها. لست هنا لابتزاز أحد أو لطلب نقود من سيادتكم أو منه. أنا هنا لأخبرك أن الحقيقة واضحة، وأهدى لك الأدلة الوحيدة التى أملكها والتى لا أريد أن أراها بعد ذلك أبدا.»

فتحت الحقيبة وأخرجت مظروفاً، وضعته فوق المكتب «أسألكم ثلاثة صنائع فقط، يمكنكم أيضا رفضها وثقوا تماما أننى لن أستطيع أو أرغب فى إيذائكم أو إيذائه. لقد أشفقت السيدة ليللا الفاليبى عليَ وأهدتنى خمسين قطعة ذهبية، كى أسامح ابنها على مافعله معي، ربما كان أيضاً مبلغاً مبالغاً فيه فلم أكن عذراء وهو لم يغتصبنى أبدا كما فعل الأخر. بقيت فى بيتهم. لو كنت تركتهم لأصبحت عاهرة لخنازير آخرين مثله ولم تكن أختى لتجد الدواء ولكانت ماتت».

توقفت ثم أكملت:«لا أشعر بالخجل، لأننى نجحت فى علاج أختي، وتزويجها عذارء برجل جاد، لديها ابنان وتعيش سعيدة كما أرادت أمى رحمها الله»، توقفت برهة، وثبتت عينيها مباشرة فى عينى دون فينشينسو».

سألها بصوت أجش:

«ماذا يمكن أن أفعل لك؟»

«الصنيع الأول، فورى: أحتاج مساعدتكم، لاستثمار تلك القطع أقرأ قليلا، وأفهم كثيراً. لا أريد أن يعرف أحد شيئاً عن تلك الهبة، فضلاً عن أننى أملك بعض المدخرات القليلة.

سيادتك صاحب نفوذ، أعرف أيضا أن العائلة تقوم باستثمارات بالخارج، أعتقد أنه من الحكمة استثمار تلك النقود جيدا وسرا، وهو على أية حال ما تفعلوه أيضا. لا أدرى كيف ولكنى أريد لهذه النقود أن تزداد، لأننى أخشى شيئا واحداً أن أعود للفقر من جديد.

الثانى فى المستقبل: إذا احتجت للحماية أو طلب المساعدة، أن تساعدونى بكل سطوتكم.

الثالث خاص بالاحترام الذى أستحقه.

إذا حدث أن توفيت قبل سيادتك، أشعر داخلى أننى عانيت كثيراً لأحظى بعمر طويل ونحن عائلة انسريللو نموت فى سن مبكرة، أريد وعدا أن تحضر جنازتى لأنه هكذا يسدد رجل المافيا دينه تجاه قاطفة لوز فقيرة، سلبها لحمك ودمك شرفها.

نظر إليها دون فينشينسو بثبات دون أن يتحرك.

انحنى إلى الأمام، أمسك بيديها، وقبض عليهما بين يديه وأخفض عينيه« فعلت منولارا نفس الشىء، ثم قال: «كلمة شرف». نهضا، ثم أخذ دون فينشينسو المظروف، وانصرف لم ير دون فينشينسو منولارا بعد ذلك واحتفظ بكلمته. استثمر لها الأموال فى سويسرا وأتاح لها نفس المعاملة الخاصة بأفراد المافيا، وكان أحد الموظفين الكبار يقابلها فى صقلية عندما يأتى للاتصال بالعملاء أثناء أجازاته الأسرية».

وكان يستخدم معها نفس قنوات الاتصال اللائقة. أعاد دون فينشينسو الاختبارات حول المنديل، تأكد من النتائج وأخبر الابن لم تكن مناقشة مؤلمة. قال له أنه يدين بكل حظه لمنولار، لأنه لولا ما حدث معها، لما أبعده عنه وعن البلدة. الآن وقد أصبح ثريا وفى مأمن، عليه أن يسدد الدين الأخلاقى نحوها، إضافة فورية لمبلغ ضخم إلى العملات الذهبية ومراقبة حسابها، وهى على أية حال لم تكن لتدرك شيئا. أما جوفانينى الذى كان لا يزال يخشى أباه كى يثبت له أنه تائب على ما فعل وأنه رجل ينتمى إلى المافيا، قام بواجبه. وكان ذلك نواة ثروة منولارا التى لم تكن تعلم شيئاً عن تزايدها، ونمو استثماراتها.

كان تحقيق الطلب الثانى عسيرا. أراضى حقول بوليرى التى كانت عائلة الفاليبى قد اشترتها بثمن زهيد من الأمير والتى كانت تدر عائداً بسيطاً ولكنها كانت ملاصقة

تقريبا لروكا كولمبا الدنيا. أرسلت إليه منولار من يخبره أنها كانت تعلم بالحديث عن إنشاء مدرسة جديدة بروكاكولمبا الدنيا، وعن التوسع فى المدينة، وإن إدخال أراضى بوليرى ضمن الأراضى الصالحة للبناء وإقامة المدرسة بها، سيسعدها، لأنهم يحتاجون إلى بيع الأراضى الريفية. تحتم على دون فينسيشوا التدخل والتوسط كثيراً ليحقق ذلك ولكنه فى النهاية نجح فى تحقيقه: فأقيم فى تلك الأراضى ليست فقط المدرسة وإنما أيضا مبانى المساكن الشعبية ومصنع أسمنت مما أثرى عائلة الفاليبي.

الطلب الثالث حققه لها يوم الثلاثاء ٢٤ سبتمبر ١٩٦٣. منولارا تستحق كل احترام وسيظل حارساً لذكراها، و الويل لمَن يتحدث عنها بسوء.

٥٠. ثلاثينية منولارا

لم يدهش فقط أهالى روكاكولمبا وإنما أيضاً عائلة الفاليبى للاعلان الذى نشر بجريدة «جورنال دى سيشيليا» كان يُذكر الأصدقاء بتاريخ وساعة القداس بكنيسة عذراء الآلام بمناسبة ذكرى مرور ثلاثين يوما على رحيل الآنسة ماريا روزاليا انسيريللو.

أقام الأب ارينا القداس بسرعة كعادته. وهذه المرة لم يلق الموعظة.

« يمكنه أن يذكر كل ما يطرأ على ذهنه» فصالة الكنيسة خالية تقريبا.«حدث بذلك نفسه دون باولينو، والذى كان واحداً من القليلين الذين حضروا القداس. كانت السيدة أدريانا الفاليبى وكارميلا ليونى جالستين بجانب الرئيس فاتا وزوجته بينما كان موثق العقود فاتسانو يقف خلفهما بجوار الطبيب منيدكو، وشقيقته. كان هناك عدد قليل آخر من الأشخاص، لم يتجاوز عددهم العشرة وأثناء العودة، كان دون باولينو يغمغم قائلا لزوجته: «قلت لك أن الناس تنسى، ولا أشكو من ذلك، أعتقد أن ذلك طبيعي، فلكلمة «منولارا» نفسها تكاد تختفى من لغتنا، اختفت قاطفات اللوز من الحقول، يجمعون اللوز الآن عن طريق قطع المشمع، وعما قليل سيأتى أيضا التونسيون إلى جبالنا...وهكذا لن نرى قاطفات اللوز بعد ذلك.

صمم بيترو فاتا على دعوة الأب أرينا بعد انتهاء القداس. كان يود مناقشة أمر هام معه ومع جانى الفاليبى الذى كان سيلحق بهما فى الواحدة ظهرا عند وصوله من كاتنيا خصيصا لهذا اللقاء.

دعى بيترو فاتا جانى، والقسيس إلى حجرة مكتبه بعد تناول الطعام، بدا رسمياً ومتحرجاً فى نفس الوقت.

- «جانى، لديَّ أخبار سعيدة لعائلة الفاليبي، وأريد أن تحدث عنها أولا معك وحدك مع الأب أرينا، كى تقول لى كيف يمكن إخبار أمك وأختيك وتخبرنى عن الدور الذى ترغب فى القيام به.

سأله جانى متكدراً: «وضح يا عمى بيترو، ماذا تقصد بهذا الدور؟»

كان قد أيقظه فى ذلك الصباح صديق كان قد قرأ إعلان القداس فى الجريدة وهذه المرة لم تنشره عائلة الفاليبي. تحدث مع أمه وشقيقتيه وكن لا يعلمن شيئاً سواء عن الإعلان أو عن القداس. شعر بالخوف فكان لا يدرى إن كانت منولارا تدبر لهما مكيدة أخرى أو مزحة سخيفة، كان مترددا بين الذهاب إلى روكاكولمبا والبقاء فى كاتنيا. تحدث أيضاً مع الأب ارينا الذى رد بأن الاحتفال بمرور ثلاثين يوما على الوفاة يعتبر من الأمور العادية وكان قد اتفق على ذلك مع منولارا نفسها، ودهش لعدم معرفة جانى بذلك الأمر. ثم تبع ذلك الدعوة إلى الغداء ببيت فاتا، وكان لدى الرئيس أخبار سعيدة وهامة يريد إخباره بها بسرعة.

«محامى شهير، ومحترم من زيوريخ وقد قمت بالتحرى عنه بالشكل اللائق أرسل خطاباً لى، ولرئيس المدينة الأسبوع الماضي. فقد توفى حديثا عميل قديم له، محب للفنون وخصص جزءًا كبيرًا من ثروته لإنشاء مؤسسة ثقافية تحمل أسم أبيك.»

قال جانى:« أبى ؟ لا أصدق.»

رد بيترو فاتا:

أنا أيضاً فى أول الأمر، كان لى نفس رد الفعل ولكن بعد تفكير فى الأمر، وجدت أن أوراتسيو كان شخصاً غزير الثقافة وجذاباً...، ربما تعرَّف إليه ذلك المحسن وأعجب به.

«الآن يرغب فى إقامة احتفالية موسيقية للفن الأوبرالى فى شهر مارس، تكريما لذكرى أبيك بعاصمة المقاطعة وقد خصص أيضاً أموالاً لمنحة دراسية تخصص لشاب فقير لدراسة الغناء فى الكونسرفتوار بكاتينا.

وماذا أيضاً؟ سأل جانى متشككاً، ساخراً.

«أنا رئيس تلك المؤسسة، الذى يتولى تعيين الأعضاء للجان المختلفة كنت أريد أن أعرف إن كان الأمر يهمك.

الشروط التى وضعها ذلك المحسن قليلة وواضحة.

يطلب أن تعزف مقطوعات اختارها، فى أول وآخر العرض، كلها من تأليف فيردي، ويبدأ بأوبرا عايدة، يتمنى أن تقوم أنت أو ممثل آخر لعائلة الفاليبى بتسليم الجائزة للفائز فى مسابقة الغناء وأن يطلق على الاحتفالية «منولارا» وهى مخصصة لذكرى المحامى أوراتسيو الفاليبى رجل الثقافة والمهتم بجمع واقتناء التحف.»

انفجر جانى قائلاً:

«اللعنة»

علق على ذلك الأب أرينا بابتسامة ساخرة.

«تهانى القلبية يا بروفيسور، كان والدك سيسعده ذلك الرد.»

قال جانى قلقاً:« ماذا سيقول الناس؟» «وإن كانت مكيدة، والمافيا ستغضب منا؟ نحن لم نتبين بعد من أين كانت تأتيها النقود. أنا خائف، أعتقد أن لمنو دخلا بذلك، تلك ستقودنا إلى الخراب».

«اهدأ يا جاني، لايجب أن نفعل شيئاً، لقد قبلت الوظيفة، كنت ببساطة أود معرفة إن كنت ترغب فى الاشتراك. يمكن أن يكون أمرا مفيدا فهو يتعلق بشىء منظم جيدا، ومهم للمقاطعة وربما تعداها. يمكن أن تشترك زوجتك باللجنة الفنية، ربما أيضا ليللا وربما أيضا كارميلا. هذا الأمر يعد شرفاً لعائلة الفاليبي، كنت على العكس أرغب فى معرفة رأى أمك.

«لا أدرى فهى تعشق حبيبتها منو، وعلى الرغم من كل شىء، أثق أنها ستسعد بذلك».

تبادل بيترو فاتا والقسيس نظرة تفاهم، فهذه بالنسبة لهم كانت أخبارًا جيدة، كانا يخشيان الأسوأ.

استعاد جانى هدوءه وأضاف بغضب:

«لنتحدث بصراحة، أنا لا أعرف من هو هذا المحسن ولكنى أعرف أن هذه الأموال سرقتها منا منولارا، والآن ترميها فى وجوهنا بهذا الشكل، أشعر بالاشمئزاز. أمى لن تفهم ذلك أبداً، على أية حال أنه عار على اسم العائلة، إن نحينا جانباً الحديث عن والدي، الذى كان سيذوب خجلا أمام فكرة وضع اسمه بجانب اسم تلك الخادمة. وبالتأكيد لم يكن ليرغب فى ذلك وإلا فما منعه من أن يفعله.» نظر حوله كان بيتروفاتا والأب أرينا هادئين، لم تتغير تعبيرات وجهيهما مثال صادق على تلك المقدرة على إخفاء آلافكار والمشاعر التى يتشربها الصقليون مع لبن أمهاتهم».

قال جانى ببرود:

«افعل ما يحلو لك ياعمى بيترو، لم أكن أتوقع منك ذلك، كنت أظنك صديقا حميماً وأخاً لأبي.»

«ولا زلت كذلك». كانت هناك نبرة توتر فى صوت بيترو فاتا

رفع جانى صوته:

«سيقول الناس إنه كانت هناك علاقة بين أبي ومنو، وربما قصة حب، هل تفهم، وهذا ما كانت تريده. لم تفلح فى ذلك أثناء حياتها، والآن تريد الانتقام منا. يجب أن نشرح للناس أن علاقتهما كانت شيئاً آخر»

أجاب بيتروفاتا بثبات:

«أعلم أن أبيك كان يحبها»

كان جانى مذهولاً.

أضاف مستهزئاً:

«لا أصدقك ياعمي، المنصب جعل أفكارك تضطرب، الآن ستقول لى إنها كانت

تحب أمي، تحبنا نحن الأبناء وتريد فقط مصلحتنا، وكان يجدر بنا إطاعة أوامرها.»

تدخّل الأب أرينا: «اهدأ يا بروفيسور، لا أستطيع أن أخون أسرار الاعتراف. ولكنى أوكد لك أنه لن تكون هناك نتائج سيئة من المافيا أو غيرها، على شرط ألا تتحدثوا بسوء عن منولارا فى العلن، لن تصلكم أية خطابات أو رسائل منها نحن نتحدث فقط عن احتفالية موسيقية، إنها شيء جميل وسيشرف اسم عائلتكم.»

أضاف بيتروفاتا: «لا تخشى سخرية الناس ياجانى على العكس، فإن ذلك يتوج تصرفكم السابق، فقد نشرتم النعى مرتين. سأعطى تفسيراً لاختيار عنوان الاحتفالية على هذا النحو وهو كما يطلب صاحب المبادرة، بأن شخصية من الخدم أصبحت مسئولة عن إدارة الأملاك، خدمت العائلة بأمانة وهذا أيضاً من كلماتكم عنها. سأضيف بأنه بفضلكم استطاعت الدراسة وأصبحت أيضا مساعدة لاوراتسيو فى أبحاثه الفنية والموسيقية. فضلا عن أنها بفضل عملها فى إدارة أعمالكم، أتاحت لاورتسيو الوقت الذى خصصه للفن والموسيقى، ولست أبالغ فذلك يطابق الحقيقة المجردة.» كان بيترو فاتا يتحدث جيدا، هدأ جانى وإن كان لا يزال يفكر فى خسارتهم الكبيرة عندما قاموا بتحطيم المزهريات الإغريقية!.»

ترك الأب أرينا منزل فاتا فى الظهيرة، وذهب مباشرة إلى منزل الطبيب منديكو، قبل أن يستقل الحافلة ليعود إلى الريف، كان الطبيب يقرأ الجريدة. جالساً فى الصالون مع أخته.

قال الأب أرينا رافضا دعوتهما بالجلوس لتناول القهوة «يجب أن أعطيك إجابة وجيزة أيها الطبيب. لقد سألتنى الشهر الماضى سؤالا صعبا، لم أستطع إجابته، الآن أعرف الإجابة:« نعم.»

رد الفعل المبالغ فيه وغير المتوقع من الأخ أمام كلمات القسيس، أكد للسيدة بريما بالدليل القاطع أن أخاها أصبح فعلاً غريب الأطوار، ربما كان على أعتاب خرف الشيخوخة. وبالفعل فإن الطبيب ميندكو الذى كان قد نهض طلب من

مقعده لاستقبال القسيس وكان لا يزال واقفا أمامه، عندما سمع هذا الكلام، أمسك بذراعه، وأجبره على خفض قامته، أحاط به بذراعيه القصيرتين وطقطق قبلتين فوق وجنتيه ولم يتركه، وبقى متعلقاً بالقسيس فى عناق طويل. وفى نفس الوقت لم يحاول الأب أرينا الإفلات، وبدا أنه يقبل ذلك التصرف كما لو كان شيئاً طبيعياً. وأخيرا، انفصل العجوزان وهما ينظران إلى السيدة دى بريما، وكأنهما مراهقان متلبسان بفعل غير لائق.

استأذن الأب أرينا متحرجاً و متلعثماً. اصطحبه الطبيب إلى الباب، وقال بصوت منخفض:

«أحسنت منولارا، حقيقة إن الحب لا يعترف بالسن!»

احتضن الأب ارينا مرة أخرى قبل أن يلحق بشقيقته فى الصالون.

سألته السيدة دى بريما:

«ميمو، ماذا كان يعنى الأب أرينا بتلك الإجابة؟» كانت مستعدة لإغراق شقيقها بالأسئلة.»

قال الطبيب:

« كونشيتا، هناك بعض الأمور ذات طبيعة شخصية، ولا ينبغى أن تهتمى بها.الآن كفى من فضلك.» عاد للقراءة.

ذهبت السيدة دى بريما إلى حجرتها، وهى تشعر بالإهانة، تاركة الطبيب ميندكو لقراءة الجريدة، وكان يشعر بسعادة لم يشعر بها منذ زمن.

الختام

انتقل جاسبرى ريسيكو للإقامة فى باليرمو بعد حصوله على ترقية بسيطة، بينما انتقل ماسيمو ليونى وكارميلا الفاليبى إلى قصر الفاليبى للعيش مع السيدة الفاليبى وظلا معها حتى موتها فى عام ١٩٦٧.

انفصلت كارميلا عن زوجها بعد ذلك بفترة وجيزة عقب مشاجرة عنيفة. قررت كارميلا بعد ذلك فتح محل للملابس بروكاكولومبا، وحقق المشروع نجاحاً كبيراً. كانت تعيش بشقة فى قصر الفاليبى وتقضى أمسياتها بالمنزل، جالسة إلى المنضدة الصغيرة، تجمع قطع لعبة «البازل» التى استهوتها منذ محاولتها جمع قطع المزهريات التى حطمتها مع أخويها فى ٣٠ سبتمبر ١٩٦٣. فى الواقع نجحت فى ذلك كثيراً لدرجة أن الأشقاء الثلاثة قرروا تسليم الدكتور بالميرى بالمتحف الأثرى القطع المحطمة من مجموعات الأب (التى تم ترميمها وعرضها الآن بالمتحف) وذلك بعد إحساسهم بالذنب ولتهدئة روح منولارا التى أصبحت تشغل حيزًا وأبعادًا خارقة وشيطانية فى عقولهم.

كانت لعبة البازل المسيطرة على أمسيات كارميلا، تمارسها كل ليلة ما عدا أربع مرات فى العام، عند تغيير الفصول، حيث يحضر إلى صقلية مندوب وسيم لبيت أزياء للسيدات بنابولى لتلقى طلبات العميلات. عندئذ ترتمى كارميلا فى أحضان المندوب فى حب موسمى، قوى، هادئ. وعندما يتركها ليطوف بالأقاليم الأخرى، تسقط كارميلا فى خمول حواس، تساعدها عليه لعبة البازل لحين الزيارة اللاحقة.

أقام ماسيمو ليونى ببيت شقيقته واستمر فى حياة العربدة. عندما بلغ الخمسين، حملت منه فتاة من كاتنيا، هدده إخوتها وبدا أنهم سينفذون تهديدهم. شجعه صهره على ترك البلدة للهرب من مطارديه، وبعد ذلك لم يعد يسمع عنه فى روكاكولومبا.

أصبحت ليللا من المترددات المحترمات على الصالونات الراقية بروما. كانت تستقبل الناس ببيتها بأناقة حيث يحتل مكان الصدارة بصالونها مزهريتان من الخزف اليونانى، وقد نالتا إعجاب جميع المترددين من المثقفين بالعاصمة كمثل رائع للفن اليونانى. بالإضافة إلى أن ليللا أصبحت عضوا بلجنة تحكيم مسابقة«منولارا» السنوية التى بالإضافة إلى الاحتفاليات الموسيقية كانت محل تقدير وإعجاب الجزيرة كلها.

عاش جانى حياة هادئة وراضية، مع زوجته وابنه اوراتسيو بكاتنيا، وارتقى فى سلم الجامعة. لم تساوره أبدا الشكوك بأن اوراتسيو ليس ابنه، وإنما ابن صديق حميم للعائلة وزميل لزوجته.بقى قصر الفاليبى كما هو وإن كان اعتراه بعض القدم. كان جانى وزوجته يقيمان بالطابق العلوى عند قدومهما لروكاكولومبا للإجازات أو للاحتفاليات الموسيقية وفى الغالب كانا يدعوان بعض أصدقائهما. وأوراتسيو الصغير حبلت به أمه فوق الأريكة المقابلة للمدفأة بحجرة مكتب المحامى الفاليبى.

نسيت الناس سريعاً ماريا أينسريللو، الملقبة بمنولارا، ولكنها تتذكر بفخر المواطن البارز المحامى أوراتسيو الفاليبى، المثقف الكبير وجامع التحف التى تشرف ذكراه البلدة.

شكر

أهديت الرواية إلى شركة الطيران البريطانية. أنا مدينة لتأخر طائرة باليرمو- لندن يوم ٢ سبتمبر ٢٠٠٠، بلحظة الإلهام التى دفعتنى لكتابة هذه الرواية. لذا- وربما أيضا لذلك الخط «الهوائى» الذى يربطنى مع بلدي- تظل شركة الطيران البريطانية فى الإهداء.

أود أن أشكر شخصين لمساعدتهما لى فى كتابة هذه الرواية: جوفانا سالفيا، القارئة الأولى، ومسئولة النشر المتحمسة التى لم تبخل باقتراحاتها السديدة الصائبة وقد أصبحت الآن أيضا صديقة. ثم مراجع النسخة بدار نشر فلترينللى ألبرتو روللو، لمساعدته الدائبة الصبورة القيمة والتى لا تقل عن المستوى الرفيع لعمله المهنى. العمل معه بالنسبة لى كان متعة حقيقية فضلاً عن تعلمى المستمر منه.

ألبرتو روللو لم يمنحنى فقط «دورة تخصص»فى الكتابة، فمنحته تعدت ذلك لتكشف لى العديد من الأبعاد لمعانى الكلمات باللهجة الصقلية والإنجليزية، مرادفات، أدهشنى عدم معرفتى بها.

سيمونتا أنيللو هورنوبى

ولدت في باليرمو ١٩٤٥

تخرجت في كلية الحقوق عام ١٩٦٧، وانتقلت للاقامة في لندن عام ١٩٧٢.

بدأت الكتابة عام ٢٠٠٢، حيث أصدرت رواية منولارا «قاطفة اللوز» التى حققت نجاحا كبيراً، و نالت عنها العديد من الجوائز الأدبية المهمة وترجمت الرواية إلى عشرين لغة. توالت بعد ذلك إصداراتها الأدبية من أهمها العمة الماركيزة عام ٢٠٠٤، رياح عاصفة عام ٢٠٠٧، الراهبة عام ٢٠١٠ والغرفة المظلمة عام ٢٠١٠ و شارع ٢٠سبتمبر ٢٠١٤. لا تزال سيمونتا مرتبطة بوطنها رغم سنوات الاغتراب الطويلة وتدور أحداث معظم رواياتها في جزيرة صقلية وتنضح بحضارة البحر الأبيض المتوسط.

تهتم سيمونتا انيللوهورنوبى بمشاكل المرأة في العالم العربى، وصدرت لها العديد من الأبحاث في هذا المجال.

نجلاء والي

حاصلة على دكتوراة الآداب فى اللغة الإيطالية بدرجة مرتبة الشرف الأولى من كلية الألسن « جامعة عين شمس»

صدرت لها العديد من الترجمات من أهمها: حكايات كالفينو لإيتالو كالفينو، وابتسامة البحار المجهول لفينشينسو كونصلو، وجزر النعيم لكلاوديو باتشيفيكو وحياة ماريانا أوكريا لداتشيا ماراييني.

تموت منولارا، خادمة عائلة الفاليبي، وتترك وصية لمخدوميها تطلب منهم نشر نعي لها تحدد كلماته مثلما تضع تفاصيل جنازتها بدقة، وتخبر العائلة بحجم الميراث وطريقة التصرف في الأملاك. من أين أتت منولارا بكل هذه السلطة على العائلة؟!

كما في كل المجتمعات الريفية الصغيرة، تنطلق النميمة لترسم تفاصيل حياة منولارا، بل حيواتها المجهولة، البعض يؤكد أنها عشيقة الأب، والبعض يجزم بأنها صديقة الأم وكاتمة أسرارها، والبعض يؤكد أن الخادمة التي كانت مجرد قاطفة لوز بائسة، عضو خطير في المافيا. الطريف أن وقائع ما بعد الجنازة تكشف عن جوانب تجعل كل الحيوات المقترحة لمنولارا ممكنة وجديرة بالتصديق!

رواية شديدة الجاذبية، تجمع بين تقنيات «رواية الأصوات المتعددة» وتشويق الحبكة البوليسية. وهي الرواية الأولى للكاتبة الإيطالية سيمونتا أنيللو هورنوبي، وهي الأخرى صاحبة سيرة تدعو إلى الحيرة، فقد بدأت الكتابة في السابعة والخمسين، وولدت مكتملة الأدوات.





